المناهل

15

الجمل

المناهل

تصدرها
وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية
الرباط - المغرب

العدد الخامس عشر
السنة السادسة

شعبان 1399
يوليو 1979

عَدَدٌ خَاصٌّ بِالْيُوسِيِّ

تهنئة "المناهل" بعيد الشباب المجيد

يسعد أسرة "المناهل" ويشرفها أن ترفع آيات التهاني والتبريك إلى مقام حضرة صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني المؤيد المنصور بالله، بمناسبة عيد الذكرى الخمسين لميلاده الميمون، ومملكته في غمرة من البهجة والاغتباط والمسرات احتفالاً بهذا العيد المجيد، وإعراباً عما يكنه جميع المغاربة من محبة وإعزاز وولاء وإكبار نحو قائد المغرب الملهم الحكيم، ومبدع مسيرته، ومحقق انتصاراته، وصانع أمجاده.

و"المناهل" إذ ترفع عواطف محبتها وولائها لشخص جلالته، تضرع إلى الله سبحانه أن يعيد هذا العيد السعيد عليه وعلى أسرته بأعظم المسرات، وأن يكمل عمره ويقر عينه بولي عهده صاحب السمو الملكي الأمير الجليل سيدي محمد وبصنوه الأمير المحبوب مولاي رشيد، وأخواتهما الأميرات الجليلات، وأن يحقق بما وهبه الله من عبقرية وحكمة وتوفيق ما يطمح إليه شعبه من واسع الآمال.

"المناهل"

فهرس

صفحة

1) افتتاحيـــة

المناهــــل 11

2) أبــو علي اليــوسى

عـــلال الفــاسى 15

3) بيوبيليــوغرافيــا اليوســـى

د . عبــاس الجــراري 54

4) الحسن اليوسى من خلال « المحاضرات »

محمد العربى الخطـــابى 114

5) الامـــام اليوسى فى حلله ومباذلـــه

عبد الرحمـــن الفاســـى 149

6) ملامح الفكر السياسى عند الحسن اليوسى

محمـــد الكتـــانـــى 192

صفحـــة

7) الحسن اليوسى اللغــوي

د . محمــد حجــى 211

8) شعر الحسن اليــوســى

محمــد ابن تاويــت 230

9) اليوسى فكر قوي وراء شخصية قويـــة

د . محمــد زنيبــر 260

10) بطاقة فى منتهـــى الطاقـــة

د . عبد الهادي التـــازي 287

11) جانب من شخصية الشيخ اليوسى ورسالته

د . عبد الســلام الهـــراس 311

12) انى أوصـــى أولادى

د . عبد اللطيف السعـــدانى 326

13)أبو على اليوسى : هموم واهتمامات

عبد القـــادر زمـــامـــة 375

14) القول الفصل فى تمييز الخاصة عن الفصل

د . التهامى الراجى الهاشمى 392

افتتاحية

من جملة اهتمامات وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ، اهتمامها برواد المعرفة ، ونبهاء الفكر وأفذاذه القمم . وذلك باحياء ذكراهم ، ونشر تراثهم والكشف عن مكنوناتهم ومطوياتهم ، والتنويه برسالتهم الفكريـــــة ، ولفت أنظار الاجيال اللاحقة اليها ، أسوة حسنة ، ورمز أمجـــاد .

ويعتبـــر الحسن اليوسى أحد أعـــلام المعرفـــــة الكبار ، الذي يعتز ويفتخر به الفكر المغربى الاصيـــــل لشمولية علمه ، ورحابة معرفته ، وتفتح ذهنه ، وحـــدة نباهته ، وتمسكه بالمبادىء الاسلاميـــــة والوطنيـــة ، واخلاصه لرسالته العلمية المثلى التى نبهت الى مدرسة ذات طابع متميز فى التفكير والمنهج ، هى ظاهرة مـــن

الطاقة المجددة ، حركت الفكر المغربي ، ووثبت به الى مناخ نشيط مبتغى .

وتكريما لهذا النابغة ، رأت وزارة الثقافة ، أن تفرد لمكانته المرموقة هذا العدد من مجلتها « المناهل » ، أسهمت في تحريره صفوة من رجال البحث والدراية من المغاربة المتخصصين الكفاة ، أهتم كل واحد منهم بدراسة واستجلاء جانب من جوانبه العلمية والفكرية والادبية ، وسواها من الجوانب المتعددة المرامي والاهداف .

ويلمس القارىء مدى صراحة اليوسي في بعض صفحات هذا العدد وخصوصا ما يتعلق منها بحواره المفتوح مع المولى اسماعيل ، هذا الملك العظيم الذي لم تصرفه أعباء الدولة ، ولم تشغله اهتماماته المتنوعة الكبرى – باسترجاع المناطق المغتصبة من البلاد ، وتوحيد التراب الوطني ، واستتباب الامن واشاعة الطمانينة والرغد بين المواطنين – عن مجالسة العلماء وأهل الرأي من شعبه ومطارحتهم والانصات الى آرائهم ، بل وحتى الى ملاحظاتهم التي كان يتقبلها برحابة صدر ، وتفتح خاطر ، وهو من تعرف عظمة ومهابة وشجاعة وقوة سلطان .

ولا عجب في ذلك ، فروح الديمقراطية غريزة طبعت العرش العلوي ، وتعتبر ميزة امتازت بها الدولة العلوية

ملكا غب ملك ، مرورا بالمولى الرشيد المؤسس الفعال للدولة العلوية ، وسيدي محمد بن عبد الله العبقري المصلح ، ومحمد الخامس بطل المقاومة والتحرير ، وزعيم منزعماء العرب والمسلمين ، الى عهد الحسن الثانى العظيم ، الذى أسس نظام الملكية الدستورية ، وأرسى قواعد الديمقراطية الحقة ، وفتح منبرا للشعب يجري فيه حوار الشعب ، وتتبادل فيه الآراء على مختلف اتجاهاتها، وتعد فيه القوانين بكل حرية وتجرد وانطلاق ، بالاضافة الى ما اضطلع به هذا الرائد قائد المسيرة الخضراء المظفرة من استعادة الاراضى المستعمرة ، وتوحيد اجزاء الوطن ، وانشاء السدود ، وقيامه حفظه الله بالاصلاحاتوالمنجزات الكبرى فى المجالات التعليمية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية وسواها من المجالات التى يقوم عليها صرح المغرب الجديد ، الذي اقترن باسمه الكريم .

انها سلسلة امجاد ومكرمات ملوك الدولة العلوية ، محكمة الحلقات موصولة الابعاد ، لاسعاد المغرب ، والارتقاء به فى مدارج العز والرخاء والمجد .

* * *

واذا رأت وزارة الثقافة اصدار هذا العدد المتميز فى هذه المناسبة المتميزة بالاحتفالات الكبرى التى تقام فى جميع أنحاء المملكة تخليدا للذكرى الخمسينية لمولد عاهلنا الذي يتسع قلبه وفكره لجميع شؤون رعاياه ،

وتكريما لجلالته أطال الله بقاءه ، واعترافا بفاخر أياديه فانما قصدت بذلك من جانبها ، الاسهام فى هذه الاحتفالات باستمرارية هذه السلسلة الذهبية ـ من الديمقراطية والحرية الفكرية ـ المقرونة بالامجاد والانتصارات والبطولات التى حققتها ملوك الدولة العلوية .

* * *

وبعد ، فان أسرة « المناهل » ترجو أن تتجلى من خلال مضمون هذا العدد ، ملامح شخصية هذا العالم الشاعر المفكر الحسن اليوسى ، كما ترجو أن يبرز ـ من وراء الدراسات والابحاث المصروفة لهذا النابغة المغربى ـ المحيط الثقافى الذي امتازت به العهود الاولى لحكم الدولة العلوية .

المناهل

أبو علي اليوسي

(1040 - 1102)

شخصيته - حياته - دراسة موجزة لآثاره

"من فاته الحسن البصري يدركه   فلنيات للحسن اليوسي يكفيه"

علال الفاسي

رات « المناهل » ان تعيد نشر هذا البحث الذي صدر مجزءا في الاعداد : 4 و 5 و 6 من مجلة « المغرب الجديد » لسنة 1935 ، لكونه يدخل في نطاق هذا العدد الخاص باليوسي ، وليطلع عليه من فاته قراءته لطول العهد على صدوره .

وجدير بالذكر ان المرحوم علال الفاسي ، وقع هذا البحث في المجلة المذكورة بامضاء مستعار هو « ابو المحاسن » . وقد كشف بنفسه من اسمه الحقيقي في فهرس عددها 9 ـ 10 : 1936 .

« المناهل »

شخصيته

هذه شخصية من الشخصيات المغربية التى كان لها اثر كبير فى الثقافة والآداب القومية فى القرن الحادي عشر وما بعده ، والتى تمثل كبرياء العالم واعتداده بنفسه ، وايمان العارف ووثوقه بربه . وتضم بين احضانها صورة كاملة للروح السائدة فى ذلك العصر ، بما فيها من سذاجة وما تنطوي عليه من فطنة ، فتجمع بين عقلية العالم المدقق الذي لا ياخذ شيئا الا بعد التجربة والملاحظة والبحث ، عما فيه من ظواهر قد تكون مموهة ، وخوافى قد تكون باطلة ، ونفسية الشاعر الذي يمتلىء من جمال الكون وآثار أهليه ما يكسبه فيضة تنير له السبيل ، وتكسو كل ما فى الوجود جمالا يبعث على القناعة به ، والاطمئنان اليه ،

وروحانية الصوفى المستسلم الذى يومن بكل شيء ، ويعتقد بكل ما يحدث به ما دام يشاهد فى الجميع اثرا ممكنا من آثار القادر الذي لا يعجزه شيء ، وتلك هى العناصر الثلاثة التى تتكون منها شخصية أبى على اليوسى . وسنرى الى اي حد تستطيع أن تتآلف هذه الصفات التى يراها القاريء باديء بدء من المتناقضات ، بينما هى فى كثير من رجالات المغرب فى ذلك العصر متآخية متناسبة .

ولعل فى عقيدة الفرق بين الظاهر والباطن ، والتمييز بين احوال الخاصة والعامة من الخلق ، ما يسهل علينا فهم السر فى ائتلاف هذه المتناقضات واجتماعها كأن ليس بينها من خلاف .

حيــاتــه

هو ابو على الحسن بن مسعود بن محمد بن على بن يوسف (1)اليوسي من آيت يوسى (2) القبيلة البربرية ولد عام 1040 هـ

1) سرد ابو على فى المحاضرات ص 5 عمود نفسه وفيه بعد يوسف احمد بن ابراهيم بن محمد بن احمد بن على بن عمر بن يحيى بن يوسف (وهو أبو القبيلة) بن داود بن يدراسن بن يستتن ثم قال وهذا ما نعد من النسب الخ ومن المفيد أن ننبه هنا الى تحريف ارتكبه الشيخ الكتانى فى (فهرس الفهارس) فانه حين سرد عمود نسب ابى على وقف عند يوسف بن أحمد وقال « ومن العجيب أن المترجم له فى محاضراته لما ذكر إنه إبن مسعود بن محمد بن على بن يوسف قال وهو ابو القبيلة وهو عجيب فان جده يوسف هذا رابع الآباء ومع قربه من زمنه تفرعت منه خلائق لخ ص 464 ــ 2 » وانت ترى فى العدد الذي سقناه من المحاضرات نفسها ان يوسف أبا القبيلة ليس هو رابع الآباء بل هو الثانى عشر منهم فهل يبلغ حب الاغراب الى التحريف ؟

2) اليوسى أصله اليوسفى نسبة ليوسف ابى القبيلة كما علمت وهم يسقطون الفاء من لغتهم (انظر المحاضرات ص 16).

أي قريبا من منتصف القرن الحادي عشر ، والقرن الحادي عشر كما يعلم المطلعون على تاريخ المغرب كان بالاسف عصر انحطاط فى الهمم ، وتقاعس فى العزائم ، واسفاف فى الافكار ، وهو عصر عم فيه الجهل جميع الانحاء المغربية ، وكثرت فيه الفتن والقلاقل الى حد أصبح عسيرا معه طلب العلم والجد فيه وكانت فى ذلك العهد مدارس ثلاث هى التى انبعث منها ضياء لامع أنار السبيل ، واحيا ما كاد ينطمس من معالـــم المعرفة ومراسم اليقين تلك هي مدرسة ابن ناصر بدرعة ، ومحمد بن ابى بكر بالدلاء ، وعبد القادر الفاسى بفاس (3) .

واذا كانت هذه المدارس قد قامت بجهود عظيمة فى خدمة العلم ونشره ، وفى حث الهمم على الجد والمثابرة فى طلبه ، فانها لم تستطع أن تخرج عن طبيعة عصرها ، ولا ان تشق سبيلا نيرا للعقل كما فتحته للعلم ، ولكنها مع ذلـــك قدمت للمغرب الاسلامى خدمات ستبقى عظيمة وان تطور الزمـــان ، اذهى — على الاقل — قاومت الذين كانوا يحولون بين الناس والعلم بدعوى انه يقسى القلب ويبعد من الله ، وكونت من هذه الزوايا معاهد تجمع بين تربية النفس وتربية الفكر ، فتخرج تلامذة مطبوعين بطابعها مومنين بمبادئها . وابو على اليوسى هو احد

---

3) قال القادري (النشر ص 26 ج أ) : ومن الجاري على الالسنة وحكاه لي بعضهم عن شيخنا اورع اهل زمانه سيدي عبد الكبير بن محمد السرغيني ، رضي الله عنه ، قولهم لولا ثلاثة لا نقطع العلم من المغرب فى القرن الحادي عشر ثم عدهم كما ذكرنا .

أولئك النبغاء الذين استفادرا من هذه المدارس واقتبسوا من تعاليمها ، وكان تخرجه العلمى فى واحدة منها هى مدرسة الدلاء .

وولد أبو على — زيادة على ذلك — فى حجر والد أمى ، يجمع الى ايمان العامى الساذج يقينا يبعثه على الرجاء من الدعوات الصالحة والمراءي الطيبة . وذلك ما يكون فيه الرغبة فى تعليم ولده عسى أن تتحقق رؤياه التى رآها والتى يحدثنا عنها اليوسى — بنفس الرجاء الذي كان لوالده — فى محاضراته (4) ، فيقدمه الى مكتب القرية لحفظ القرآن ودراسة الأمهات . ويجد نفورا من هذا المكتب الذي لا عهد له به ، ويلح عليه الخجل الذي كان مصاحباله فى صباه الى أن يابى هذا التعلم وما يؤدي اليه . ثم تموت والدته فتؤثر (5) وفاتها فى نفسه ، وتلمس روحه الشاعرة اثر هذا الموت فى اسرته ، فتتنكر له الارض ومن عليها .

فمـــا الناس بالنـــاس الـــذين عهدتهـــم
ولا الـــدار بالـــدار التـــى كنت تعـــرف

ثم يكون ذلك سببا فى زوال نفوره من التعليم ، فيتردد على المكتب ويرغب من والده ان ياذن له فى الرحلة والتغرب فى طلب العلم وتحصيل المرغوب ، ويساعده ابوه على هـــذه الامنية ويسافر الى جهة سجلماسة ، ثم بعد أن يختم القرآن يذهب مع معلمه ابى اسحاق ابراهيم ابن يوسف الحداد اليوسفى الى

---

4) المحاضرات ص 36 — وننبه الى اننا نرجع الى نسخة مخطوطة وان ذات الطبع الفاسى ليست تحت يدنا الآن .

5) الفهرسة لليوسي ص 38 « مخطوط » .

آيت يوسى ويتنقل فى زيارة الصالحين ، مصاحبا للمورد العذب وبحر الدموع (6) متأثرا باستاذه الذي كان يرجع اليه فى اخبار الزهاد أمثال اويس القرنى وابراهيم بن ادهم — وهذه النواحى هى اول ما درسه اليوسى فى صباه — ثم يجول فى انحاء المغرب ، خاصة بلاد الساحل وسوس ، ويتنقل بين الصحراء وبلاد الاطلس باحثا عن العلماء آخذا عن مشاهيرهم ، مقيما بكل ناحية يجد فيها موردا عذبا وروضا يانعا ، وربما تقلقه الغربـــة فى بعض الساعات فيجد من اختلائه بفكره ما ينسيه ، أو من محادثة الاعراب ما يؤنسه ويسليه ، وهكذا يقص علينا اليوسى وصوله لارض دكالة ، واعياءه من الغربة وطولها ، ثم حنينه الى رجل هنالك انشده من الشعر الملحون ما كان له الاثر الكبير فى نفسه ، وما شجعه على المضى فى طريقه الى التمام .

ويحدثنا اليوسى فى فهرسته عن الشيوخ الذين أخذ عنهم فى اجلال واحترام ، وهم أبو اسحاق الحداد ، وأبو زيان بن محمد ، والحسين التعلالينى ، والحسين المدوري ، ومحمد بن الحسن المدوري ، وأبو بكر التطافى ، وعبد الله بن على بن طاهر العلوي ، وأبو العباس الدراوي ، ومحمد بن عبد الله الحسنى ، وعبد العزيز الفيلالى ، ومحمد بن محمد التجموعتى ، وأحمد التجموعتى ، وعيسى السكتانى ، ومحمد المزوار المراكشى ، ومحمد بن ابراهيم الهشتوكى ، وعبد العزيـــز الرسموكى ، ومحمد بن ناصر ، وأحمد بن عمران الفاسى ، واحمد بن سعيد ،

---

6) الفهرسة المضا ص 40 (وهما كتابان لابن الجوزي) .

ومحمد بن محمد بن ابى بكر الدلاءي ، وابو السعود الفاسي ، ومحمد بن سعيد المرغتي . ثم يعترف فى كبرياء وعظمة ان نبوغه لم يكن على قدر دراسته ، وأن ذكاءه العظيم وفطنته القوية هما اللذان كونا منه هذا الرجل العالم العامل النادر المثال ، وسواءكانت هذه الملاحظة التى يذكرها عن نفسه صحيحة أو مطولة فان ذكاء أبي على ساعده على استفادة امور لم يكن ليتلقاها عن الشيوخ ، أو على الاقل — بعث فيه ملكة الانتباه والملاحظة ، فكان ياخذ من كل مرءي ومسموع مادة يستخرج منها علما ، ويكمل بها فهما . وهو كثيرا ما يتحدث عن هذه الملاحظات ويذكرها للاعتبار بها والاتعاظ ، فتقف به قصة الحكالى (7) التى أومأنا اليها لينظر فى الشعر العامي ، ويدرس ما فيه من حكمة ، وما ينطوي عليه من بيان ، ويسافر الى جبل الزبيب (8) (بنى زروال) فتقف به لهجة الجبليين فى كسر آخر الموقوف من الكلام الى استقراء الكلمات وتتبع اساليبهم فيها وضبطها بقاعدة عامة تحفظها ، ثم يستنتج كيف كان ايمة العربية يستقرئون الكلمات ليضعوا النحو والتصريف . وهكذا يجد من كل جليل وحقير مادة للدرس والاستفادة ، وعندي انه لو كان لليوسى من عصره ما ينمي فيه هذه الملكة ، ومن زمانه ما يربى فيه هذا الاستعداد ، لسما الى الدرجة التى تبوأها الجاحظ العظيم ، ولكن البيئة كثيرا ما تجنى على النابهين فتكبت فيهم غرائز الفطنة والنبوغ .

---

7) المحاضـــرات ص 55 .

8) المحاضـــرلات ص 63 .

جال اليوسي فى الانحاء المغربية دارسا متعلما ، ثم حط رحاله بزاوية الدلاء ، وقد عاد مملوء الوطاب بأنواع العلــوم والآداب ، وتصدر للقيام بوظيفة العالم ، فدرس ما يحتاج اليه الناس ، وأجاب عما يقدم له من اسئلة ، وجادل بعض الافراد الذين يرى فيهم ادعاء غير مصيب وتبجحا غير لائق ، وكثيرا ما كانت مجادلته سببا فى رسالة يؤلفها أو قصيدة ينظمها ولم يزل كذلك الى ان استولى على الدلاء السلطان المولى الرشيد ابن الشريف (9) فنقله الى مدينة فاس التى حل بها سنة تسع وسبعين والف (10) .

وفى فاس يريد ابو على ان يلقى عصا التسيار ، وأن يكون له فى مسجدها القروي صوت مسموع ، وحلقة عامرة ، وميدان فسيح لاظهار ما له من علم ونبوغ ، ويفتتح دراسة التفسير ، فيعرف له الطلبة قيمته العلمية ، ومقدرته على الاداء ، ويجتمع عليه منهم ما لا يجتمع على أحد من المعاصرين ، ويحضر دروسه كثير ممن اتم دراسته واصبح فى عداد العلماء ، ويتخلف رجال لا يرون انهم فى حاجة الى التلقى عنه والارتواء من ورده ، فيابى ذلك طغيان العلم ، ويوهم ابا على ان ذلك من قلة انصاف القوم وغرورهم بنفسهم ، ولا يكتم استاذنا غضبه عــن الناس ، بل يتحدث به فى المجامع ، يقول فى ذلك شعرا (11) :

---

9) الافرانــي (الصفوة 287)

10) المحاضرات 85 والصفوة 207)

11) المحاضرات ص 86

ما انصفت فاس ولا اعلامها علمي ولا عرفوا جلالة منصبى

لو أنصفوا لصبوا الى كما صبا راعى سنين الى الغمام الصيب

وتشيع الابيات فى الاوساط العلمية ، ويتحدث العلماء عن غرور هذا الزائر الذي لم يعترف لسابقيه بالمكانة ، ويجيب (12) أبو زيد الفاسى على لسانهم بقوله :

بل انصفت فاس ومن انصافها ابدا سقوط المدعى والمعجب

ثم يكثر الكلام ، فى غير لجبة ولا خصام ، وترفع القضية الى أبى السعود الفاسى وهو شيخ هذه المدرسة والمرجوع اليه فيها فيقول : ان البادىء أظلم ، ثم يصلح بين الفريقين وتكون النتيجة ان يخرج لنا أبو على كتابه (القانون) ليكون كعنوان على ماله من المكانة فى العلوم ، على اختلافها ، وليقنع رجال القرويين بان له ميزة بهذه المشاركة يجب ان يعترفوا لـــه بـــهـــا .

ولكـــن بعض الحاسدين ممن غاظته مجالســـه العامرة ، وتحقيقاته النادرة ، يابى أن يرجع عن اذايته ، ولايزال به حتى ينقطع عن التدريس بالجامعة ، ويشتغـــل بالتصنيف وتلقيـــن الخواص من مريديـــه .

---

12) الافرانى « الصفوة 208 » .

ويبقى لهذا الموقف الذي صادفه أبو على اثر كبير فى نفسه يعترف به فى محاضراته ، ويحدثنا (13) عنه وعن الحسد بصفة عامة ، معترفا بكون النبغاء فى كل جيل يلقون من الحسد والاذاية ما تقضى به الطبيعة البشرية ، ومع اقلاعه عن التدريس فى فاس فانه لم ينقطع عن المحاورة والجدال مع كثير من رجال العلم فى مختلف النواحى ، وخاصة فى علم الكلام ، فنجده ينازعهم فى فهم كلمة الاخلاص ، ثم فى القول باحاطة علم النبى ، وفى تقديم الادب على الامتثال ، وغير ذلك من فنون العلم التى ربما عرضنا لبعضها بايجاز مفيـــد .

يبقى أبو على بفاس ، على هذه الحالة التى ذكرنا ، ناشرا للعلم ، قائما بالبحث ، مقيما لسوق الجدل والمحاورات الى ان تنزع نفسه الجبارة الى الخروج من وسط لا يعترف له بالفضل ، فيخرج من فاس اواسط سنة اربع وثمانين والــف ، ويبقى متنقلا فى مختلف الجهات وهو هو أين ما حل وحيثما ارتحل ، الى عام خمسة وتسعين حيث يعاوده النزوع الى ذلك الوسط الفاسى الذي يجد من خاصته وكبراء هيئته تنشيطا على الدرس ، وباعثا على المثابرة والجد ، مهما كلفه ذلك مــن تجرع مرارة الصبر ، وتحمل أعباء المماحكة والخلاف ، فيرجع ويقيم ، الى ان تشوقت نفسه لحج بيت الله وزيارة قبر الرسول والرحلة فى بلاد الاسلام ، عله يجد من اولئك العلماء المشارقة ، الذين يحدث عنهم أبو سلام وغيره من الرحل المغاربة ، ما يطفىء غلته

---

13) المحاضرات 85 وما بعدها .

ويكون له عزاء وسلوى ، فيخرج من فاس عام واحد ومائة والف صحبة ولده أبي محمد ، ويمر فى طريقه ببعض الصالحين يلتمس البركة من لقياهم ، ويتزود من دعواتهم ، ثم يعرج على طرابلس الغرب حيث يتخذ فيها دار نزل يتردد اليها علماء القطر للقياه ويستجيزونه فيجيز ، ويصل الى مصر فيلبث فيها اربعة أشهر وهو بكبريائه لا يرى فى علماء ذلك العهد الذين ملأوا الدنيا بالرواية والاسناد « امثال العجيمى وابن البنا الدمياطى والخرشى وغيرهم » من يستحق أن يوخذ عنه ، بل يصل غلواؤه الى ان يرفض اجازة بعض المشهورين ، بدعوى أنه لا يتحاشى اللحن فى الكلام ، واليوسى لا ينظر الى الاجازة كمجرد اذن فى الرواية تعطى لكل موجود ومعدوم ، بل يغار عليها ان تكون بيد من لا يستحقها ممن يتصدى للتدريس متبجحا بها وهو يكثر اللحن ويعرب عن جهله بمبادىء العلوم ، واذا اجاز فانه يختم بقوله :

على شرطها المعهود فى كل دورة

من الفهم والتحصيل والصدق فى الذكر

وهكذا بعد ان يحج اليوسى يرجع للمغرب ، معلنا بصراحة واطمئنان ، أنه ما بقى بالبلاد المشرقية من تشدله الرحال فى طلب العلم ، وانه لم يلق شيئا مما كان يحدث به عن مصر وغيرها . وبعد ان يلقى عصا الترحال يريد ان يقيم بفاس مرة اخرى ليعاود القيام بدوره العلمى السابق ، مومنا بان هذه البيئة — على ما فيها من مكدرات — هى أفضل من كل ما عداها

من البيئات . ولكنه لا يستريح الا قليلا حتى تعالجه المنون ، فيسلم النفس الى ربه خامس عشر ذي الحجة عام اثنين والف ، ويدفن بتمزيزت ، ثم ينقل بعد عشرين عاما من مدفنه الى موضع هنالك ايضا ، حيث لا يزال ضريحه مزارا لقبائل البربر التى تحيي ذكراه كل عام .

اليوسى الاديب

يقول العلامة ابن خلدون فى مقدمته عن علم الادب « ان هذا العلم لا موضوع له ينظر فى اثبات عوارضه أو نفيهـا وانما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته وهى الاجادة فى فنى المنثور والمنظوم على اساليب العرب ومناحيهم » ثم يقول : « وهم اذا ارادوا حده قالوا : الادب هو حفظ اشعـار العرب وأخبارهـا والاخذ من كل علم بطرف . يريدون من العلوم فنون اللسان أو العلوم الشرعية من حيث متونها فقط وهى القرآن والحديث ، اذ لا مدخل لغير ذلك من الفنون فى كلام العرب ، الاما ذهب اليه المتأخرون عند كلفهم بصناعة البديع من التورية فى اشعارهم وترسلهم بالاصطلاحات العلمية ، فاحتاج صاحب هذا الفن الى معرفة اصطلاحات العلوم ليكون قائما على فهمها » .

هكذا كانوا ينظرون للادب فى العصور السالفة حين لم يكن تحليل الشخصيات ولا دراسة المجتمعات والبيئات جزءا من العلم لابد للاديب أن يكون قائما عليه ، وحين كانوا يحصرون

العلوم الادبية فى اثنى عشر فنا (14) فاذا أردنا الآن أن نبحث قيمة اليوسى الادبية فيجب أن لا ندرسه خارجا عـن الدائرة التى كان يقطن داخلها الاديب وان لا نتطلب منه أن يكون انسانا فوق ما يمكن أن يكون .

كان الاديب هو ذلك الـذي يستطيع الاجادة فى فنى النثر والنظم من جهة ، ويحظى بالاطلاع على اشعار العرب وأخبارها ومصطلحات العلوم ولطائفها ليطرف بذلك جلساءه ويحاضر بها ندماءه من جهة اخرى . فهل كان اليوسى عارفا بالفنون الادبية ؟

وهل استطاع ان يجيد فى فنى النثر والنظم أم لا ؟
لقد كان اليوسى أديبا حقا . كان أديبا لانه كان لغويا ولانه كان مطلعا على أخبار العرب وأيامهم وحافظا لأشعارهم (15) .

وكان أديبا لانه كان كاتبا مترسلا يستطيع ان يستمر فى الكتابة المنشأة الكراسات المتعددة فى وقت لا يقدر مؤلفوه على اكثر من ربط الانتقال بجمل مختصرة مالوفة ، وكان أديبا لانه كان شاعرا نابغا فى شعره ، قويا متينا فى اسلوبه .

---

14) علوم الادب المشار اليها هى : اللغة والخط والشعر والعـروض والقافية والنحو والصرف والاشتقاق والمعاني والبيان والبديـع والمحاضرات والنثـر .

15) كان اليوسى كثير الحفظ لكلام الادباء يستحضر ديوان ابى تمام وابى الطيب والمعري ويسرد عدة قصائد عن ظهر قلب (القادري : نشـر المثانى 142 ـ 2) .

وخلف اليوسى آثارا أدبية هى اعظم برهان على ما ندعيه ، خلف لنا فى ناحية الادب العلمــى كتاب المحاضرات ، وكتابه زهر الأكم فى الامثال والحكم ، وشرح الدالية ، وفى الادب العلمى فهر سته ورسائله فى مختلف الاغراض وديوانه الشعري البديع .

المحــاضــرات

فاما المحاضرات فهو كتاب ألفه « حين اتفقت له سفرة بان بها عنه الاهل شغلا وتانيسا ، وزايله العلم تصنيفا وتدريسا ، فاخذ يرسم فى هذا المجموع بعض ما حضر فى الوطاب » وحملته على ذلك أمور ، « منها التفادي من البطالة ، وافادة جاهل ، أو تنبيه غافل ، وتخليد المحفوظ لئلاينسى ، واستمطار علم جديد لأن العلم كالماء نباع ، وبعضه للبعض تباع » (16) .

و «المحاضرات» علم من علوم الادب الفرعية (17) استعاض بها المتاخرون عن اسلوب «الامالى» التى كانت للمتقدمين ، وهى عادة لا ترتبط بموضوع خاص ولا بترتيب متبع وانما الشىء بالشىء يذكر والعلم يضرب اوله بآخره كما يقولون .

واليوسى فى محاضراته يفرط فى هذا التخليط افراطا كبيرا الى درجة تصعب معها الاستفادة من الكتاب . وهو يحاول ان

---

16) انظر طالعة المحاضرات .

17) يقسمون العلوم الادبية الى قسمين اصول وفروع فالخط والشعـر والانشاء والمحاضرات والتاريخ فروع وما عداها من بقية الاثنى عشر أصــول .

يرتب ذلك بفاصلة يضعها بين موضوع وموضوع تحت عنوان (لله الامر من قبل ومن بعد) لتقوم مقام الابواب والفصول ، ولكن رغبته فى تسجيل كل ما يخطر بباله تضيع عليه هذه المحاولة وذلك الترتيب .

ويزيد الكتاب تشويشا ما يعنى به المؤلف من حشد كثير من الخرافات التى يتقبلها مترجمنا بقلب مطمئن ونفس ثابتة ، ويحاول بكل قواه ان يجد لها مبررا من ناحية الدين أو على الاقل من ناحية الامكان .

وبعد ان يجول اليوسى فى كتابه جولات مختلفة يختم بباب فى فضيلة الادب والشعر ، ثم بنبذ فى أبيات المعانى والالغاز ونبذ فى المضحكات وأخرى فى الاوليـــات وخاتمـــة فى المواعظ والوصـــايـــا .

وعندي ان كتاب المحاضرات ــ على علاته ــ هو افيـــد مؤلفات اليوسى للباحث المؤرخ ، لانه يستطيع ان يستفيد منه حالة المجتمع المغربى فى ذلك العصر ، الذي يعطينا عنه صورة بينة واضحة حين يحدثنا عن كثير من الحوادث التى شاهدها صاحبه والوقائع التى حضرها وحين يتكلم عن الصالحين وكراماتهم واتباعهم فى عصره ، وعن البطالين وخرافاتهم فى عهده ، (18)

(18) انظر المحاضرات ص 38 وغيرها .

وحين يتبسط فى الكلام على ابى محلى والمتمهدين (19) وغيرهم من طلاب الرياسة ، ويعرض الى المحاورات التى كانت تقع بسجلماسة وغيرها فى اعتقاد العامة ، وهل هم مطالبون بالادلة والبراهين على الشكل المنطقى الصعب فى وقت كثر فيه الجهل وانتشر فيه الضلال ؟ الى غير ذلك من النواحى التى يطرقها اليوسي طروق الطائر المتنقل دون أن يقف عندها ليطلعك على دخائلها وخفاياها .

وأظرف ما فى المحاضرات هو محاولة اليوسى ان يتحدث لك عن حياته نفسها وعن الخواطر التى تعرض له فى سائر المواقف وكل المناسبات . ثم محاولة التعليل لكل ما يحدث عنه والتبرير لكل ما يشاهد أو يرتكب ، وانه لتغلب عليه الانانية احيانا فيمدح نفسه ويطري ، ثم يعاوده التنبه لعواقب ذلك المدح عند الناس فيبحث عن مبرر يبديه . وكثيرا ما يكون طليا مضحكا تتقبله وانت لا تومن باصوبية ما فيه .

ويبث اليوسى فى ثنايا محاضراته افكـــارا قيمة جديرة بالاعتبار . يتكلم عن ضرورة التعاون (20) بين الخلق فيقول : « ان عادة الله لم تجر باختصاص رهط أوحى واحد من الناس

---

(19) انظر المحاضرات ص 50 . وابو محلى هذا هو احمد بن عبد اللـــه الفيلالى كان ادعى المهدوية سنة 1019 هـ وتبعه اقوام كثيرون حتى تتلسنة 1022 هـ ، وله رسائل ومؤلفات وصنع لدعوته كتابا سماه الاصليت ، وهو شخصية غريبة جديرة بالعناية والبحث .

(20) المحاضرات ص 8 وما بعدها .

بالتفرد بالمعارف والاستقلال بالمصالح الدينية أو الدنيوية دون سائر أصناف الخلق حتى ينتظم بهم الامر وحدهم وتحصل لهم المزية بذلك والذكر فيه دون من سواهم ، بل بث اللــــه تعالى بلطيف حكمته الخصائص والمزايا فى الناس ، فيوجد فى هذا الرهط عالم ، وفى آخرين شاعر ، وفى غيرهم صانع او تاجر ، وهكذا ليتم التعاون ويظفر الخلق كلهم من مائدة اللــــه تعالى فى باب الخصوصيات بنصيب » وفى هذه الفكرة يبدو اليوسى كداعية للقضاء على الانظمة القبلية ، ضرورة ان حيا واحدا لا يمكنه أن يختص بتدبير الشؤون ولا يمكن ان ينتظم به الامر وحده ، بل لابد لهذه القبائل التى اختصت كل واحدة منها بانجاب فرد فى ناحية ما ان تجتمع وتتعاون مع بعضها على القيام بالواجبات العامة ، متناسين كل ما يحول بينهــم وبين هذا التعاون من مختلف العوامل والاسباب .

بل ربما اذا توسعنا فى فهــم كلامه فى الموضوع نستشعر بدعوته الى التعاون بين سائر الناس فى كل بلد وفى كل مكان ، لانه لا غنى لبعضهم عن بعض ـ وهو فى ذلك لا ياتى بأكثر من شرح الآية (يايها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا) وقد يساعده على انتحال هذه الفكرة ما فيه من روح صوفية تميل للوحدة والشيوع ، ونفس شاعرة لا تفرق بين الموجودات الا كما تفرق بين أشعـــة الشمس فى اشراقها على أماكن مختلفة .

ويتحدث اليوسى عن النسب (21) والفخر به فيقرر ان نسب الانسان الاول هو الطين وانه لا فرق بين الناس بهذا الاعتبار ما دام كلهم ابنا للتراب ومنفصلا من ماء مهين ، ثم يذكر الاسباب التى يشرف بها المرء حتى يصح الافتخار بالانتساب اليه . وهى اما دينية فقط كالنبوة ، او دنيوية وأعلاها الملك ، ويرى اليوسى ان الناس فى هذا الامر على ثلاثة أقسام ، واحد له سلف مجيد يبنى على ما ورثه عنه من شرف ومجد ، وآخر يرضى بما تخلفه من اعمال سالفيه ، والثالث لا نسب له ولكنه يصنع المجد لنفسه فيشرف بعمله لا بجدوده . وهو لا يستنكف ان يستهزىء فى لطف بذلك العظامى الذى يقنع بالانتساب لآباء كرام ، ويحتقره الى درجة الاستخفاف بعقله ، ولكنه مع ذلك يرى للنسب قيمة لا يمكن الذهول عنها ، ويعتقد أن هنالك تأثيرا للسلف لابد أن يساعد على انجاب عقب نابغ ذكى ، ولدعوات الجدود أيضا بركات باقية الى يوم الدين .

ويريد اليوسى أن يتكلم على الطبع البشري (22) وان يعلل تشكى الناس من زمانهم واعتبارهم للماضى وتقديرهم له ، فيصرح بجلاء ان الناس كالناس لم يتبدلوا فى وقت من الاوقات على ما هم عليه من خير أو شر ، وانما يشتكى الناس من زمانهم لانه هو الذي شاهدوه ، وثناؤهم على الماضى اما لانقطاع شره عنهم ان ادركوه ، أو لانهم لم يدركوه فلم يلحقهم منه شر .

---

(21) المحاضرات ص 26 وما بعدها .

(22) المحاضرات 76 وما بعدها .

فهم لا يتكلمون الا عن تاثراتهم الخاصة وانفعالاتهم الوقتية ، ولو أن الماضى المقدس اعيد لهم لما تبدل موقفهم معه عن موقفهم مع هذا الحاضر البغيض .

ثم يبدو اليوسى (23) متفائلا مسرورا بزمانه الذى يعيش فيه قانعا بذلك العهد ـ الذي ننظر اليه باشمئزاز ـ لاطمئنانه فيه علي عقيدته ، اذ هو عصر توحيد سالم من زيغ شتى الفرق الاعتقادية التى كانت فى صدر الاسلام ، فليس هنالك جبرية ولا قدرية ولا روافض ولا غيرها من هذه الطوائف التى تحاول ان تخرج المرء عن دائرة التوحيد السنى الخالص ، وقد يكون اليوسى فى تفاؤله هذا لا ينظر بعيدا لا من حيث الحس ولا من حيث المعنى ، فهو لا ينظر من جهة الحس الى أبعد من وطنه الذي يعيش فيه والذي يراه كله على عقيدة الامام الاشعري ، وهو من جهة المعنى لا ينظر الى الخرافات المزدهـرة فى عهده أتم ازدهار والتى يرى هو نفسه فى كثير منها مساسا بالتوحيد واقترابا من الاشراك ، ولعل اصدق تعليل لهذه الحالة النفسية التي يسجلها اليوسى فى المحاضرات ويكررها فى قطعته التى يقول فى مطلعها :

نحمد الله وقتنا وقت خير   بذ ما قبله من الاوقات

هو فى تلك الـروح الصوفية التى اومأنـا اليهـا ، وهى بطبيعتها ميالة الى القناعة بالواقع والرضى بالمقدور ، ومشاهدة

---

23) المحاضرات ص 79 .

ان ما هو كائن فى زمن ما لا يمكن ان يكون غيره اولى منه بالوقوع فى ذلك الزمن ، (اذ ليس فى الامكان ابدع مما كان 24) (وما نرك من الجهل شيئا من اراد ان يظهر فى الوقت غير ما اظهره الله فيه 25) وهى فلسفة واقعية لها اثرها فى النفس وخطرها فى السلوك ، ونحن وان كنا ننظر اليها نظرة من يرى فى الركون لها والاطمئنان اليها ابتعادا عن العمل والجد فى وسائل التغيير والتطوير للاوساط والهيئات ، فانا لا نجد مناصا عن الاعتراف بانها حقيقة نافعة فى كثير من الاحيان ، وانه من الحماقة ان يعدل العامل عن النظر لروح العصر او يحاول الخروج عن محيطها ، لان للروح العصرية سلطانا بالغا أسمى درجات القوة والنفوذ .

ويتكلم اليوسى (26) عن مذهبه فى مخالطة الناس ومعاملتهم ، فيقرر لذلك وجوب التغافل عما يصدر عنهم من الكلام وعدم تتبع ما لا حاجة اليه ، او ما فيه كلفة ولا تدعو الضرورة له من قول او فعل ، لان ذلك عنده اسلم وأبعد عما يخشى من ارتكاب الفضول احيانا ، وتجاوز الحد أحيانا ، واحراج الصدور واثارة الشر احيانا اخرى ، وهو فى ذلك يميل الى وجوب التعرف لطبائع الخلق واستكناه نفسياتهم ، والبحث عن كل ما يمس جانبهم العاطفى لنتخذ من ذلك قانونا لكل شخص نعامله به ونجريه عليه ، زيادة على القوانين العامة التى توجبها العشرة ويفرضها الاختلاط .

---

24) الكلمة للغزالى .
25) من حكم ابن عطاء الله .
26) المحاضرات ص 31 .

وهكذا يبدي اليوسى فى كتابه المحاضرات دخائل نفسه وخبايا فكره ، فى اسلوبه المختلط المتسلسل ، اكثر مما يبديه فى غيرها من الكتب التى يخضع فيها للقواعد التعليمية والاصول المنطقية الجافة .

والمحاضرات مطبوع بفاس سنة 1317 هجرية .

زهر الاكم

واما زهر الاكم فى الامثال والحكم فمن الاسف ان لا يكمل منه الا مجلدان ، وهو لايمكن ان يفيدنا عن اليوسى اكثر من كونه لغويا كبيرا وعالما نحويا مطلعا على مفردات اللغة واحكامها وقادرا على فهم الامثال والابانة عن مضاربها .

يبتدىء الكتاب بمقدمة فى تعريف الحكمة وذكر اختلاف العلماء فى تحديدها ، ثم فى حقيقة المثل وانواعه ، ثم يسرد الحكم والامثال مرتبة على حروف المعجم مفردا الكلام على ما صدر منها عن النبى صلى الله عليه وسلم — اما اسلوبه فى الشرح فهو تحليل المعنى اللغوي لمفرد المثل واتباعه بما قيل فى معناه ، ثم حكاية السبب الذى قيل من اجله ، وقد يتوسع فى ذلك الى درجة تذكرنا باسلوبه فى المحاضرات ، وربما يعرض ما يشبهها من الامثال المغربية موضحا معناها ايضا وذلك فى النادر القليل ، ومتى استشهد بكلام الشعراء فانه لا يتاخر عن الاستدلال بكلامه أيضا وقد يبدو ذلك غريبا فى كتاب لغوي يوتى فيه بالشعر

للابراه (27) على وجود اللفظة وصحتها ، ولكن روح الاديب المحاضر تابى الا ان تتسلسل فى حديثها ، وعند ما يفرغ من جلب الامثال والحكم الموجودة فى الباب يبتديء فى سرد الابيات والقطع والقصائد التى على روى ذلك الحرف من الجاهلية الى الاسلام منحدرا الى عصره وشعره ، وقد يمتد به النفس فى ذلك الى أن يتجاوز الستين صحيفة وما اليها ، وهو كلما سرد قطعة اعقبها بشرح مفرداتها وبيان معانيها . وانه لصنيع يدل على اطلاع واسع ، ودراية عجيبة ، ومقدرة على تذوق الكلام واستكناه معانيه قلما يحصل على ملكتها الا من اوتوا حافظة اليوسى الراسخة . وما أجدر هذا الكتاب بان يقدم للطبع فيكون — على ما فيه من نقص — مادة لغوية لا يستغنى الاديب عن الرجوع اليها .

نيل الأمانى

ونيل الامانى فى شرح قصيدة التهانى وهو شرح صغير لداليته التى هنأ بها شيخه ابن ناصر باوبته من الحج والتى سنعرض لتحليلها فيما بعد ، وقد وضعه (لما رأى كثيــرا من رواتها تنبو أفهامهم عنها ويستغربون كثيرا منها) فهو لا يرمى لأكثر من تقريب تفهيمها للقاريء ، اما الاعراب عما فيها من معنى، ومتين ما تشتمل عليه من مبنى فهو شيء يطول ولا يجتزا فيه بمثل ذلك المختصر الصغير كما يقول اليوسى فى خطبة الكتاب .

---

27) الابراه التدليل من ابره اى اتى بالبرهان وقد عدلنا عن لفظ البرهنة لانها من الخطأ المشهور ولا نعلم وجودا فى كتب اللغة .

وقد نستفيد من هذا الشرح – زيادة على حل المفردات اللغوية التى تحتشد فى الدالية احتشادا متراكما – ايضاحا لبعض افكار اليوسى المبثوتة فى شعره ، والتى سنعرض لها فى الكلام على اليوسى الصوفى .

وهذا الشرح طبع اولا بمطبعة الكواكب بالاسكندرية سنة 1221 ثم جدد بالمطبعة الميمنية سنة 1332 هـ (28) وهو من اشهر كتب المترجم المتداولة بين الناس .

الفهرســة

لم يكتب اليوسى من فهرسته الا قليلا ، ولو كملت لافادتنا كثيرا عن حياة ابى على وافكاره ومختلف الحوادث العلمية التى جرت له . اذ لم يكن يريد منها ان تكون كمعجم من معاجم شيوخه او مسندا من مسانيدهم فقط ، بل اراد ان يسطر (29) فيها زيادة على ذلك (ما حضره من الحكم والفوائد والملح وغيرها من الامور التى ينبغى تخليدها فى بطون الاوراق تذكرة لنفسه ولمن يطرق ساحتها من الطراق) .

وهى بحسب التقسيم الذى وضعه فى طالعتها تشتمل على فوائد وخمسة فصول : الاول فى ذكر اشياخه فى التعليم مع الالمام

---

28) قد جدد طبعه بعد ذلك بمصر سنة 1347 هـ بمطبعة صبيح ووقع فى هذه الطبعة من التصحيف والتحريف ما ضاعت معه فائدة الكتاب.

29) انظر طالعة الفهرسة .

بشيء من الفوائد والمذاكرات الواقعة معهم . الثاني في ذكر اشياخه في الدين ولو بطريق التبرك . الثالث في ذكر ما الهمه من الفهوم في بعض الآيات والاحاديث والحكم على طريق الصوفيه في الاشارات . الرابع في ذكر شيء مما خوطب به او خاطب به غيره نثرا ونظما . الخامس في جمع الفوائد الملقوطة من اي نـــوع كـــان .

هكذا كان اليوسي يريد ان يجعل فهرسته ، ومن ذلك نعلم انه لو اكملها لأعطانا مناظر مفيدة من حياته وافكاره ، ومناظر من مخالطته لاشياخه ومذاكراته معهم ، واخرى لعلاقاته مع مادحيه وممدوحيه ، وصورا مفيدة من دقائقه الصوفيـــة وافكاره في مناحي السلوك (30) .

يفتتح اليوسي فهرسته بالاسف على تقاعس الهمم عن وعى العلوم وحفظها وعـــن ذهاب اولائك الذيـــن لم يكونوا يحتاجون للكتابة في الاوراق ، ثم يعود فيتسلى عن ذلك بكون الكتابة حفظا من لون آخر مخلد ويقول : ان ما يفوت المرء من عزم الذاكرة يجب ان يعوضه بحزم الكتاب ، ويحث المرء على تقييد كل ما يسمعه او يراه او يخطر بباله ولو ظنه في نفسه عديم الفائدة قليل الجدوى ، ويحدثنا عن نفسه في باديء امـــره انه

---

30) لم يكتب اليوسي من فهرسته الا المقدمة والفصل الاول وترجمة شيخه ابن ناصر من الفصل الثاني والكل يقع في ستين صحيفة وهي عندي منقولة من خط المؤلف وعليها كتابة بخط بعض تلامذة سيدي الحسن المعداني رحمه الله .

(كثيرا ما كانت تتفق له النادرة نظما ونثرا فلا يقدر لها قدرا ، بل ما كان يرضى ان يجريها ثانية على لسانـــه ، فضلا عن ان يعرضها على النظار فى بطون الاسفار ، بينما ارباب الفهارس والكنانيش لا يتحاشون عن مثلها واقل منها) ويعلل اصوبية هذا الفعل بان الناس فى الانتفـــاع بالمسائـــل مختلفون ، وفى الاستحسان والاعجاب متباينون ، فينبغى للمرء ان لا يراعى طائفة بعينها ولا جماعة دون غيرها ، بل يجب ان يطلق لنفسه العنان ، ويقيدما يظهر له من حقير وجليل ، اذ لا يعدم من يرى فيما يصدره فائدة ينتفع بها فى دينه او دنياه .

ونحن نرى فى كتب اليوسى تأثرا كبيرا بهذه الفكرة التى يدافع عنها بكل قواه ، فنجده يحشر الغث والسمين ويذكر بجانب الفكرة النافعة والقول المفيد مسائل ان دلت على شيء فانما تدل على بساطة قائلها والمعتنى بها ، ولعل كثيرا من الناس فى هذا العصر لا يستطيعون ان يقراوا اليوسى فى محاضراته مثلا ، لأنهم لا يقدرون على تحمل كثير من الصغائر التى ياتى بها .
ومن يدري ؟ فلعل لكل ساقطة لاقطة كما يقول ابو على .

ويعرض اليوسى فى فوائده التى صدربها الى تعريف العقل واقسامه ويشير الى اختلاف الحكماء الاقدمين فيه هل هو عرض او جوهر او مجرد ، ثم يعود لتحديد العلم وبيـــان اطلاقاته واقسامه بحسب مقاصده وبحسب وسائله ، ويلم المامة باحصاء العلوم الذي يولع به المترجم كثيرا والذي نؤخر دراسة عمله فيه الى تحدثنا عن كتابه (القانون) .

ولكننا لا نمر دون ان نعرض لتحديد المترجم لعلم الادب فهو يقول : « ان البراعة فى الصنعة الشعرية بالاتساع فى فنونه ، واستنباط عيونه ، وسلوك السهل منه والصعب ، والانسحاب معه فى كل شعب ، يسمى علم الادب ، وكثيرا ما يطلق اسم الادب على العلوم اللغوية كلها ويقال لها علم العربية ، وهى بازاء المنطق فى الفلسفة لأنه موضوع لاصلاح الفكرة وهى موضوعة لاصلاح اللسان ، غير انها لما تعلقت باللفظ اختصت منفعتها باللغة العربية الموضوعة هى فيها ، والمنطق لما تعلق بالمعانى وهى مشتركة فى اللغات والامم عمت منفعته ، فلذلك نقل من العجمية الى العربية فكان نافعا فى الطرفين » .

وهذا التحديد الدقيق لما تدل عليه لفظة الادب بمعناها المجازي فى اللغة العربية قل من تنبه له من الباحثين وهو يدل على تعمق اليوسى فى فهم اللغة وادراك مدلولاتها .

رسائل اليوسى

لا يهمنا هنا أن نعرض لكل الرسائل العلمية والدينية التى كتبها اليوسى ، وانما يهمنا أن نتحدث عن رسالتين عظيمتين خلفهما المترجم كدليل قاطع على اخلاصه وصدق نيته ، وهما فى نظرنا كافيان للدلالة على ما وراءهما من مختلف الرسائل التى لا تخرج عن دائرة العلم والدين .

هاتان الرسالتان كتبهما اليوسى للمولى اسماعيل ، وضمنهما من الصراحة فى القول والاخلاص فى النصح ما يشهد بفضله وعلو مكانته .

أما أسلوبهما الكتابى فهو لايخرج عما فى المنشئات اليوسية من التسلسل فى الحديث ، وحسن العرض الأفكار ، واستعمال الشدة فى المجادلة واتخاذ كل الوسائل للتأثير على المخاطب ، واقناعه بصدق الكاتب ونزاهته فيما يقول ، ومع ما ياتى به اليوسى من التهلهل فى الجمل ، والسذاجة فى العبارة ، فان له مقدرة على اختيار الألفاظ ووضعها فى مراكزها ، وهو من هذه الجهة قوي الشبه بالجاحظ — على بعد مابين انشائهما — اذ كل منهما يختار اللفظة ويتحرى أن تكون محددة لكل ما يروج بفكره من معنى وكلاهما لا يتأخر فى سبيل ذلك عن استعمال اللفظة العامية اذا كانت هى وحدها المؤدية للمعنى المطلوب .

الرسالة الاولى وظروف كتابتها

لما ولى المولى اسماعيل عرش المغرب رأى من الضروري لتوطيد الامن ونشر السكينة نزع الخيل والسلاح من القبائل المغربية ، ورأى ان مصلحة الوطن قاضية بالاستعاضة عن عموم المقاتلة بتاليف جيش منظم خاضع لقيادة عامة ، محكمة القواعد ، متينة الضبط ، يوزع على سائر المراكز المغربية فيقوم عن الشعب بحمايتها والدفاع عنها . وكان بعض القواد الذين كلفوا بتنفيذ الخطط الرشيدة التى نظمها المولى اسماعيل — سواء فى نزع السلاح أو جباية المال وتنظيم الجيش وتوزيعه على الثغور — اخذوا يستعملون الشدة فى التنفيذ ، ويستخدمون الغلظة فى التبليغ ، وتحملهم بواعث كثيرة على ارتكاب مظالم فى الرعية وأموالها ، ثم يدعون بعض

الجهات المطروقة عورة مكشوفة من الحماة والمقاتلين ، وينتشر خبر ذلك فى الناس فتعظم الشكوى منه ، ولا يجرؤ أحد على تبليغه لسمع الملك خوفا من أولئك القواد الظالمين ، ولكن مترجمنا الذي يرى واجبا عليه أن يؤدي مهمة العالم الوارث ، والذي يولع بالتجوال فى القبائل المغربية فيرى بعينه ، ويسمع باذنه ما يحفزه للتقدم والتبليغ ، يابى الا أن يعلن للسلطان جلية الامر وينصحه بوجوب زجر هؤلاء الظلمة ، حتى يقفوا عند حدود الشريعة وأوامرها ، وتلك هى الظروف التى كتب فيها اليوسى رسالته الاولى للمولى اسماعيل .

تقع هذه الرسالة فى نحو الاربع صفحات اثبتها الناصري فى الاستقصا ، استهلها المترجم بالثناء على جلالة الملك الذي يعلم منه الميل لمن ينصحه ويحثه على الخير ، وثنى بتذكير جلالته أنه عبد من عبيد الله لا فرق بينه وبين غيره من الخلق الا بصفة الخلافة التى اورثه الله اياها ليكون أمينا على هذه الامة ، وحريصا على ما فيه مصلحتها ، وبعد هذا يتخلص للموضوع الذى يرمى اليه فيقول : (ان على السلطان حقوقا كثيرة لا تفى بها الطاقة ، ولنقتصر منها على ثلاثة هى امهاتها .

الاول جمع المال فى حق وتفريقه فى حق . الثانى اقامة الجهاد لاعلاء كلمة الله ، وفى معناه تعمير الثغور بما تحتاج اليه من عدد وعدة الثالث الانتصاف من الظالم والمظلوم ، وفى معناه كف اليد العادية عنهم منهم ومن غيرهم ، وهذه الثلاثة كلها قد اختلت فى دولة سيدنا فوجب علينا تنبيهه لئلا يعتذر بعدم الاطلاع والغفلة ، فان تنبه وفعل فقد فاز وذلك صلاح الوقت وصلاح

اهله وسبوغ النعمة وشمول الرحمة ، والا فقد ادينا الذي علينا ...)

هكذا يتكلم العالم الدينى فى ذلك العصر فى رسالته لملك من الملوك الذين عرفوا بالشدة والصرامة ، تأدية للواجب الذي يراه فى ذمته لا يبرئه منه الا الاداء ، وهكذا يقبل ذلك الملك من العالم نصحه وأمانته ، لعرفانه انه لا يدعو الا لما فيه الخير والصلاح وبقاء الملك محفوظا محروسا : لا يخشى العالم أن يتكلم ، ولا يستنكف الملك ان يقبل ، ذلك هو الخلق الذي ساد به سلفنا الاولون .

يمضى اليوسى بعد هذا فى الكلام على تلك النقط الثلاث ، ويشرح كيف تتخبط البلاد فى معامع الظلم بسبب اولئك الولاة الظلمة ، والجباة المعتدين . ويبين الطرق متى يجب أن تستعمل فى جمع المال من الرعية ، ثم المصارف التى ينبغى ان يقصر عليها ذلك المال ، ويعلن للملك برباطة جأش وثبات قلب أنه هو وحده المسؤول عما يصيب الرعية من الظلم والاعتداء ، وانه ليس من مصلحته الدينية ولا الدنيوية ان يترك الأمة لهؤلاء الجباة الشرهين الذين «اكلوا اللحم وشربوا الدم وامتشوا العظم وامتصوا المخ» بل يجب عليه ان يعزلهم عما طوقوا به وان يختار غيرهم من رجال الامانة والصدق الذين لا تغرهم الدنيا وزخارفها ، ولا تلفتهم بهرجتها عن دينهم واخلاصهم ، ويختم الرسالة بحث السلطان على ترك الاستبداد فى الرأي والعمل ، وعلى استشارة

العلماء المخلصين من رجال دولته ، والوقوف عندما يامرون به او ينهون عنه .

يستفيد أكنسوس من هذه الرسالة ان اليوسى لم يكن راضيا عما فعله المولى اسماعيل من نزع الخيل والسلاح ، ويجيب عن ذلك بأن جلالته ارتكب اخف الضررين فى اضعاف القبائل وتقوية الحكومة ، ويقول الناصرى ان هذه الرسالة لا تتناول هذا الموضوع بالمرة ، وانها كتبت فى غرض خاص ، وهو الحث على تعمير الثغور ، وكف الظلمة من الولاة والجباة ثم يقول : ان ما فعله المولى اسماعيل غنى عن الاعتذار والتبرير ، ونحن مع اعترافنا بأن هذا الفصل ظاهر المصلحة واضح الفائدة ، وان بقاء السلاح فى يد القبئل المغربية فى تلك الظروف معناه هو ابقاء الفوضى سائدة والنظام مفقودا ، نرى أن اليوسى لم يكن راضيا عن هذا الفعل ولا كان قابلا لان يرى البدو عزلا من الخيل والسلاح ، يدل لذلك قوله فى اثناء هذه الرسالة عن نفسه « انه حضر فى تطوان ايام المولى الرشيد فكانوا اذا سمعوا الصريخ تهتز الارض خيلا ورماة وقد بلغه بعد ذلك — اي فى عهد المولى اسماعيل — أنهم سمعوا صريخا من جانب البحر ذات يوم ، فخرجوا يسعون على ارجلهم بأيديهم العصى والمقاليع » ويقول عن ذلك : « انه وهن فى الدين وغرر على المسلمين » ويدل لذلك أيضا ما فى رسالته الكبرى من التأسف على كون القبائل المطيعة بقيت عز لا محاويج تهاجمها قبائل آيت عطة العاصية ، فلا تجد ما تدافع به عن نفسها ، فلو ان اليوسى كان مكتفيا بما فعله المولى اسماعيل من تكوين جيش منظم وتوزيعه على

الثغور لحمايتها لما اكثر الاشارة والتفجع لحالة هؤلاء الذين اصبحوا لا يجدون من السلاح ما يقابلون به الصريخ .

الرسالة الثانية :

ان الذي يدرس تاريخ الادب العربى بالمغرب الاقصى ليلاحظ فى عصره الثالث ازدهار لون من الوان الادب يمكننا أن نسميه « ادب الحوار السياسى » يكون عادة بين زعيمين مختلفين او بين ملك وخارج عليه ، وقد يقع احيانا بين الملك وشخصية عظيمة يرى فيهـا الملك ميـلا لانتقـاده ونفورا عـن الركون اليـه . ويمتاز فى القسمين الأولين بالجدل العنيف والمحاورة الشديدة ومقابلة النقد بالنقد الى درجة المهاجاة ؟ اما فى الثالث فيميل للملاينة والتلطف وقليل من الدبلوماسية – ويتجلى فى شكل مذكرات ورسائل تتبادل بين الجانبين يستفرغ كل واحدمنهماجهده فيها لتبرير موقفه وادانة صاحبه مستعملا فى ذلك كل ما يساعده على النجاح لدى خصمه ولدى الفكر العام الذي يتحسس هذه الرسائل ويبحث عنها وقليلا ما يبدي رأيه فيها – وقد كانت هذه المراسلات تقوم فى ذلك العهد مقام المناقشة الخطابية فى العصور الاولى والصحافية فى العصر الحديث .

يمكن للقارىء ان يرى امثلة من القسم الاول فى الرسائل المتبادلة بين أبى زكرياء يحيى بن عبد المنعم الحاحى والسلطان زيدان او التى بين المنصور وابن اخيه المسلوخ ، وبين محمد الشيخ وأهل زاوية الدلاء ، أو بين الاول والامير محمد بن الشريف ، الى غيرها من المحاورات الواقعة فى ذلك العهد ،

ويمكنه ان يرى أمثلة القسم الثالث فى الرسائل التى تبادلها المولى اسماعيل مع كثير من علماء عصره فى مسألة العبيد وغيرها من القضايا ، ومن هذا القسم محاورته مع اليوسى التى نريد ان نتحدث عنها الآن .

لقد اختار اليوسى سكنى البادية والابتعاد عن الحاضرة او بالحري عن ابواب الدولة : وكانت له فى ذلك فكـــرة خاصة سنشير اليها . اما المولى اسماعيل فكان يريد منه دخول الحاضرة وملازمة الاعتاب السلطانية بقصد القيام بنشر العلم ومساعدة الحكومة ، ولكنه هو يابى الخضوع لهذه الفكرة التى تحول بينه وبين ما يعشقه من خلوة واعتزال ، فيؤثر ذلـــك فى السلطان ويظن الباعث عليه مجرد الرغبة فى الانتصاب للمشيخة والاحتيال لجمع المال . وهنا تظهر عدالة المولى اسماعيل ففى استطاعته ان يلزم اليوسى بسكنى الحاضرة وتنفيذ كل ما يريده منه ولو اصدر امره بذلك لما تأخر اليوسى نفسه عن الطاعة والامتثال ، ولكن العدالة وتقدير العلم هما اللذان صرفا نظر جلالته عن هذه المعاملة التى ليس من شأنهـــا أن تزرع المحبـــة فى القلوب ، وجعلاه يستعيض عن ذلك بأخذ اليوسى بالحجة والبرهان ، فبعث اليه كتابا ينتقد هذا السلوك ويحاكم صاحبه الى الشرع طالبا الوقوف عند ما حده وامر به: اما اليوسى فبعد أن يتلجلج قليلا من أجل هذا الخطاب السلطانى الذي يمزج الشدة باللين ، وبعد أن يستصعب مجادلة الملك ومعارضته فى كل ما يدلى به يرجع الى نفسه فيستجمع قواه ويكتب جوابا ممتعا ذا مائة صفحة معتذرا عن فعله بان الكلام مع الكلام .

من الاسف ان لا نعثر على الرسالة الاسماعيلية كاملة ، وان لا نرى منها الا ما حفظــه اليوسى فى جوابــه من الفقر المقتضبة التى اختارها ليجيب عنها ، ومع ذلك فيظهر ان هذه الرسالة لا تتناول غير المواضيع الآتية :

1) تفجع السلطان لحالة العلم بالمغرب .

2) احتجاجه ضد ابتعاد اليوسى بان العلماء معروفون بصحبة الملوك منذ القدم .

3) انتقاده سكنى البادية لانها سبب فى ضياع العلم .

4) عرض بعض المداخيل المالية على أبى على .

5) دعوته للنزول على حكم الشريعة مع الانذار والتوبيخ .

اما المترجم فقد جعل جوابه كتطبيق على كتاب الملك ينتهز الفرصة فى النقط المتفق عليها فيتوسع فى شرحها ويدعو للعمل بها ويجيب عن غيرها من النقط بما يراه مقنعا فى دحضها وتقرير الخطأ فيها ، فهو حين يصل الى تفجع المولى اسماعيل لحالة العلم بالمغرب وخشيته من تفاقم الامر وفدح الخطب يجد مجال القول ذا سعة فيقف عنده لبيــان فضل العلم ومكانتــه وشرح حاجة الخلق اليه ، ويقول انه قسم من الجهاد هو اسبق من جهاد العدو ومقدم عليه ، لان العدو اذا استولى على قوم فانه لا يفعل بهم ما يفعله الجهل من الابادة والتخريب ، اذ كل ما فى استطاعة

القوة ان تنال منه هو الاموال والرقاب ، اما العقائد والافكار فهى من الحصانة والمناعة بحيث لا يقوى على الخلوص اليها ولا النيل منها ، وليس فى استطاعة القوة ان تلزم احدا بتغيير فكره او تبديل عقيدته ، ولكن الجهل وحده هو الذي ينسى الناس فى عقائدهم ويلهيهم عن العمل لها وبذلك تخرب الضمائر ، فلا تبقى الا اشباح لا قيمة لها وليس لديها رادع يردها عن الالقاء بنفسها وقومها ودينها فى احضان العدو والاستخذاء له ، فاذن (الجهاد فى دفع الجهل وتحصين الدين أهم وأوكد من الجهاد فى دفع العدو) ولذلك بدأ نبينا صلى الله عليه وسلم بتعليم الخلق ودعوتهم الى الله ودفع الجهل عنهم ، ولم يشتغل بالجهاد الا بعد ان اصبحت الدعوة معلومة لدى الجميع ، والاسلام معروفا لدى العدو والصديق ، فحينئذاذن له بمقاتلة مناوعيه والمقاومين لدعوته . واذا كان المولى اسماعيل يأسف حقيقة لحالة العلم فعليه أن يبحث عن البقية الباقية من العلماء ويوفر لهم ما يحتاجون اليه ثم يدعوهم بالرغبة لا بالرهبة ليؤدوا للجيل الناشىء امانة العلم التى فى ذممهم وهم مسرورون مغتبطون ، أما أن يلزمهم بالانتقال من منازلهم وصرف الوقت فى تعليم الناس وتهذيبهم دون أن ينشطهم بالعطايا والصلات فذلك ليس له ، بل عليه أن يهيأ المال ويبدأ فى انفاقه على العلم ، واذا العلماء ينهالون عليه من كل صوب ، ويتسابقون فى خدمته والعمل لما يرجوه .

تسقط الطير حيث يلتقط الحـــب وتغشى منازل الكرماء

« والعطايا تطلق اللسان ، وتشرح الجنان ، وتشجع الجبان ، وتنشط الكسلان ، وتسر الغضبان ، سجية مطبوعة فى الانسان ، على مرور الازمان » .

ويمر اليوسى فى هذا المهيع مستنطقا التاريخ فى الشهادة على ما يقول ، ومستعرضا حالة كثير من الملوك الذين نشطوا العلم وخدموه من لدن الامويين والعباسيين فى المشرق والموحدين والمرابطين وبنى مرين فى المغرب الى عهد السعديين ثم الى عهد المولى الرشيد الذي كان يبذل مجهوداته العظيمة فى هذا السبيل ويقول : ان المجتمع المغربى كان على عهد هؤلاء زاخرا بالعلوم والعرفان ، وان مدارس المغرب فى مختلف المدن كانت مليئة بالعلماء والمتعلمين الذين يفدون اليها من كل الجهـــات حتى ان مدرسة الوادي بفاس (وكانت خربة فى عهد اليوسى ــ أما اليوم فقد بنى على انقاضها مسجد جامع) كان فيها سبعمائة استاذ ، وقيل سبعة الاف ، وانه هـــو ادرك سجلماسة مليئة بمجالس العلم ومعاهد التدريس حتى كان فى ثلة من رفاقه لا يذوقون طعاما من طلوع الشمس الى غروبها فى اكثر الايام ، لتقلبهم فى المجالس واشتغالهم بطلب العلم طول النهار ، وقد مر بعد ذلك بهذه المدينة فوجد الامر قد لحقه من الفتور والضعف ما يخشى معه على الضياع فكيف لا ياسف الملك على هذه الحالة التى آل اليها أمر مملكته والتى لاتؤدي الا الى الخراب والدمـــار ، وكيف لا يقتدي بمن سلف من الملوك الاعاظم فى خدمة العلم ونشره « وهمته أعلى وخزانته أملى » .

وهو حين يصل الى قول المولى اسماعيل : ان العلماء لا يعرفون الا بصحبة الملوك وان اليوسى يجب عليه ان يسلك طريقتهم فى خدمة سلطانه وملازمة أبوابه ــ يتعجب من اطلاق هذا القول على عواهنه ويقرر أن العلماء فى ذلك مختلفون ، وان منهم المنقبض الذي لا يبيح لنفسه مخالطة الامراء والاتصال بهم اما لنفور فى طبعه او لاقباله على ما ينفعه فى دينه ودنياه ، ومنهم الذي يبيح لنفسه الاتصال ويرى فى ذلك فائدة تحمله عليه ، وكلهم مصيب فيما يرى ان كانت له نية صالحة واعتبار صادق ، وليس لاحد أن يلزمهم بالعدول عن فكرتهم أو اختيار سلوك اخر غير سلوكهم ، اللهم الا بالاحسان الذي يجلب الخلق ويبعث فى قلوبهم المحبة للمحسن ، ويرى اليوسى ان النفع الذي يحصل من العالم المنقبض اكثر من الذي يحصل من غيره ، لانه بملازمته لبيته وإقباله على كتبه تنمو مداركه ويكون بحيث يجده كل من اراد سؤاله عن مسألة أو مراجعته فى قضية ، أما صاحبه الذي يقضى أوقاته فى الذهاب والاياب وانتظار الاذن فى الابواب، فهو لا ينفع الناس الا باليسير من علمه ، لانه لايبقى له من الوقت ما يشتغل فيه بنشر العلم وبثه .

ثم يزيد فى الاحتجاج لتنحية الملامة عنه هو الذي اختار العزلة والانقباض ، معلنا ان صحبة الملوك تحتاج الى شروط قد لا تكون متوفرة فيه ، فالسلطان لا ينبغى له ان يتخذ لصحبته من الناس الا الافذاذ الذين يجمعون بين الادب والفهم والظرف ، ويستمد اليوسى حجته فى هذا الباب من أقوال الحكماء وقواعد علم الفراسة ، ويستخدم من أساليب الاستهواء ما من شأنه ان

يغرى السلطان بالبحث عمن يتخذه لصحبته فى طراز غير طراز اليوسى من الظرفاء الفصـاح الالسن ، الصبـاح الوجـوه « ليكون بهم للسلطان متعة شاملة ، لقلبه بالعبر ، ولأذنه بالخبر ، ولعينه بالنظر » .

ويعتذر اليوسى عن اختياره البادية لسكناه بان طبعه قبل كل شيء ميال اليها ، لانه لم يولد بين الدروب الضيقة والاسوار المتقابلة ، بل ولد فى الفجاج الواسعة (بين الشيح والحرمل ، والجنوب والشومل) فأي عجب من ان يحن الى وطنه ، او يميل الى عطنه ، والحال ان ذلك شيء غريزي فى النفوس ، فما زال الناس منذ القدم يميلون الى مساقط رؤوسهم ويفضلونها على كل ما عداها من الجهات .

وحبب اوطان الرجال اليهم　　مآرب قضاها الشباب هنالك

ثم هو بعد قد جرب سكنى الحاضرة امدا طويلا قاسى فيه من الشدائد والآلام ما جعله يبغض العودة اليها مرة اخرى ، ولقد كان هو واولاده فى البادية قانعين بمـا وجدوه فى المأكل والمشرب والملبس فلما دخلوا الحاضرة « نظر النساء للنساء والصبيان للصبيان فطلبوا الاتساع والرفاهية وابتلوا كما ابتلى الآخرون) هذا الى ما فى الحاضرة مـن الوقاحة وقلة الحياء والتعرض لاذاية اهلها ومكابدة فتنتهم . وهنا يتحدث اليوسى عما لقيه من علماء فاس من الحسد والبغضاء لما ابتدأ التدريس بالقرويين واجتمع عليه خلق كثير ، وان ذلك أدى بهم الى ان

سحروه فاضطر الى اتخاذ بعض الرقى والعزائم الواقية ولم تزل محمولة عليه منذ ذلك الحين ...!

ويرجع اليوسى للحديث عن البادية وفضائلها والطمانينة التى حصلت له بسكناها ، فهو قد ابتنى لنفسه دويرات يجلس فيها للمطالعة والذكر أمام ساقيتين جاريتين وبجانب مسجد شريف ، ويدخل لخلوته فلا يرى غير عياله احدا ، « والمئونة مكفية والاحوال مرضية ، والدروس قائمة » لا تطلعا لرتب ، ولا رغبة فى دنيا ، وانما ذلك لله ولدفع الجهل عن البلاد فكيف يعدل عن هذه الحالة الهنية الى حالة كلها مشقة وعناء ؟

وينتقل بعد ذلك الى آداب المتعلم ووجوب رحلته فى طلب العلم والاخذ عن المشاهير ، وغرضه من ذلك ان يدفع ما يريد الملك الزامه به من انتقاله للتعليم ، لان مـن شرف العالم ان يقصده المتعلم فى بيته لا أن يرتحل هو اليه ، أما ما فعله ملوك الموحدين وبنى مرين من نقل العلماء فذلك شىء لا ينبغى للمولى اسماعيل ان يفعله لأنه لا يجدر بملك قرشى هاشمى ان تنحط همته للاقتداء بملوك البربر ، بل عليه ان يقتدي بافعال سلفـه من الخلفاء الراشدين الذين ما أثر عن واحد منهم انه فعل ذلك على جهة الالزام ، وهكذا يغالط اليوسى فى حججه ، ويستعمل كل الوسائل التى تبلغه الى غايته وهى تركه وشأنه يعمل كيف يشاء ويسكن حيث يريد .

ثم يعرض المولى اسماعيل على المترجم مدخول معدن من المعادن او زكاة قبيلة يقبضها ، ويمزج هذا العرض بقليل من

التوبيخ ، اذ كيف يتورع اليوسى عن قبض ما يعرضـــه عليه اسماعيل فى حين انه كان يقبض من أخيه الرشيد ـــ فيستعظم اليوسى هذه التهمة ويراها مغالطة من الكاتب لم يتنبه لها الملك ؛ والا فمن له بهذا الريع الذي يعرض عليه ؟ ومتى قدم له عطاء فرده ؟ انه مستعد أن ياخذ كل ما يقدم له المولى اسماعيل من العطايا والصلات كما كان ياخذ من أخيه ، وانما الشىء الذي لا يمكن ان يفعله هو المطالبة والالحاح ، فقد ربى نفسه على عدم التشوف لما فى أيدي الناس ، ان وصله شىء اخذه والا فلا .

ويختم الملك العدل رسالته بدعوة المترجم الى النزول على حكم الشرع الشريف ويقول له : (نحن بالله وبشريعة الله معك) وهنا ينتفض اليوسى انتفاضة البطل المقدام ويصرخ قائلا :

« أنا الذي أقول هذا وأطلبه لو أجده ، واما السلطان ففى يده اليوم الشريعة وغيرها ، فما شاء فعل بى وبغيري ، شرعا كان او غيره ، وأما انا لو وجدت شريعة الله لم احتج الى شىء من هذا الكلام ، فو الله لا اعلم على حدا ثابتا عند السلطان فيطالبنى باقامته ، ولا جناية على احد فى مال ولا نفس ، ولا انا عبد آبق ولا فارس هربت براية الملك ، ولا عامل بقى على حساب الجباية ، ففى أي شىء يطالبنى السلطان بشريعة الله ، أما كون علمى حجة لى او على عند الله فالامر الى الله تعالى ، والتعليم اشتغلت به جهد طاقتى ، ولو لم اشتغل به أصلا لم اقبض فيه لانه فرض كفاية لافرض عيـــن ، فاي شىء ثبت علـــى شرعا يامعشر المسلمين حتى أطالب فيه ، وقد اعترفت على نفسى

بطاعة السلطان لم انازع ولم اخالف ولم احارب ولم اخلط وهذا القدر هو المطلوب من الطاعة ، اما ما خرج عن ذلك كخروج فرد عن داره او بلده أو نزوله بلدا أو لزومــه جهة او انتقالــه من موضع الى موضع فلا مدخل له فى الطاعة ، لان السلطان خليفة الله فى الارض فليس له ان يكلف العباد الا بما كلفهم الله تعالى » وكذلك يقف اليوسى موقف الدفاع عن الحرية الشخصية بكل شجاعة واطمئنان .

وفى الرسالة غير هذه الفصول نقط كثيرة مبثوثة ، ترجع الى تحذير السلطان مــن قبول الوشايات والاعتماد عليها ، والاشارة الى ان طبائع الناس مجبولة على التأذى من الحاكم ، ولذلك يجب اخذهم على ظاهرهم وعدم التجسس عن بواطنهم ، اذ حسب السلطان ان يخضعهم للنظام العام فــلا ينقضون له بيعة ، ولا يخرجون عن طاعة . اما تقززهم الداخلى أو حديثهم الخاص مع بعضهم فذلك شىء لا ينبغى اعتباره ولا العناية به ، لانه لا يمكن قطعه ، ولابد ان يكون فى كل مملكة ناقمون .

عـــلال الفاسى

بيوبيليوغرافيا اليوسي
او
سيرته البيبليوغرافية

د. عباس الجراري

وضعت في هذه السيرة البيبليوغرافية قوائم بانتاج اليوسي في جميع ألوانه وفنونه ، وبالمؤلفات التى ترجمت له او تعرضت له .

وقد حاولت ان تكون هذه القوائم مستكملة ومستوفاة بقدر المستطاع . وهى — على ما فيها من نقص — تضيف الكثير من الجديد الى كل ما سبقها في هذا المضمار .

* * *

أولا : إنتاج اليوسي

وقد قسمته الى نوعين ، ورتبتـــه فى كل نوع حســـب الموضوعـــات (1)

1 - كتب اليوسي وتقاييده وأشعاره ومنظوماته

* أدب (بمفهومـــه الواســـع)

1 ـ الديوان (جمعه ولده بعد وفاة والده)

طبع على الحجر بفاس ، وتوجد منه ثلاث نسخ مخطوطة فى خزانة الرباط العامة : الاولى ضمن مجموع عدد 32 ج، الثانية رقمها ج 157 ، والثالثة تحمل رقم ك 491 . كما توجد منه ثلاث نسخ اخرى فى المكتبة الملكية بالرباط تحمل هذه الارقـــام : 312 – 2339 – 6549 . كـــذلك توجد مخطوطات للديوان بباريز والجزائر ، وفى مكتبتى الخاصة كراريس منه عليها طرز .

---

(1) تنظر فى عرض هذا الانتاج بتفاوت مصادر ترجمة اليوسي المذكورة فى القسم الثاني من هذه السيرة البيليوغرافية وخاصة منهـا كتاب الاستاذ جاك بيرك عن اليوسي ، وبحث د. محمد حجي عن الزاوية الدلائية ، والرسالة التي أنجزت الاستاذة فاطمة خليـــل تحـــت اشرافي عن رسائل اليوسي .

وقد ذكر الاستاذ عبد الله جنون (النبــوغ ج 1 ص 286) انه وضع منتخبا من هذا الديوان ، ولكنه لم يطبع على حد ما كتب فى (خل وبقل ص 273)

2 ـ القصيدة الدالــيــة فى مدح الشيخ محمد بــن ناصر ، ومطلعهــــــا :

عرج بمنعرج الهضاب المورد

بين اللصاب وبين ذات الارمد

عارض بها دالية البوصيري فى مدح الــشــاذلى والمرسى وردت فى ديوان اليوسى المطبوع ، وفى كثير مــن مصادر ترجمته وغيرها . وطبعت مع شرحها ، وهو لليوسى أيضا ، فى مصر سنة 1291 (الاسكندريــة) و 1329 (القاهرة) . وتوجد منها نسخ مخطوطة كثيرة فى الرباط وفاس والقاهرة وباريز ، نكتفى منها بنسخة خزانة الرباط العامة رقم 79 د ونسخة المكتبة الملكية (الزيدانية) رقــم 3633 (ضمــن مجموع غير مرقم)

3 ـ نيل الامانــى فى شرح التهانى (شرح القصيدة الدالية فى مدح الشيخ محمد بن ناصــر)

طبع بمطبعة الكوكب الشرقى فى الاسكندرية سنة 1291 وبمطبعة التقدم فى القاهرة سنة 1329 .

وتوجد منه نسخ مخطوطة بالرباط والجزائر والــقــاهرة وباريز ، نذكر منها ثلاث نسخ فى خزانة الـربــاط العامة مسجلة فى حرف د ، وارقامها 712 — 1292 — 1604

4 — **القصيدة الرائية فى رثاء الزاوية الدلائية ، وأولها :**

أكلف جفن العيد ان ينثر الدرا

فيأبــى ويعتاص العقيق بها حمرا

وهى تشتمل على اثنين وستين ومائة بيت

وردت فى ديوان اليوسى المطبوع ، وفى بــعــض مصادر ترجمة اليوسى وغيرها . وتوجد منها نسخ مخطوطــة ، نكتفى بالاشارة منها الى نسخة خزانة الـربــاط العامة الواردة ضمن مجموع 163 د (من 98 الى 103)

كتب عليها محمد بن احمد الشاذلى شرحا أتمه محمد البكري (وهو مخطوط بخزانة الرباط العامة فى نسختين : الاولى ك 248 ، والثانية 2295 د ضمن مجموع ، ابتداء من ص 262) . كذلك كتب عليها أبو عبد الله محمد بن المهدي بن سودة شرحا فى ستة أسفار ، ذكر صاحب دليل المــؤرخ (ج 2 ص 426 ط. دار الكتاب) أنها توجد عند أحفاده .

5 ـ شعر فى مدح خير البرية ، اوله القصيدة المشهورة :

جـد فى سيرها فلست تلام

هذه طيبة وهذا المقـام

يوجد مخطوطا فى خزانة الرباط العامة ضمن مجموع 774 د وتوجد القصيدة فى « ديوان قصائد وموشحات فى المديح النبوي »

(مخطوطة خاصة للكاتب ص 85)

6 ـ قصيدة طويلة اولها :

هـذا مقـام السـر والعرفـان

قدمـا مقـام الامن والايمان

وردت فى ديوان اليوسى المطبوع ، وفى « هـدايـة الملك العلام » للهشتوكى (مخطوط خزانة الرباط العامة ق 190 من 307 الى 310)

7 ـ اشعـار مختلفـة

وردت فى ديوان اليوسى ومصادر ترجمته وكذلك فى الكتب الآتـيـة :

أ ــ مجموع بالمكتبة الملكية 2850 (غير مرقم)

ب ــ مجموع آخر بنفس المكتبة (الزيدانية) 3628 (غير مرقم)

ج ــ مجموع بمكتبة تطوان العامة 621

د ــ مجموع آخر بنفس المكتبة 518

هـ ــ كناش بمكتبة تطوان كذلك 327 الورقة 62 ــ 149

و ــ ديوان قصائد وموشحات فى المديح النبوي ص 85 ــ 87 مخطوطة الكاتب الخاصة)

ز ــ كناشة عبد السلام الصقلى ص 34 ــ 71 ــ 128 ــ 206 ــ 217 (المكتبة الخاصة للكاتب)

ح ــ النبوغ المغربــى للاستاذ عبد الله جنون (دار الكتاب) ج 2 (مختارات نثرية) ص 307 و ج 3 (مختارات شعرية) ص 37 ــ 80 ــ 133 ــ 159 ــ 230 ــ 256 ــ 277)

8 ــ الرحلة (سجلها ولده حين صحب والده الى الحج)

مخطوطة بالمكتبة الملكية رقم 2343 وبخزانة الرباط العامة رقم ك 1418 (معها الفهرسة) .

9 ــ زهر الاكم فى الامثال والحكم

يوجد مخطوطا فى المكتبات الآتية :

أ ــ خزانة الرباط العامـــة 71 د ــ 191 د ــ 1001 د ــ 1159 د ــ ج 596 ــ ج 844 ــ ق 388 ــ ك 1679

ب ــ مكتبة القرويين بدون رقم .

ج ــ المكتبة الوطنية بالجزائر 184280

د ــ المكتبة الوطنية بباريز 52304

هـ ــ دار الكتب المصرية 14097 ــ 14842 (ادب)

10 ــ المحاضــرات

طبع على الحجر بفاس سنة 1327 ، وتوجد منه نسخــة مخطوطة فريدة بخزانة العطارين بتونس انتسخت بعــد وفاة المؤلف بأربع سنوات ، وتوجد نسخ أخرى مخطوطة فى الرباط والقاهرة وباريز ، منها نسخة خزانة الرباط العامة ك 2329 . وقد اعيد طبع المحاضرات ضمن منشورات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر (سلسلة الادب 1) بعناية الدكتور محمد حجى (الرباط 1396 ــ 1976)

توجد نقول من المحاضرات كثيرة فى مصادر ترجمة اليوسى وغيرها من المجاميع والكناشات نذكر منها مجموع مكتبة تطوان العامة رقم 850 م

11 ـ الفهرست (لم يكملها المؤلف)

توجد منها نسختان مخطوطتان فى المكتبة الملكية بالرباط 1138 و 5470 ، كما توجد نسخ متعددة فى خزانة الرباط العامة ارقامها : ك 1418 (مع المرحلة) ـ ك 1234 ضمن مجموع (من 103 الى 147) ـ ك 1301 ضمن مجموع (من ص 134 الى 164) 1838 د ضمن مجموع (من ص 77 الى 170) .

12 ـ شرح تلخيص المفتاح للقزوينى (لم يكمله)

ذكره الكردودي فى الدر المنضد 1584 د الورقة 218 و

13 ـ القانون

طبع على الحجر بفاس سنة 1310 و 1315

توجد منه نسخ مخطوطة فى المكتبات الآتية :

أ ـ المكتبة الملكية بالرباط رقم 6643

ب ـ خزانة الرباط العامة ارقام ق 931 ـ ج 1304 ـ 2382 د ـ 2359 د

ج ـ خزانة تمكروت رقم 1923

د ـ ظاهرية دمشق 7934

هـ ــ المكتبة الوطنية بباريز رقم 5291

14 ــ الكناشة العلمية (تشتمل على فوائد فى التفسير والحديث والتصوف والتراجم)

مخطوطة بالمكتبة الملكية رقم 5995

* تصــوف

15 ــ تأليف فى الهيللة :

ذكره القادري فى نشر المثانى ، ومحمد الفاطمى الصقلى فى تقديم كتاب « القانون » لليوسى ص 1 وقال عنه انــه تاليف كبيــر .

وذهب د. محمد حجى فى « الزاوية الدلائية » ص 102 (هـ) الى أن كتاب الهيللة هذا هو « مشرب العام والخاص »

16 ــ تذكرة الغافــل

ذكره البغدادي فى ايضاح المكنون (م 1 ص 275)) وهداية العارفين (م 1 ص 296)

17 ــ الــدر المصــــون

ذكره البغدادي فى ايضاح المكنون (م 1 ص 448) وهداية العارفين (م 1 ص 296) .

18 ـ شرح قصيدة « عقد جواهر المعاني في مناقب الغـوث عبد القادر الجيلاني)

لاحمد بن المختار بنخدة الراشدي ، واولها :

أقــول لمن أعيــى الطبيــب علاجــه
وقد مــل من شــرب الــدواء لعلــة

الا لذ بمحيي الدين يا طالــب المنــى
وعــول عــلــيه في الامور المهــمــة

ذكره عباس بن ابراهيم في الاعلام (ج 3 ص 161 ط ملكية)
نقــلا عن « تحفة الزائر »

*** قــــراءة وتــفسيــــر**

19 ـ ارجوزة في قراءة القرآن

ذكرها محمد بن علي الحسنــي المغالي في دوحة البستان (مخطوطة خزانة الرباط العامة 390 د ص 113)

20 ـ فتح الملك الوهاب فيما استشكله بعض الاصحاب مــن السنة والكتاب او الفتوحات السوسية المشــتــملة على الانــوار القدسية

يوجد مخطوطا في خزانة الرباط العامة ج 618 (ضــمــن مجموع من ص 1 الى 129)

21 ـ نعيم الجنان فى معنى قوله تعالى ويطوف عليهم ولدان

ذكره صاحب الفتح الوهبى (مخطوطة خزانة الرباط العامة ك 2312 ص 507)

* تــوحــيــد

22 ـ تاليف فى الهيئة

ذكره الكردودي فى الدر المنضد (مخطوطة خزانة الرباط العامة 1584 د الورقة 218 و) ، كما ذكره بيرك الذي جعله فى التنجيم ، وراجعه د. محمد حجى الذي ذهب فى الزاوية الدلائية (ص 102 هـ) الى انه كتاب الهيللة وانما اختلطـت الكلمة على بيرك فقرأها هيئة .

23 ـ حاشية على شرح كبرى السنوسى

مخطوطة فى :

1 ـ خزانة الرباط العامة ك2645 ـ 1771 د

ب ـ خزانة القرويين بفاس 40ـ837/40ـ732

ج ـ المكتبة الحمزاوية 69 .

د ـ دار الكتب المصرية 222 ـ 266 ـ 473 ـ 562 ـ 1117 (كلام)

24 ـ شرح صغرى السنوسى

ذكره صاحب المنح البادية (انظر المصادر) ومحمد الفاطمى الصقلى فى تقديمه لكتاب القانون ص 1

25 ـ كتاب أخذ الجنة عن أشكال نعيم أهل الجنة

يوجد مخطوطا بالمكتبة الملكية 6602 وخزانة الرباط العامة 3373 د ضمن مجموع من ص 414 الى 428 .

26 ـ مشرب العام والخاص من كلمة الاخلاص او منهج الخلاص من كلمة الاخلاص

طبع على الحجر بفاس سنة 1327 وتوجد منه نسخة فى تمكروت (آخر مجموع رقم 1928) وثلاث نسخ فى خزانة الرباط العامة : ك 35 ـ ك 2418 ـ ق 1013 فى مجموع غير مرقم .

❋ فـقـه وأصـول

27 ـ بحث فيما يجب على المكلف من أصول الدين وفروعه

مخطوط بخزانة الرباط العامة ضمن مجموع رقمه ج 612 من ص 2_1 الى 27

28 ـ تقييد شرح فيه قول خليل : « وخصصت نيـة الحالـف وقـيـدت ...»

توجد منه نسخ مخطوطة متعددة ، نذكر من بينها نسخة المكتبة الملكية 6726 ونسختين بخزانة الرباط العامة رقمهما ق 302 (ضمن مجموع من ص 294 الى 305) و 2223 د (ضمن مجموع كذلك)

29 ـ قواعد الاسلام من مضمون حديث النبى عليه السـلام

مخطوط فى مجموع بالخزانة العامة ج 612 من الورقـة 27 و الى 42 و.

30 ـ منظومة فقهية (ارجوزة) على نسق متن ابن عاشر

مخطوطة فى مجموع بالخزانة اعامة بالرباط 1164 د من

الورقة 124 و الى 131 ظ

31 ــ الكوكب الساطع بشرح جمع الجوامع لتاج الدين السبكى

تحدثت عنه كثير من المصادر التى ترجمت لليوسى وذكرت أنه وصل فيه الى (اذا الفجائية)

توجد نسخ منه فى بعض المكتبات الخاصة كمكتبة الاستاذ حماد الصقلى التى رجعت اليها السيدة فاطمة خليل

* منـــطـــق

32 ــ شرح ام المنطق او مزامر المنطق للعزيز بن يوسف الفاسى

ذكره صاحب المنح البادية (انظر المصادر) وصاحب الكناشة التى فى ملك الكاتب (مجهول ص 73) وذكره كذلك الازهري فى اليواقيت الثمينة ص 133

33 ــ شرح السلم للاخضري

ذكره الاستاذ جنون فى النبوغ (ج 1 ص 303)

34 ـ شرح على الطالع المنتشر (لم يكمله)

ذكره صاحب المنح البادية (انظر المصادر) وصاحب الكناشة التى فى ملك الكاتب (ص 73 مجهول) والصقلى فى تقديمه لكتاب القانون ص 1

35 ـ القول الفصل فى الفرق بين الخاصة والفصل او الفرق ما بين الذاتى والعرضى

يوجد مخطوطا فى :

أ ـ المكتبة الملكية 1314

ب ـ خزانة الرباط العامة 271 د ـ 2775 د ـ 2881 د ـ 1072 د (من 196 الى 223)

ج ـ مكتبة تمكروت ـ مجموع رقم 1928 (أوله) وضع عليه عمر بن عبد الله الفاسى حاشية بعنوان

« احراز الفضل بتحرير مسائل القول الفصل » (انظر عناية أولى المجد ص 64)

36 ـ النسبة الحكمية بين الطرفين الموضوع والمحمول

مخطوط بخزانة الرباط العامة 2143 د (من ص 193 الى 195) .

وتوجد منه نسخة فى المكتبة السليمانية باسطنبول رقم 2649/2 .

37 ـ نفائس الدرر على شرح المختصر (للسنوسى)

توجد مخطوطة فى المكتبات الآتية :

أ ـ خزانة الرباط العامة ك 1751 ـ 451 د ـ 2141 د ـ 2143 د (ضمن مجموع) ـ 2225 د ـ 2249 د ـ 2289 د ـ 623 د 1072 د (من ص 52 الى 195)

ب ـ مكتبة القرويين دون رقم

ج ـ خزانة تمكروت : آخر مجموع رقم 1929 ـ 2162 ـ 2221 ـ 2571

د ـ المكتبة السليمانية باسطنبول 2696

هـ ـ المكتبة الوطنية فى الجزائر 2 و 1382

و ـ المكتبة الوطنية بباريز 2400 (من 104 الى 251)

II - رسائل اليوسي وفتاويه (2)

* دفــاع عــن النفــس

38 ــ الرسالة الكبرى ، وتعرف باسم « جواب الكتاب »، وفيها رد على المولى اسماعيل الذي كان كتب يــعيــب عليــه موقف الهــروب والانزواء .

توجــد مخطوطــــة فى :

أ ــ المكتبة الملكية بالرباط 2998 ــ 2850 (آخــــر مجموع غير مرقم) ــ 1558

ب ــ خزانة الرباط العامة ج 849 (من الورقة 1 الى 91) 1348 د ــ 2753 د ــ 3390 د

* سيــاســـة

39 ــ رسالة فى نازلة العرائش

تتعلق بالامان الذي أعطى لنصارى هذا الثغر عند غنحه

(2) جمعت السيدة فاطمة خليل رسائل اليوسي وانجزت باشرافــي تحت هذا العنوان (رسالة جامعيـــة) احــرزت بها على دبلــوم الدراسات العليا من كلية آداب جامعة محمد بن عبد الله بفاس ، بعد المناقشة العلنية التي تمت يوم 18 ابريل 78 . وهي الآن قيــد الطبـــع .

توجد مخطوطة فى مجموع بالخزانة العامة ك 1234 (من ص 188 الى 194)

40 ـ رسالة ندب الملوك للعدل

ناقش فيها مشكل الخلافة الاسلامية وما آلت اليه توجد مخطوطة فى مجموع بخزانة الرباط العامة ـ 364 د (من 221 الى 228) .

41 ـ الرسالة الصغرى لاسماعيل ، وتتعرف باسم « براءة اليوسى »

تعرض فيها لقضايا ثلاثة هى : الجباية والجهاد والعدل وردت فى الجيش لاكنسوس (ص 78 ـ 82 ط. حجرية) وفى الاستقصا (ج 7 ص 82 ـ 86 ط. الدار البيضاء) كما وردت فى نشر المثانى (الكبير) : مخطوط بخزانة الرباط العامة ك 2253 (من الورقة 28 و الى 29 ظ) وتوجد مخطوطة فى المكتبات الآتية :

أ ـ المكتبة الملكية 5356 ـ 7150 ـ 7154 ـ 9249 ـ 7704 (من ص 23 الى 27)

ب ـ خزانة الرباط 163 د ـ 1348 د (من 13 الى 36) 6111 د (من 1 الى 4)

42 ـ رسالة جوابية الى المولى إسماعيل حين حصاره للعرائش اواخر الحجة متمم المائة بعد الالف

توجد مخطوطة فى نسخة بمكتبة المرحوم العابد الفاسى وأخرى عند السيد فاطمة خليل

✱ فقه

43 ـ رسالة (فتوى) فى قضاء الصلوات المنسية

مخطوطة بالخزانة العامة ق 302 (من ص 247 الى 248)

44 ـ رسالة (فتوى) حول اخراج الزكاة فى البادية

نفس المخطوطة (ص 277 ـ 278)

45 ـ رسالة (فتوى) حول اقامة الجمعة فى تامسنا

نفس المخطوطة (ص 253 ـ 254)

46 ـ رسالة (فتوى) حول اقامة الجمعة فى حصن فشتالة

نفس المخطوطة (من ص 250 الى 253)

47 ــ رسالة (فتوى) حول اقامة الجمعة فى المدشر

نفس المخطوطة (من ص 326 الى 328)

48 ــ رسالة (فتوى) أجاب فيها على استفسار طرحه المولى اسماعيل فى موضوع نشر الحرمة بين الآمة وابنتها

نفس المخطوطة (من ص 211 الى 215) . وتوجد كذلك فى المنزع اللطيف (مخطوط الخزانة العامة) ج 595 (من ص 84 الى 87) وفى نوازل الشريف على بن عيسى العلمى الحسنى (مخطوط الخزانة العامة) ك 832 (من ص 13 الى 17) وفى مجموع للسيدة خليل (من ص 161 الى 165)

49 ــ رسالة (فتوى) أجاب فيها على استفسار المولى اسماعيل فى موضوع الآمة التى اعطيت بدون شراء

توجد فى المنزع اللطيف (مخطوط الخزانة العامة) ج 595 (ص 88 ــ 89)

50 ــ رسالة الى محمد الصالح بن المعطى حول الحلف والاستبراء

مخطوطة الخزانة العامة ق 302 (ص 276 ــ 277)

51 ـ رسالة (فتوى) أجاب فيها على استفسار من مكناس يتعلق بحكم الذكر فى المسجد

مخطوطة الخزانة العامة ق 302 (من ص 278 الى 286)
ومخطوطة للسيدة خليل (من ص 10 الى 14)

52 ـ رسالة أجاب فيها على نقل أحباس مسجد قديم الى آخر جديد

كما أجاب فيها على خلق الخيل وعلى ملوك الدنيا

مخطوطة خزانة الرباط ق 302 (من ص 209 الى 211)

53 ـ رسالة الى السيد المرجانى بن المواق فى شروط الرجل العدل

مخطوطة خزانة الرباط ق 302 (من ص 270 الى 272)

54 ـ رسالة (فتوى) فى صلاحية الرجل الفاجر

نفس المخطوطة (ص 255 ـ 256)

55 ـ رسالة رد فيها على إستفسار للمولى اسماعيل حول المغنم الذي أعطى الخليفة عثمان لمروان بن الحكم فى افريقيا

مخطوطة خزانة الرباط ج 595 (ص 87 ـ 88)

56 ــ رسالة حول الدعاء والتصلية والأذان وغيره .

مخطوطة خزانة الرباط ق 302 (ص 273 ــ 274)

57 ــ رسالة حول الذكر بعد الصلاة

نفس المخطوطة (ص 340 ــ 341)

58 ــ رسالة (فتوى) فى عادة وصل الشعر

مجموع السيدة خليل ص 155

*** توحيـــــــد**

59 ــ رسالة ناقش فيها قضية وجوب الشهادتين فى الاسلام

(تناول فيها كذلك موضوعا فقهيا يتعلق بصرف الزكـاة للعلمـــاء)

مخطوطة بخزانة الرباط ق 302 (من ص 330 الى 332) ــ 1241 د (من الورقة 8 و الى 9 ظ)

60 ــ رسالة العقيدة الصغرى

شرح فيها العقائد العامة وناقش قضية قدم القـــرآن وحداثته .

مخطوطة خزانة الرباط ق 302 (من ص 287 الى 294)

61 ـ رسالة فى مسألة علم النبى عليه السلام

عقب فيها على « ملاك الطلب فى جواب أستاذ حلب »
لعبد الملك التجموعتى (وهو وارد فى مخطوطتــى خزانــة
الرباط العامة ح 115 ص 348 ـ ك 1284 ص 2 — 5)
توجد الرسالة مخطوطة فى خزانة الرباط ح 115 ص 362

62 ـ رسالة أجاب فيها بعض الفاسيين حول استحالة عروض الكفــر للانبيــاء.

مخطوطة بخزانة الرباط العامة ق 302 (من ص 236 الى 244)

63 ـ رسالة أجاب فيها على ماهية ذات الله

نفس المخطوطة (من ص 234 الى 236)

64 ـ رسالة جوابية على سؤال يتعلق بذات الله هل هى حسية أو معنويــة

نفس المخطوطة (من ص 119 الى 202)

65 ـ رسالة فى ابطال مبدأ التسلسل لابى العباس احـــمـــد بن ابراهيـــم العطـــار

نفس المخطوطة(من ص 313 الى 324)

وكذلك مخطوطة خزانة الرباط 1755 د (من ص 286 الى 293) .

66 ـ رسالة فى قضايا عقدية

مخطوطة خزانة الرباط ق 302 (من ص 232 الى 234)

67 ـ رسالة فى تقريظ « اللمعة الخطيرة والنبذة اليسيـــرة فى مسالة خلق افعـــال العبـــاد الشهيرة » لمحمد المهـــدي ابن احمد الفاسى

مخطوطة خزانة الرباط ك 1234 (ص 100 ـ 101)

68 ـ رسالة حول ماهية الازمنة وتعاطى الاسباب

مخطوطة خزانة الرباط ق 302 (من ص 245 الى 247)

* تـصـوف

69 ــ رسالة تتعلق بالهيللة والذكر

مخطوطة خزانة الرباط العامة 1241 د الورقة 9 ظ

70 ــ رسالة حول زيارة الشيخ محمد بن ناصر

وردت فى « طلعة المشترى » للناصري ج 1 ص 273 (ط. حجرية)

71 ــ رسالة تضمنت نصائح الى ابى العباس احمد بن مسعود البوعمري (معها قصيدة سينية)

مخطوطة بالمكتبة الملكية رقم 7704 (ص 14 ــ 15)

72 ــ رسالة الى احمد الشيظمى وسيدي مسعود (فى آداب السلوك)

مخطوطة خزانة الرباط ق 302 (من ص 256 الى 259)

73 ــ رسالة فى التوبة والاستغفار وحسن الظن بالله

نفس المخطوطة (ص 286 ــ 287)

74 ــ رسالة فى السلوك الصوفــى

نفس المخطوطة (من ص 216 الى 219)

75 ــ رسالة تتعلق بمراحل وصول المريد

نفس المخطوطة (من ص 225 الى 228)

76 ــ رسالة تربوية فى سلوك الطريق

نفس المخطوطة (من ص 204 الى 207)

77 ــ رسالة فى استخلاف الشيخ بعد موته

نفس المخطوطة (ص 207 ــ 208)

78 ــ رسالة تتعلق بدور الشيخ فى تربية المريد

نفس المخطوطة (من ص 222 الى 224)

79 ــ رسالة الى محمد الصالح بن المعطى أجابه فيــهــا على مجاهدة النفس

توجد فى فهرست العميري (مخطوطة بخزانة الربـــاط ك 1361 من ص 198 الى 200) وفى كناشة محمد بن على الدكالى (مخطوطة خزانة الرباط ج 91 من ص 207 الـــى 209)

80 ـ الرسالة الى قبيلة المزامز (نصيحة سلوكية)

مخطوطة خزانة الرباط ج 612 الورقة 15

81 ـ الدلالة الوافية فى الرسالة الاسفية ، وهى نصيحة سلوكية لاهــل آسفـــى

مخطوطة فى المكتبة الملكية (7704 من الورقـــة 4 ظ الى 6 و) وفى خزانة الرباط ج 612 (من الورقة 50 الى 58) ـ ق 302 (من ص 333 الى 338)

82 ـ رسالة فى التربية الصوفية ، هى عبارة عن جواب رد فيه على اسئلة تتصل بالسلوك الصوفى

مخطوطة خزانة الرباط ج 612 (من الورقة 49 ظ الى 52و)

83 ـ الرسالة الى أهل بلد كارت ، ضمنها نصائح سلوكية للفقراء

مخطوطة خزانة الرباط 612 (من الورقة 42 ظ الى 45 و)
ق 302 (من ص 341 الى 347)

84 ـ الرسالة الى المقدمين ، موجهة الى الحـاج على وابى القاسم بن معمر ، وتتعلق بالزاوية والشيخ

مخطوطة فى خزانة الرباط العامة ق 302 (من ص 259 الى 270) ـ ق 950 (من ص 262 الى 267) ـ ج 612 (من الورقة 52 الى 56) ـ ك 1138 (من ص 32 الى 39) ـ 2010 د (من ص 41 الى 51) ، وكذلك فى خزانة تمكروت 1902 (مجموع)

85 ـ الوصيـة :

وجهها الى أبنائه وجميع اخوانه يعرفهم فيها بالسلـوك الحق وينبههم الى بعض الانحرافات التى وقع فيها بعض أبناء المتصوفة . وفيها يوصى بتحبيس كتبه علـى أولاده .
توجد مخطوطة فى :

أ ـ المكتبة الملكية رقم 1577

ب ـ خزانة الرباط العامة ق 950 (من ص 248 الى 262)

ج 612 (من الورقة 57 الى 64)
ج ــ مكتبة تطوان العامة فى أول المجموع 485 م

86 ــ النصيحــة الفياثيــة

تناول فيها حقيقة التصوف السنى ونقد مظاهر الشعــوذة والانحراف المنتشرة .
مخطوطة بالمكتبة الملكية 8936 وخزانة الرباط العامـــة 1816 د (من 432 الى 475) ــ ج 612 (من الورقة 1 الى 15) ــ ك 1138 (من ص 1 الى 30) ــ ق 302 (من ص 349 الى 368 مبتورة) .

87 ــ رسالة حول الانكار وتلاوة القرآن

مخطوطة خزانة الرباط 1241 د الورقة 9 ظ .

❁ تفسيــــــــــر

88 ــ رسالة حول التفاسير وتفسير ابن عطية

مخطوطة خزانة الرباط ق 302 (من ص 371 الى 373)

89 ــ رسالة فى حكم تفسير القرآن لمن لا يتقن علوم الآلة

وتتضمن كذلك حكم السماع واستعمال الآلات
نفس المخطوطة (من ص 191 الى 197) وكذلك مخطوطة
خزانة الرباط ج 612 (من الورقة 46 و الى 49 ظ)

* نحـــو وبـــلاغـــة

90 ــ رسالة جوابية تتضمن اعراب لو (نظما)

كما تتضمن ماهية الضوء والظل
مخطوطة خزانة الرباط ق 302 (ص 220 ــ 221)

91 ــ رسالـــة تتضمـــن أجوبة حـــول

أ ــ شخصية علمية أسماء القبائل
ب ــ علاقة الاسم بالمسمى زيادة ونقصانا
ج ــ اضافة الاسم الى اللقب وقضية التعريف والتنكير
مخطوطة السيدة خليل (من ص 157 الى 159)

92 ــ رسالة أجاب فيها على سؤال يتعلق بقول البوصيري :

الا استلمت الندى من خير مستلم

هل هو بفتح اللام أم كسرها ؟
مخطوطة خزانة الرباط 302 (ص 219 ــ 220)
ومخطوطة السيدة خليل ص 165

93 ـ رسالة رد فيها على استفسار حول قول الائمة والعلماء بان المراد لا يدفع الايراد

توجد مخطوطة فى خزانة الرباط ق 302 (من ص 228 الى 232) ـ ك 910 (من ص 247 الـــى 250) ـ 1755 د (من ص 262 الى 264)
وتوجد كذلك فى هداية الملك العلام للهشتوكى (مخطوطة خزانة الرباط ق 190 من ص 80 الى 86)

❋ ا د ب

94 ـ رسالة رد فيها على استفسار حول بيت أبى نواس :

مالى اليك وسلية الا الرجا   وجميل ظنى ثم انى مسلم
وبيت البوصيري :

شاكى السلاح لهم سيما تميزهـــم
والورد يمتاز بالسيما من السلــم

مخطوطة خزانة الرباط ق 302 (من ص 197 الى 199)

❋ الــرد علـــى أهــل البـــدع

95 ـ رسالة فى طائفة العكاكزة

وردت فى مخطوطة الخزانة العامة بالرباط ك 1224 (من

ص 167 الى 187) ، ووردت كذلك في هداية الملك العـــلام (مخطوطة خزانة الرباط ق 190 ص 84)

96 ــ رسالة الى الفقيهين العربى وعبد الا سلام القـــادريـــين والفقيه المهدي الفاسى أجابهم حول بدعة ابراهـــيـــم الـــكـــورانـــى

وردت فى نشر المثانى (الكبير) مخطوط خزانة الربـــاط ك 2253 ج 2 ورقة 23 و

* عـــوائـــد

97 ــ رسالة تتعلق ببعض العوائد

مخطوطة خزانة الرباط العامة ق 302 (ص 332 ــ 333)

* قضية تبرئة صحابيين من النفاق

98 ــ رسالة رد فيها على عبد الملك التجموعتى فى قضية تبرئة الصحابيين سعد بن عبادة وحاطب بن ابى بلتعة مـــن الـــنـــفـــاق

وردت فى هداية الملك العلام للهشتوكى (مخطوطة خزانة الرباط ق 190 ص 75 ــ 76)

*** تعــــزيـــــة :**

99 ـ رسالة الى عبد الرحمن الفاسى وأخيه محمد يعزيهما فى والدهمـا عبـد القـادر

وردت فى نشر المثانى (الكبير) مخطوط خزانة الربــاط ك 2253 ج 2 الورقة 6 ظ

* * *

ثانيا: مصادر ترجمة اليوسي

رتبتها على أسماء المؤلفين وفق حروف المعجم

ابراهيــم الالفــى

1 ـ تاريخ الادب العربى للمدارس الثانوية
ج 2 (فى الادب المغربى والاندلسى) ص 96 ــ 97
المطبعة المهدية ـ تطوان 1375 ــ 1955

أبو العبــاس بن يعقــوب الولالــى

2 ـ مباحث الانوار فى أخبار بعض الاخيار
مخطوط خزانة الرباط العامة ق 342 ص 35

أبــو القاســم بن سعيــد العميري

3 ـ فهــرســـت
مخطوطة المكتبة العباسية 3140 ص 29 ــ 104

أبـــو القــاســم الزيــانــى

4 ــ البستان الظريف فى دولة أولاد مولاي الشريف
مخطوط خزانة الرباط العامة 1577 د ص 40

5 ــ تحفــة الاعـــلام
مخطوط خزانة الرباط العامة ك 224 ص 162

6 ــ الترجمانة الكبرى فى أخبار المعمور برا وبحرا
ص 55 ــ 61 ــ 100

ت. عبد الكريم الفيلالى ــ نشر وزارة الانباء
مطبعة فضالة ــ غشت 1967

أبو المحاسن (علال الفاســى)

7 ــ أبو علــى اليوســى
مجلــة المغرب الجديــد
السنة الاولى 1935 أعداد 4 ــ 5 ــ 7

أحمد بن خالــد الناصــري

8 ــ الاستقصا لاخبار دول المغرب الأقصى
ج 7 ص 108 ط دار الكتاب ــ الدار البيضاء 1956

9 – طلعة المشترى فى النسبب الجعفري
ص 196 – 273 حجرية

أحمـــد بن عاشــر الحافـــى

10 – فهـرســـت

ضمن مجموع مخطوط بخزانة الرباط العامـــة ك 1421

(من ص 251 الى 308) ص 257

أحمـــد بن عبد القادر التستاوتى (جمع تلميذه الحافى)

11 – تحفة الناظر وبهجـــة الخاطر الغض الناضر

مخطوطة خزانة الرباط العامة ك 1669

ص 73 – 122 الى 132 – 324 الى 344 – 365

أحمد بن عبـــد القـــادر القـــادري

12 – نسمة الآس فى حجة سيدنا أبى العباس (رحلة)

مخطوطة خزانة الرباط العامة ك 1418 الورقـــــة 148 ظ 149 و

أحمد بن عبد الوهاب الغسانى الشهير بالوزيــر

13 ــ التعريف بالشيخ عبد السلام بن الطيب القادري
مضمن فى نشر المثانى (الكبير) لدا ترجمة القادري
ك 2253 ج 2 من الورقة 39 ظ الى 41 و (ذكـــر
اليوسى ف 40 و) وكان قد نبه الي هذا التضمـــين
الاستاذ محمد المنونى فى مقال له بعنوان « المصادر
الدفينة فى تاريخ المغرب » منشور فى مجلة البحث
العلمى ع 10 س 4 ص 16

أحمــد بن محمد بن عجيبــة

14 ــ أزهار البستـــان فى طبقلت الاعيـــان
مخطوطة المكتبة الملكية بالرباط 3347
ج 1 ص 277 الى 283

أحمــد زيـــاد

15 ــ لمحـــات من تاريخ الحركة الفكرية بالمغرب

(نقل ما كتبه أبو المحاسن فى مجلة المغرب الجديد
متعلقا بمؤلفات اليوسى ، وقد سبق ذكر هـــذا
المصدر)

ص 33 ط دار الكتاب ـ الدار البيضاء 1973

أحمد النميشي

16 ـ تاريخ الشعر والشعراء بفاس (مسامرة)
ص 31 ط فاس ـ شعبان 1343

أحمد بن محمد الهشتوكي

17 ـ قرى العجلان على اجازة الاحبة والاخوان
نقل عنه الكتاني في « فهرس الفهارس » حيث ذكر (ج 2 ص 465) أن الهشتوكي في « قرى العجلان » فصل أخذ اليوسي عن علماء الاقاليم التي جال فيها وان لم يذكر ذلك هو في فهرسته . كما ذكر في ترجمة الهشتوكي (فهرس الفهارس ج 2 ص 423) أن له فهرسا سماه « قرى العجلان على اجازة الاحبة والاخوان » في نحو كراسين ، وصرح أنه وقعت له منه نسخة بخط الحضيكي في كناشته . وقد كنت آمل الوقوف على هذا الفهرس في مكتبة الكتاني المضمومة الى خزانة الرباط العامة ، ولكني لم أعثر له على أثر ، ولعله ضاع فيما ضاع من هذه المكتبة.

18 ـ هداية الملك العلام الى بيت الله الحرام والوقوف بالمشاعر العظام وزيارة النبي عليه الصلاة والسلام

مخطوطة خزانة الرباط العامة ق190 ص 52 وأماكن أخرى أورد فيها بعض رسائله (ينظر القسم الخاص برسائل اليوسي وفتاويه من هذه السيرة البيليوغرافية)

اسماعيل باشا البغدادي

19 — ايضاح المكنون فى الذيل على كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون .

ج 1 ص 275 — 448 ، ج 2 ص 220 — 250
ط الثالثة 1378 (المطبعة الاسلامية — طهران)

20 — هدية العارفين
م 1 ص 296
ط. الثالثة 1387 (المطبعة الاسلامية — طهران)

باسي R. BASSET

21 — Recherches Bibliographiques sur les Sources de la Salwat el - anfàs (actes du XIV° Congrès des Orientalistes n° 106 p. 46 Alger 1905)

بروفنسال L. PROVENÇAL

22 — Les Historiens des Chorfa p. 269 Paris 1922.

C. BROCKELMANN — بـــروكلمـــــان

23 — G. AR. Litt S-2 pp. 675 - 676 Leiden 1938

J. BERQUE — بيـــــرك

24 — AL - Youssi : Problèmes de la culture Marocaine au XVII ° s
Paris Mouton et co la haye 1958

H. PERES — بيـــريـــس

25 — Répertoire alphabétique des auteurs publiés à Fès
« Bulletin des Etudes Arabes n° 32 1947 pp. 62-70 »

جـورجـي زيـدان

26 — تاريخ آداب اللغة العربيـــة
ج 3 ص 306 ط. شوقي ضيف (دار الهلال)

حســن جـــلاب

27 — أبو عبد الله محمد المرابط الدلائـــي

(ورد ذكر اليوسى فى أماكن متفرقة)
رسالة جامعية حصل بها صاحبها تحت اشرافى على
دبلوم الدراسات العليا من كلية آداب جامعة محمد
الخامس بالرباط بعد أن نوقشت يوم 25 فبراير
1978 (لم تنشر بعد)

حســـن الوراكلـــى

28 ــ زهر الاكـــم فى الامثـــال والحكـــم

مجلة دعوة الحق ع 3 دسمبر 1963 (وزارة الاوقاف
ــ المغـــرب)

خيـــر الديـــن الزركلـــى

29 ــ الاعـــــلام

ج 2 ص 237 ط. الثالثة

روزن ROSEN

30 ــ Collections Scientifiques de l'Institut des langues Orientales de St. Pétersbousg I p. 86 - 87

سليمـــان الحـــوات

31 ـ البدور الضاوية فى التعريف بالسادات أهل الزاويـــة الدلائيـــة
مخطوط خزانة الرباط العامة 261 د ص 224
32 ـ السر الظاهر فيمن أحرز بفاس الشرف الباهر مـــن أعقاب الشيخ عبد القـــادر
(نقل عن تأليف والده محمد بن عبد اله الحـــــوات المسمى : « تحفة المعاصر فى بعض صالحى تلامذة أبى عبد الله محمد بن ناصر ») ط. حجرية

سليمان العلوي ـ السلطان (ينسب له)

33 ـ عناية أولى المجد بذكر آل الفاسى ابن الجد
ص 40 ـ 64 المطبعة الجديدة ـ فاس 1347

عبـــــاس بن ابراهيـــم

34 ـ اظهار الكمال فى تتميـــم مناقب سبعة رجال
مخطوط المكتبة الملكية 232 ص 226 ـ 227
35 ـ الاعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الاعلام
(نقل فيه عن : « افادة النبيه من ادعى الاجتهاد أو ادعى فيه »)

ص 154 — 163 ج 3 المطبعة الملكية ـ الربـــاط 1975

عبـــد الحـــى الكتـــانـــى

36 ـ رسالة اليواقيت الثمينة فى الاحاديث القاضية بظهور سكة الحديد ووصولها الى المدينـــة

ص 22 — 27 مطبعة جوردان بالجزائر 1329 هـ

37 ـ فهرس الفهارس والاثبـــات ومعجم المعاجـــــم والمشيخات والمسلســـلات

ج 2 ص 464 و 165
المطبعة الجديدة ـ فاس 1347

عبـــد الرحمـــن بن زيـــدان

38 ـ اتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس
ج 3 ص 32 — 42 — 49
الطبعة الاولى ـ الرباط 1349 — 1931

39 ـ الدرر الفاخرة بمآثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة
ص 12 — 15 — 36 — 120
المطبعة الاقتصادية ـ الرباط 1356 — 1937

40 ـ المنزع اللطيف فى التلميح لمفاخر مولانا اسماعيل ابن الشريف

مخطوط خزانة الرباط العامـــــة ج 595 ص 308 وأماكن أخرى وردت فيها بعض فتاويه (انظــــر القسم الخاص برسائل اليوسى وفتاويه من هــذه السيرة البيليوغرافية)

عبــد الرحمــن الجبرتــى

41 ــ التاريخ المسمى عجائب الآثار فى التراجم والاخبار ج 1 ص 68 ط. مصـــر 1297

عبد السلام بن ســـودة

42 ــ دليل مؤرخ المغرب الاقصـــى
ينظر فيه بعض انتاج اليوسى (الفهرس ج 2 ص 596) ط. دار الكتاب ــ الدار البيضاء

عبــد العزيــز بــن عبــد اللــه

43 ــ الفكر الصوفى والانتحالية بالمغرب (الحلقة الثالثة) مجلة البينة س 1 ع 7 ص 63 عام 1962 (المغرب)

عبــد القــادر الصحراوي

44 ــ على هامش رسائل الحسن اليوسى الى مولاي اسماعيل

مجلة دعوة الحق ع 4 س 12 ذو الحجـــة 1388
مارس 1969

عبد الكبير بن عبد المجيد الكثيري الحسنى المدعو عليـــوات الزجنـــى

45 ـ سراج الغيوب فى أعمال القلوب

مخطوط خزانة الرباط ك 455 السفـــر الاول ـ المقدمة ص 1 ـ 2

عبد الكبيـــر المدغـــري

46 ـ الفقيه اليوسى أبو على الحسن بن مسعود

رسالة جامعية قدمها صاحبها لنيل دبلوم الدراسات العليا من دار الحديث الحسنية عام 1976 (لم أطلع عليـــهـــا)

عبـــد الكريـــم الفيـــلالـــى

47 ـ التاريخ المفتري عليه فى المغرب

ورد ذكر اليوسى فى أماكن متفرقة (انظر ص 213) مطبعة الصومعة ـ الرباط ـ دجنبر 1969

عبد الله الجراري

48 ـ رحلتي الصيفية
ص 54 ـ مخطوطة المؤلف
49 ـ هذه مذكراتي
المجلد الثاني ص 141 (نسخة مرقونة خاصة)

عبد الله جنون

50 ـ خل وبقل
ص 273 الى 277 المطبعة المهدية ـ تطوان
51 ـ النبوغ المغربي في الادب العربي
ج 1 ص 285 ط. دار الكتاب اللبناني ـ بيروت

د. عبد الله العمراني

52 ـ مولاي اسماعيل بن الشريف (حياته السياسية ـ مآثره)
ص 127 ـ 128 الطبعة الاولى ـ تطوان 1398 ـ 1978

عبد الملك التجموعتي

53 ـ خلع الاطمار البوسية عن الاسطار اليوسية

يرد فيه على تعقيب اليوسى على اجابته احمد الحلبى
فى مسألة العلم النبوي
مخطوط خزانة الرباط العامة ح 115 من ص 373
الى 445 مع طرر وتعاليق لمحمد الحجوي

د. عبـد الهـادي التـازي

54 – جامع القرويين
م 3 ص 795
الطبعة الاولى 1972 – دار الكتاب اللبنانى – بيروت

عزيـز سـلام

55 – ثلاثة قرون وعشر سنوات من تاريخ الدولة العلوية
ص 27 – 29 وزارة الانباء – مطبعة فضالة

على بن محمـد بن علـى العكـاري

56 – مناقب الشيـخ على العكاري
أورد اجازة اليوسى له
مخطوط خزانة الرباط العامة 88 د ص 2 – 38

عمـــر رضـــا كحالـــة

57 ـ معجـــم المؤلفـــين

أشار الى فهارس عدد من الخزائن والمكتبات تضم بعض كتب اليوسى كالخديويةوالتيمورية والازهرية ودار الكتب المصرية والظاهرية بدمشق

ج 3 ص 294 نشر مكتبة المثنى بيروت ودار احياء التراث العربى بيروت .

فاطمـــة خليـــــل

58 ـ رسائل أبى على الحسن بن مسعود اليوسى

رسالة جامعية حصلت بها صاحبتها تحت اشراف على دبلوم الدراسات العليا من كلية آداب جامعة محمد بن عبد الله بفاس بعد أن ناقشتها فى 8 أبريل 1978 .

قيـــد الطبـــع

فـــــوكـــــو CH. DE FOUCAULD

59 — Reconnaissance au Maroc p. 38 Paris 1888

لجنــة الاحتفــال بموســم اليوســى

60 ــ نشرة عن اليوســـى
انظر الملحق الاسبوعى لجريدة العلم العدد 459
السبت 11 ذي القعدة 1398 موافق 14 أكتوبر 1978

مجهـــــــــول

61 ــ اجازة لابى على الحسن بن مسعود اليوســـى
موجود ضمن مجموعة بالزاوية الحمزاوية
ذكرها الاستاذ المنونى فى المقال الذي عرف فيه بما
فى هذه الزاوية ، مشيرا الى أنه لم يذكر اسم المجيز
الذى هو من الآخذين عن تلاميذ القصار والمنجور
مجلة تطوان ع 8 س 1963 ص 160

مجهـــــــــول

62 ــ كناشــــة
نقل صاحبها ترجمة اليوسى عن « المنح البادية »
ص 73 ــ مخطوطة خاصة للكاتب

د. محمــد الاخضــر

63 ــ الحياة الادبية فى المغرب على عهد الدولة العلوية

ص 122 ط. دار الرشاد ــ الدار البيضاء ط. الاولى 1977

محمـــد أكنســـــوس

64 ــ الجيش العرمرم
ص 60 ــ 78 ط. حجريـــة

محمـــد الامـــــري

65 ــ أبو على الحسن اليوســـى
الملحق الاسبوعى لجريدة العلم العدد 459 السبت 11 ذي القعدة 1398 موافق 14 أكتوبر 1978

محمـــد البشير ظافر الازهـــري

66 ــ كتاب اليواقيت الثمينة فى أعيان مذهب عالم المدينة
ص 133 ــ 134 ط. الملاجىء العباسية 1324

محمد بن احمد بن محمد بن عبد القادر الفاسى

67 ــ المورد الهنى باخبار مولاي عبد السلام بن الطيـــب القادري الحسنى
مخطوط خزانة الرباط العامة ك 1234 ص 231

محمد بن أحمد الحضيكـــى

68 ــ مناقـــب

ج 1 ص 195 الطبعة الاولى ــ المطبعة العربيـــــة الدار البيضاء 1355

محمد بن أحمد الشائلى (ثم اكمله محمد البكري)

69 ــ شرح القصيدة الرائية فى رثاء الزاوية الدلائية

مخطوط بخزانة الرباط العامة ك 248 (المقدمـــــة ص 1 ــ 2)

محمد بن تاويت ومحمد الصادق عفيفـــى

70 ــ الادب المغربـــى

ص 337 ط. دار الكتاب اللبنانى ط. الاولى 1960

محمد بن جعفـــر الكتـــانـــى

71 ــ سلوة الانفـــــاس

ج 3 ص 81 ط. حجرية

محمد بن الحسن الحجوي

72 ـ الفكر السامى فى تاريخ الفقه الاسلامـــى
الربع الرابع ص 117 مطبعة النهضة ـ تونس

محمد بن زاكـــور

73 ـ الروض الاريض فى بديع التوشيح ومنتقى القريض (ديـــوان)
مخطوط بخزانة الرباط ك 357 ص 7 ـ 38 ـ 92 ـ 115 ـ 224 ـ 226 ـ 273

74 ـ نشر أزاهر البستان فيمن أجازنى بالجزائر وتطوان
ص 88 ـ المطبعة الملكية ـ الرباط 1387 ـ 1967

محمد بن شنب وبروفنســـال

M. BEN CHENEB- L. PROVEN-ÇAL

75 ـ Essai de Répertoire Chronologique des Editions de Fès
Revue Africaine 1922 N° 81 - 142 - 293

محمد بن الطيب القادري

76 ـ التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبـــار
أعيـــان المائة الثانية والحادي عشـــر

مخطوط خزانة الرباط 676 د ص 64

77 ـ حوليات نشر المثانى

ت. د. نورمان سيكـــار

نشر المعهد الجامعي للبحث العلمى بالمغرب 1978

78 ـ نشر المثانى

ج 2 ص 142 ط. حجريـــة

79 ـ نشر المثانى (الكبير)

ج 2 ابتداء من الورقة 26 ظ .

مخطوط خزانة الرباط ك 2253

محمد بن عبد الرحمن الفاسى (المعروف بالصغير)

80 ـ المنح البادية فى الاسانيد العالية والمسلســـــلات الزاهيـــة

مخطوطة بالمكتبة الملكية 1227 (الزيدانية) غير مرقمة ، وكذلك 5165 غير مرقمة أيضا .

وفى خزانة الرباط العامة توجد نسخة مبتـــورة رقمها ك 1249

محمد بن عبد القادر الكلالى الحسنى المعروف بالكرديودي

81 ـ الدر المنضد الفاخر فيما لابناء مولانا على الشريف من المحاسن والمفاخــر

مخطوط خزانة الرباط 1584 د الورقة 216 ظ الى 218 و

محمد بن عبد الكريم العبدونـــى

82 ــ يتيمة العقود الوسطـــى فى مناقب الشيخ سيـــــدي المعطـــى
مخطوطة بخزانة الرباط ك 305 ص 188

محمد بن على الحسنى الزيـــادي

83 ــ دوحة البستان ونزهة الاخوان فى مناقب سيدي على ابن عبد الرحمن
مخطوطة بخزانة الرباط 390 د ص 113 ــ 207

محمد بن على الدكالى السلوي

84 ــ كناشـــــة
مخطوطة بخزانة الربـــاط ج 91 ص 45 ــ 46 ــ 95 ــ 112 ــ 186 ــ 187 ــ 207 ــ 209

محمد بن على دينيـــــة

85 ــ واسطة العقد النضيد فى شرح حديث التجديد
ص 30 ط. الاولى ــ الرباط 1347

محمد بن الفقيــه أبو بكــر اليازغــى

86 ــ حدائق الازاهر الندية فى التعريف بأهل الزاوية الدلائية (منظومـــــة)

وردت فى أول « البدور الضاوية » (مخطوطة خزانة الرباط 261 د)

محمـــد بن محمــد مخلـــــوف

87 ــ شجرة النور الزكية فى طبقات المالكية

ص 328 ط. دار الكتاب العربى بلبنان (ماخوذة عن الطبعـــة الاولى 1349)

محمد بن موسى بن محمد الناصري الدرعى

88 ــ الدرر المرصعة بأخبار أعيان درعة أو كشف الروعة فى التعريف بصلحاء درعة

مخطوطة بخزانة الرباط العامة ك 265 ص ص 35 ــ 53

محمد بن الموقت المراكشـــى

89 ــ السعادة الابدية فى التعريف بمشاهيــــر الحضـــــرة المراكشيـــــة

ج 1 ص 136 ط. حجرية لدا ترجمة شيخه محمد المزوار)

محمـــد بوجنـــدار

90 ـ الاغتبـــاط بتراجم أعلام الربـــاط

مخطوط خزانة الرباط العامة 1287 د ص 14
(لدا ترجمة أحمد بن يحيى والزهرا وذكر اجـــازة العكاري لـــه)

محمد الحبيـــب بن عبد القادر الحسنـــى السجلماسى

91 ـ شرح منظومة الهلالى فى الاسماء الحسنى

تعرض فيه للخلاف بين اليوسى والتجموعتـــى فى قضية العلم النبوي، وعنه نقل عبد الحى الكتانـــى فى « رسالة اليواقيت الثمينة » ما أورد فى الموضوع .
(لم أقف على هذا الشرح)

د. محمد حجـــى

92 ـ المحاضرات لليوســـى

تقديم الطبعة الجديدة ص 4

مطبوعات دار المغرب للتاليف والترجمةوالنشر

(سلسلة الادب 1) ـ الرباط 1396 ـ 1976

93 ـ الحركة الفكرية بالمغرب فى عهد السعديين
ج 2 ص 503 وأماكن أخرى (انظر ص 706)
منشورات دار المغرب للتاليف والترجمة
والنشر (سلسلة التاريخ 2) 1396 ـ 1976

94 ـ الزاوية الدلائية
ص 97 الى 108
المطبعة الوطنية ـ الرباط 1384 ـ 1964

محمد داوود

95 ـ تاريخ تطوان
م 1 ق 3 ص 411
ط. تطوان 1379 ـ 1959

محمد السايح

96 ـ المنتخبات العبقرية
ص 52 ـ المطبعة الرسمية ـ الرباط 1920

محمد الصغير اليفرني

97 ـ روضة التعريف بمفاخر مولانا اسماعيل بن الشريف
ص 15 ـ 33 ـ 38 المطبعة الملكية ـ الرباط
1382 ـ 1962

98 ـ كتاب صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر
ص 206 ط. حجرية

99 ـ نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي
ص 284 نشر هوداس ـ الطبعة الثانية ـ مكتبة الطالب ـ الرباط

محمد الضعيف الرباطي

100 ـ تاريخ الدولة السعيدة

مخطوط خزانة الرباط العامة 758 د ابتداء من الورقة 23 و

محمد الطالب بن الحاج

101 ـ رياض الورد الى ما انتهى اليه هذا الجوهر الفرد
مخطوط خزانة الرباط 111 د ص 21

محمـــد العربـــى بن داوود

102 ـ الفتح الوهبى فى مناقب الشيخ أبى المواهب مولانا العربـــى

مخطوط خزانة الرباط ك 2312 ص 507

محمـــد الفـــاســـى Med. EL FASSI

ـ 103

La litérature Marocaine (MAROC) - 103
L'encyclopédie coloniale et maritime p. 534 A
Paris éd. de l'Empire Française 1948

محمـــد الفاطمـــى الصقلـــى

104 ـ القانون لليوســـــى

تعريف بمؤلفه فى أول الكتاب ص 1 وانظر كذلـــك آخره

محمـــد المختـــار السوســـى

105 ـ ايليـــغ قديمـــا وحديـــثا

ص 69 ـ المطبعةالملكية ـ الرباط 1386 ـ 1966

106 ــ ســوس العالمــة

ص 38 ــ 67 مطبعة فضالة ــ المحمدية 1380 ــ 1960

107 ــ المعســـول

ج 5 ص 21 ــ 22 مطبعة النجاح ــ الدار البيضاء 1380 ــ 1961

محمــد المنتصــر الريســونــي

108 ــ شخصيــات من بلادي : العالم الشاعر
جريدة الحسنى الاسبوعية
العدد 40 الى 48 السنة الاولى 1962 ــ 1382

محمــد المنــونــي

109 ــ ركب الحاج المغربــي

ص 33 ــ 51 ط. معهد مولاي الحسن ــ تطــوان 1953

يوســف سركيــس

110 ــ معجم المطبوعــات العربية والمعربــة
ج 2 ص 1959 ــ ط. لبنان 1928

* * *

* * *

تجدر الاشارة فى ختام هذه السيرة البيبليوغرافية الى وجود خط اليوسى ، متمثلا فى تمليك كتبه على « شفاء السائل » لابن خلدون (مخطوط المكتبة الملكية رقم 3396 ص 1) ، هذه عبارته:
« لعبيد الله تعالى الحسن بن مسعود اليوسى كان الله له »

وبأسفله كتب ولده بخطه : « ثم صار الى أحوج العباد الى الله تعالى عبد الكريم بن الحسن اليوسى كان الله له آمين عام ستة وعشرين ومائة وألف » .

الربـــــاط **عباس الجراري**

لم نتمكن فى هذا العدد من ادراج البحـــث الـــذي كتبـــه الدكتـــور عبـــاس الجراري بعنـــوان :

« اليوســـي رائـــد عصـــره ومجـــدده »

وسننشـــره فى عـــدد مقبـــل مـــن المناهــل .

الحسن اليوسي من خلال "المحاضرات"
جوانب من شخصيته وتفكيره وسلوكه

محمد العربي الخطابي

« اللهم اجعله عينا يستقى منها أهل المشرق والمغرب »

يخبرنا الامام أبو على الحسن بن مسعود اليوسى فى كتابه (المحاضرات) أن شيخه واستاذه أبا عبد الله محمد بن ناصر الدرعى كان يدعو له بهذا الدعاء كلما دخل مقاما أو مزارا فى سفرته الثانية الى الحج .

والغريب أن هذه العين الثرة المباركة كانت بمثابة رمز لازم اليوسى منذ أن كان جنينا فى بطن أمه الى أن صار عالما أديبا مدرسا يستقى منه الطلاب والمريدون والمعجبون .

فهذا اليوسى نفسه يخبرنا أن أباه — « وكان رجلا أميا . . متدينا مخالطا لاهل الخير محبا

للصالحين . . وكان قد أعطى الرؤيا الصادقة ولعطى عبارتها فيرى الرؤيا ويعبرها لنفسه فتجيء كفلق الصبح » (*) كان قد رأى فى منامه عينى ماء احداهما له والاخرى لعلى بن عثمان والد « الاديب البارع » أبى سعيد عثمان بن على ، ابن عم اليوسى « غير أن عين على كنا نسقى بها فى بلادنا وعينى خرجت الى ناحية أخرى . . وكانت العين التى هى لى أقوى ماء وأكثر فيضا » وقد عبر والد اليوسى هذه الرؤيا بمولودين ينتفع بهما « فولد أبو سعيد المذكور . . وولدت أنا أيضا ، وقد كان لى اخوان أسن منى فملتا أمبين رحمهما الله . . فأرجو أن أكون تلك العين ، وقد اتفق خروجى عن البلد كما قال رحمه الله » .

وقد تنبه اليوسى الى التوافق بين رؤيا والده ودعوة الشيخ ابن ناصر له فاعتبر هذه المواطأة « من عجيب الاتفاق » .

ولا شك أن هذا الذي يخبرنا به اليوسى عن والده وعن شيخه أبى عبد الله محمد بن ناصر يكشف لنا عن جانب من شخصيته وتفكيره وتربيته الروحية كما يسلط بعض الاضواء على المجتمع الذي عاش فيه من حيث المعتقدات والسلوك .

وقد رأيت من الفائدة أن أبدأ بابراز هذا الجانب المميز من شخصية اليوسى كما يكشفه لنا كتاب (المحاضرات) الذي يمكن اعتباره مصدرا هاما لا يستغنى عنه كل من يقدم على دراسة حياة اليوسى وآرائه فى الدين والادب والسياسة

---

*) كل الاستشهادات الموضوعة بين علامة التنصيص ولم نشر لمصدرها فهى من كتاب « المحاضرات » لليوسى .

والمجتمع . ولا ينبغى أن يفهم من هذا أن (المحاضـــرات) ترجمة ذاتية للمؤلف بالمعنى المصطلح عليه بل انه فى المقـــام الاول أحاديث لا تكاد تجمع بينها وحدة فى الموضوع ولا يميزها منهج خاص فى العرض والتقرير والشرح ، انه كتاب يتنـــاول فيه المؤلف ، بطريقة المحدث المحاضر ، أشتاتا من أمور الدين والتصوف واللغة والادب وأحوال المجتمع مستشهدا بالقـــرآن والحديث وأقوال الائمة وأفعالهم وسلوكهم وبكلام العرب شعرا ونثرا ، الا أنه يدلى فيه بآرائه ويستشهد بنتف من شعــــره ويتعرض لكثير من تجاربه ومشاهداته فى ترحاله وظعنه بما فى ذلك التجارب المتعلقة بالطب والتداوي والاطعمة . وهو يذكـــر أسماء الاماكن التى زارها فى المغرب وخارجه مع بيان التواريخ فى بعض الاحيان ، فهو يخبرنا ، مثلا ، أنه ورد على أستـــاذه وقدوته محمد بن ناصر الدرعى « فى أعوام الستين والالـــف بقصد أخذ العلم » وأنه دخل مدينة فاس « سنة تسع وسبعين وألف ، اذ خربت الزاوية البكرية » ، وأن معركة بطن الرمان التى انهزم فيها الدلائيون على يد السلطان مولاي رشيد بـــن الشريف وقعت فى « أوائل محرم فاتح سنة تسع وسبعـــين وألف » ، ثم أن اليوسى يسمى فى (المحاضرات) كثيرا مـــن شيوخه ومن العلماء والصلحاء والصوفية الذين أخذ عنهـــم العلم أو لقيهم ، بل اننا نجد فى خاتمة الكتاب قائمة طويلـــة باسمـــاء هـــؤلاء .

هذا ويوضح اليوسى المناسبات التى قال فيها بعض شعره المبثوث فى (المحاضرات) ويثبت بعض مناظراته مـــع العلماء

ويورد روايات عن محمد الحاج الدلائي وغيره . فضلا عن أن اليوسي يصدر كتابه بمعلومات عن اسمه ونسبه وقبيلته ويسمى كثيرا من أجداده ومنهم أبو القبيلة « يوسف » واليه ينتمي اليوسيون (أي اليوسفيون بحذف الفاء) .

ومن هنا يمكن اعتبار كتاب (المحاضرات) مصدرا لا غنى عنه لكل من يريد أن يتصدى لدراسة سيرة اليوسي . كما أنه لاغنى للدارس عن كتاب (الفهرسة) وبعض رسائل المؤلف التى توضح جوانب من شخصيته وسلوكه .

❦

نعرف أن الامام الحسن اليوسي — الذي عاش بين النصف الثانى من القرن الحادي عشر وأوائل القرن الثانى عشر الهجري وتوفى عام 1690/1102 — كان واسع الاطلاع على علوم اللغة والادب متين الدراية بالاصول والفقه والتفسير والحديث والتوحيد والمنطق ، وكانت له مع ذلك ميول ظاهرة الى أصحاب التصوف واعجاب بالصلحاء والاولياء ، نظر فى كتبهم وروى أخبارهم وتشبع بأقوالهم وأفعالهم ، واتصل ببعض الاحياء منهم . ولا عجب فى ذلك فقد أخذ اليوسى العلم فى زاوية الدلاء وعلم بها وقضى فيها شطرا من حياته الخصبة تلميذا ثم أستاذا ، كما أخذ العلم عن الشيخ سيدي محمد بن ناصر الدرعى ، وكان يشد الرحال الى أضرحة الاولياء والصالحين يلتمس فى مقامهم الخير والبركة له ولاهله ، ويجد فى ذلك راحة النفس وطمأنينة الخاطر .

ومع هذا كله لا نستطيع أن نقطع بأن اليوسي كان صوفيا متفرغا للزهد والخلوة سالكا طريق المقامات والاحوال. نعم، كانت تربيته وايمانه العميق بالقيم الروحية للاسلام يميلان به الى أهل الله وأقطا بالتصوف وعلمائه يكبرهم ويجلهم ويستحسن الاقتداء بهم والتبرك بمقاماتهم فى حدود تعاليم الكتاب والسنة ودون أن يتخلى هو نفسه عن السعى فى الحياة لاكتساب العلم والرزق والنظر فى أحوال المجتمع والامر بالمعروف والنهى عن المنكر جهد المستطاع، وذلك باللسان والقلم والقدوة الصالحة، كما أنه تصدى للتدريس والمحاضرة مدة طويلة من حياته الخصبة، وألف عديدا من الكتب والرسائل.

لقد جاهر اليوسي بتسفيه بعض أدعياء الصلاح من المضلين والدجالين وحذر منهم ضعفاء العقول، ولا أدل على ذلك من هذا الحديث الذي يسوقه فى المحاضرات عن « الشجرة الخضراء فى المدينة الخالية » ويبدأه بأسلوب قصصى جميل فيقول :

« كان بسجلماسة أيام ارتحلنا اليها للقراءة زمن الصبا شجرة يقال لها الشجرة الخضراء مشهورة فى تلك البلاد وفى سائر بلاد القبلة، وهى قدر الزيتونة أو السدرة الكبيرة، وورقها يقرب من ورق السدر وبسبب شهرتها أنها غريبة الشكل دائمة الخضرة وغريبة فى محلها وليست من شجر البلد، وهى منفردة ليس معها شجر أصلا، وكانت نابتة خارج سور المدينة الخالية بينها وبين النهر قبالة الرصيف الذي يعبر عليه لناحية الزلاميط، ويقال أن ذلك بلصه من أبوابه تلك المدينة . . »

وخلاصة القول فى أمر هذه الشجرة الغريبة أن « الاستاذ الفاضل أبا زيد عبد الرحمن بن يوسف بعث اليها جماعة من الطلبة فقطعوها . . وكان كل من يمر فيراها تقطع يصيح ويتأسف ويقول : ما فعلت لكم المسكينة ؟ وكان أهل سجلماسة . يزورونها ولا سيما النساء ، فيكثرن عليها من تعليق الخيوط ويطرحن الفلوس أسفلها ، وربما تغالت النساء فى تعظيمها والتنويه بشأنها حتى يسمينها باسم امرأة صالحة كالسيدة فاطمة ونحو ذلك ، فلهذا أمر الاستاذ المذكور بقطعها وكأنه يرى أنها صارت ذات أنواط كما قال الشيخ أبو العباس الموسى رضى الله عنه . »

ويعلق اليوسى على هذه الرواية بقوله : « فذكرناها نحن للتنبيه على ذلك ، فان عوام الناس أكثروا عليها منذ عقلنا حتى كانوا ينسبون اليها من ترهات الاراجيف نحو قولهم : قالت الشجرة الخضراء : هذا زمان السكوت من قال الحق يموت . فليعم الناظر أنها انما هى شجرة لا تضر ولا تنفع ، ولا تبصر ولا تسمع ، ومثلها أحق أن يقطع » .

وقبل أن نواصل الكلام عن موقف اليوسى من هذا النوع من السذاجة الاجتماعية التى ترافق عصور الانحطاط والتخلف الفكري نود أن نتوقف قليلا عند تعليق اليوسى على قضية الشجرة وتعلق الناس بها ولا سيما الفقرة التى نسب فيها الى العوام قولهم : « هذا زمان السكوت ، من قال الحق يموت » ألا يكون هذا نوع من النقد المتستر الرمزي للاوضاع السائدة

فى ذلك العصر ؟ ألم يتعمد اليوسى ذكر هذه الفقرة بالـذات لتوافقها مع بعض آرائه فى عصره ورجاله ؟ مع أن القصـــد الاساسى يظل هو استنكار تعلق العوام بهذه الشجرة واعتقادهم أنها قد تنفـع وتضــر .

ونعود الى سياق الكلام الذي بدأناه فنقول أن اليوسى ـ الذي يستنكر غفلة الناس فى عصره وميله مالى تصديق بعض الترهات والاباطيل ـ كان يعتقد « أن التبرك بآثار الصالحين مع صحة العقيدة لا باس به » وهو انما ينكر على العـــوام التغالى فى ذلك ، ولا يتردد فى ذكر أمثلة من « مواضـــع اشتهرت بآثار الصالحين » فى بلاد المصامدة ، وشالة فى ربـــاط سلا ، وميسرة فى ملوية « حيث مدفن الشيخ أبى الطيب بـــن يحيى الميسوري » وفى رباط شاكر « وهو مشهور ، وكـــان مجمعا للصالحين من قديم » .

ويذكر اليوسى طائفة من أخبار بعض المحتالين الذيـــن يظهرون الصلاح ويخدعون الناس فلا يخفى أنه كان فى بعـــض الاحيان من جملة من خدع . فهو ـ مثلا ـ حينما يحدثنا عن ظهور رجل فى سجلماسة (المدينة الخالية) ـ كما يسميها ـ اعتقد الناس أنه صاحب الوقت وولى من أولياء الله « فلمـــا كثر الناس اشتد الزحام عليه وتعذرت رؤيته فدخل فى قبـــة هناك فى المقابر فأخرج كفه من طاق القبة ، فجعل النـــاس يقبلون الكف وينصرفون ، وكان كل من قبل الكف اكتفى ورأى

أنه قضى الحاجة فقبلنا وانصرفنا ، ثم بعد أيام سمعنا أنه ذهب الى ناحية الغرفة وأنه سقط فى بئر هنا لكومات ، فظهر أنه رجل مصاب وكأنه يشتغل باستخدام الجان ونحو ذلـــك غهلـــــك » .

ثم يعلق اليوسى على هذه القصة بقوله : « فكم تظاهــر بالخير من لا خير فيه من مجنون أو معتوه أو موسوس أو ملبس فيقع بـ ه الاغترار للجهلة الاغمار » .

فها نحن أمام رأي واضح كثيرا ما أعلنه اليوسى مع أننا لا نملك الا أن نتساءل بشىء من الفضول : كيف كان اليوسى نفسه — وهو عالم جليل عارف بالكتاب والسنة متمسك بهما — ينخدع احيانا فيظن الصلاح فيمن لا صلاح فيه ويقبل يـــد معتوه لا يعرف من أمره شيئا وينصرف مع المنصرفين ؟ أهذه سذاجة من اليوسى أم أنه نوع من التغافل والمداراة يفرضهما السلوك الاجتماعى والبيئة ؟ أم أنه تأثر حتمى بالمحيط الذي نشأ فيه وعـــــاش ؟

والواقع أن اليوسى نفسه يطلعنا على جانب من رأيه فى السلوك الاجتماعى فيقول : « انى لاتغافل عما لا حاجة اليه ، ولا أتتبع ما فيه تكلف ولا تدعو الضرورة اليه ، وان ذلك عندي هو أسلم و أبعد عما يخشى من ارتكاب الفضول أحيانـــــا ، وتجاوز الحد أحيانا ، واحراج الصدر أحيانا ، واستثارة الشر أحيانا ، وأقرب الى مكارم الاخلاق ، وأدخل فى المداراة المطلوبة، وأبعد عن الملاحاة المذمومة » ثم يستشهد اليوسى بحديثـــين

نص أحدهما : « مداراة الناس صدقة ». ونص الآخر « أمرنى ربى بمداراة الناس ونهانى عن ملاحاتهم » .

ثم ان اليوسى يرى أن حسن الظن بالناس والتغافل عن عيوبهم واجب مع التزام الحذر « ولا سيما فيما نحن فيه من آخر الزمان الذي استولى فيه الفساد على الصلاح والهوى على الحق والبدعة على السنة الا من خصه الله وقليل ما هم » . ويظهر من كتاب (المحاضرات) أن اليوسى كان يوقر الصوفية ويجل أقطابهم ، ويذكرهم بعبارات وأوصاف تنم عن ذلك ويستشهد بأقوالهم وأفعالهم ، فهو ــ مثلا ــ ينعت أبا العباس المرسى بالقطب العارف ، ويختم الكلام عنه وعن أمثاله كتاج الدين بن عطاء الله والشيخ أبى زيد والشيخ أبى مدين بقوله « رضى الله عنهم » أو « نعمنا الله بهم وبأمثالهم » .

وكان اليوسى ــ كما سبق أن قلنا ــ يؤمن بالرؤيا الصالحة وبتأويلها مستندا فى ذلك الى حديث يقول فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الرؤيا الصالحة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة » .

ومن الطريف فى هذا الباب أيضا أن الحسن اليوسى يحدثنا بنفسه عن رؤيا قصها عليه « أحد الاخوان » فقال بأنه « رأى فيما يرى النائم جماعة من الصالحين ، والكاتب معهم ــ أي اليوسى ــ وفيهم الشيخ محمد بن مبارك وغيره من أمثاله ، فتكلم بعضهم . . . الى أن قال : ان كان الحسن البصري فى زمانه فهذا الحسن اليوسى فى زماننا ، يشير

الى الكاتب » . وربما استلهم أبو سالم العياشى بيته المشهور من ذلك :

من فاته الحسن البصري يدركه

فليصب الحسن اليوسى يكفيه

وكأن هذا التشبيه بأحد كبار اعلام الاسلام قد وقع من نفس اليوسى موقعا حسنا فتقبله « رجاء وطمعا فى اللحاق بالصالحين أو بمحبيهم وتبركا بذكرهم ، والا فليس بعشك فادرجى :

لما انتسبت الى علاك تشرفت

ذاتى فصرت أنا ، والا من أنا ؟ »

واذا تركنا الرؤيا وتاويلها عند الحسن اليوسى وتاثير ذلك فى تفكيره ومسيرة حياته فاننا نجد أن عالمنا وأديبنا الكبير لا يتردد فى التصريح باعتقاده أن الاولياء والصالحين يمكن أن يكون لهم تاثير فى سعى الانسان ومصيره سواء كانوا أحياء يدبون على الأرض أو أمواتا جاثمين فى قبورهم ، فهو يخبرنا بزيارته لمقام الاولياء الاقطاب الذين تقضى عندهم الحاجات من أمثال الشيخ عبد السلام بن مشيش والشيخ أبى يعزي يلنور والشيخ أبى سلهام . ويحدثنا عن بعض تجاربه الروحية فيقول ، مثلا ، « وقد شاهد ت المولى ادريس بن ادريس رضى الله عنه أيام مقامى بمدينة فاس ترياقا مجربا فى كل ما انزل به من حاجة » . بل ان اليوسى يؤكد لنا فى احدى محاضراته أن زوجته

كانت « قد تراخت عنها الولادة فدخلها من ذلك غم عظيم » ، وبعد أن رأت فى منامها أنها ذهبت الى مقام سيدي أبى علـــى الغجاتى فوجدته جالسا وهى فى غاية العطش « فاذا حولـــه عين يرشح منها ماء قليل لا يغنى » فقالت : « يا سيدي مـــا هذا ؟ جئت اليك عطشى رجاء أن أشرب أفأرجع كما جئت ؟ قال : لا ،ان الماء ثم ، انبشى يخرج . قالت : فنبشت بيدي فخرج الماء وشربت حتى ارتويت » . ويعقب اليوسى علـــى ذلك بقوله : « وطلبت منى أن نزوره وأن نطعم عنده طعامـــا ففعلنـــا ، فولد ولدنا محمد الكبير أصلحه الله وأمتع به » .
ويحدثنا اليوسى أيضا عن بنية له كانت قد عجزت عن النهوض وهى فى سن من يمشى « فظنناها مقعدة فذهب بها الخدم اليه — أي الى سيدي أبى على المذكور — وزوروها فقامت بالفـــور على رجلهـــا تمشـــى » .

هذا ويؤكد لنا اليوسى أنه رأى « لبعضهم أن الولى اذا مات انقطع تصرفه من الكون ، وما يحصل لزائره ، مثلا ، انما يحصل له على يد قطب الوقت بحسب درجة ذلك الولى » ، ولم يخبرنا اليوسى برأيه هو فى هذا التفويض الروحانى الـــذي يخول لقطب الوقت التصرف باسم الولى الذي « مات وانقطع تصرفه من الكون » الا أننا نعلم أن اليوسى لا يشك فى النتيجة الايجابية التى تحصل من زيارة أحد الاولياء .

ونقرأ لليوسى بعض الروايات التى لا نجد مبررا للشك فى صحة سندها ، والتى تحدث فى نفوسنا بعض الاستغـــراب وما يشبه التساؤل ، من ذلك ، مثلا ، ما يرويه عن محمد الحاج

الدلائى عن والده سيدي محمد بن أبى بكر قال : « ان شيخه سيدي محمد بن أبى القاسم المعروفبالشرقى التدلاوي كان وقع بينه وبين ولده سيدى الغزوانى كلام وعتاب الى أن قال الولد: أأنت ترزقنى ؟ فقال الشيخ : نعم ، أنا أرزقك . فأعظم الناس هذا الكلام . . فقال الوالد : لا شىء فى هذا ، فان الشيخ هو القطب فى الوقت ، والقطب تجري الارزاق على يده ، فصح بهذه الاضافة أن يكون رازقا » . ولم يعلق اليوسى على هذه الرواية بشىء ، ولا يمكننا أن نؤول سكوته بالموافقة على قبول الشيخ الشرقى التدلاوي ونحن نعلم أن الله وحده هو رازق العباد وأن الناس جميعا انما يتصرفون بارادته تعالى سواء كانوا من الاقطاب أو العامة « وما من دابة فى الارض الا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها » واذا كان للارزاق أن تجري على يد أحد ، باذن من الله ، فان ذلك لا يكون ، عقلا ، الا من باب اعطاء الأجرة للاجير أو اعالة الاهل والاطفال أو نحو هذا ، أما التصرف فى أرزاق الناس واجراؤها عليهم من طريق الخوارق فذلك ما لا تقوم لدينا عليه حجة من كتاب أو سنة أو منطق . وهذا كله لا يمنعنا من توسم الخير فى الدعاء الصالح من الرجل الصالح يدعو به لاحد من عباد الله مع رجاء الاستجابة والقبول من الخالق الذي لا يقوم بينه وبين خلقه حجاب .

❖

قلنا أن الحسن اليوسى كان ميالا الى علم التصوف مطلعا على كتبه ، عارفا برجاله ، مدليا فيه برأي . وقد عقد

فصلين كاملين هما من أطول فصول (المحاضرات) أولهمــــا بعنوان « الكشف والمكاشفة عند الصوفية » والثاني « تـــذوق الصوفية معاني الابيات والاشارات وتأويلها حسب المقامات » وإن كان هذا الفصل من باب جولات اليوسي الادبية الدالـــة على عمق فهمه وتذوقه لكلام العرب شعرا ونثرا . وفضلا عن هاذين الفصلين فى الصوفية وأحوالها نجد فى (المحاضرات) فصولا وأخبارا أخرى عن الزوايا والاربطة ومقامات الاولياء والصالحين مما لا يدخل فى باب علم التصوف الخالص بل يرتبط أكثر بالطرقية وسلوك الشيوخ والمريدين والفقراء ، أي بذلك التيار الذي عرفه المغرب والمغاربة وعاشـــوا تقلباته طــوال قرون من الزمن . ثم ان لليوسى مؤلفات فى التصوف نذكر منها شرحه لكتا بمناقب الغوث عبد القادر الجيلاني ، ومصنفا في موضوع مصاحبة الشيخ وتادية الاوراد وما شابه ذلك .

فما هو إذن موقف اليوسي من التصوف ومتاهاتـــــه ؟ نستطيع أن نقول في البداية أن عالمنا الكبير كان يعطى « عهد الشاذلية » فيأخذ عنه الطالبون « الورد والرواية والزمــان والمكان الذي وقع فيه ذلك » كما يحدثنا هو نفسه فى اشارة عن مقامه فى مصر . ثم ان اليوسي يقول لنا فى أحد فصـــــول (المحاضرات) : « بعد وفاة الاستاذ المحقق السنى أبى عبد الله بن ناصر ــ رضى اله عنه ــ لم نزل نسعى فى نفع الناس بتعليم ما يحتاجون من دينهم ، وما يحتاجون من أوراد النوافل والاذكار التى يتزودون بها لمعادهم ، ويتحببون بها ويتقربـــون الى ربهم ، عاملين فى ذلك على وجه المؤاخاة والمعاونة على البر

والنصيحة لا وجه المشيخة ، وعلى وجه التعليم والارشاد لا على وجه التربية . . فاخبرني بعض أصحابي أنه جرى كلام بينه وبين بعض القضاة المتصدرين للدرس ، فتكلم له القاضي في شأني وقال له على وجه النصيحة فيما زعم : ما ألجأ فلانا الى تلقين الاوراد ؟ فهل رأيتم مريدا بشروط الارادة قط ؟ فلما حدثني بذلك قلت له : هلا قلت له : أما أنا لم نر مريدا كذلك فهو كذلك ، وكيف نراه الا أن يتداركنا الله برحمته ! » نستنتج من هذا الكلام أن اليوسي كان ، كما قلنا ، يعلم الاوراد ، وأنه لم يدع في ذلك لنفسه مشيخة أو تصديا للتربية السلوكية على طريقة شيوخ الزوايا ، بل ان قصده كان مجرد النصيحة والتعليم ، وهو لم يكن يطمع في أن يرى « مريدا بشروط الارادة» ولربما كان يشك في امكان ذلك كما يستنتج من استشهاده في نفس الفصل بكلام الشيخ أبي العباس بن عتبة الحضرمي برواية تلميذه أبي العباس زروق ، ولفظه : « لو فتشتم من أقصى مشارق الأرض الى أقصى مغاربها على مريد صادق في أحواله لم تجدوه ، فكيف بالعارف الكامل » ؟ وينتهي اليوسي الى رد الكيل للقاضي الذي انتقد فعله فيقول : « فهل رأيت بنفسك متعلما على شروط التعليم المعتبرة أو هل رأيت في نفسك شروط المعلم وعلى من يجلس اليك شروط المتعلم ؟ فلا بد أن تعرض على نفسك شروط المعلم وعلى من يجلس اليك شروط المتعلم ، فان تجد ذلك صحيحا ظاهرا أو باطنا فتصدر ، وان وجدته مختلا فكيف يحل أن تتصدر وارتفاع الشرط يوجب ارتفاع المشروط».

فهذا كلام لاذع قارص يوجهه اليوسي الى منتقده ، وقد نرى فيما تقدم ذكره تاييدا لما ذهبنا اليه من أن اليوسي انما كان

يرمى الى أداء رسالة التطيم التى كرس لها حياته وجهــــده ، وأنه لم يكن يدعى ولاية ولا مشيخة ولا يزعم تربية المريديــن والسالكين والاتباع مع أننا لا نشك لحظة فى ورع الوســـى ونزاهته العلمية والخلقية وصدق مقاصده وجدارته بأن يكــون قـــدوة ومـــثالا .

وبعد هذا أيمكننا أن نقول ، على سبيل القطع واليقين ، أن اليوسى لم يكن طرقيا بالمعنى المعروف لهذه الكلمة أي أنه لــم يكن من أتباع شيخ من شيوخ الزوايا فى عصره ، يحضـــــر مجالس الذكر وينتسب بالى شيخ الزاوية وينقطع لخدمتــه ؟ وكيفما كان الحال فان اليوسى لم يدع مشيخة ولم يتصــــدر لرئاسة طريقــــة .

لقد كان عالمنا الجليل من الم تلاميذ الزاوية البكريــــــة الدلائية ثم أصبح من أبرز أساتذتها وأقدرهم على التعليــــم والافادة ، قضى فى هذه الزاوية نحو عشرين عاما من عمــره وورد عليها وهو ملم ببعض العلوم ونال عند أساتذتها وطلابها حظوة ومكانة حتى ان شيخه محمد المرابط نعته ، حينما أجازه ، بلقب « شيخ الجماعة بالديار البكرية » ، ومع ذلك فان تعلق اليوسى بهذه الزاوية وحنينه الدائم اليها واكبارها لشيوخهــا وعلمائها انما يمكن أن يفسر بالمدة التى قضاها هناك متعلمــا ومدرسا ، ولا نجد فى ذلك سندا كافيا للقول بانه كان طرقيــا منتظما فى سلك الزاوية ما لم يتح لنا الاطلاع على جميع مؤلفاته ومؤلفات مـــن ترجـــم لــه .

نعم ، اننا نعلم أنه كان يداوم على تلاوة الاوراد كما كان يعلمها وان الناس كانوا يأخذون عنه « عهد الشاذلية » ، وطريقة الدلائيين ، كما نعلم ، شاذلية انحدرت اليهم عن طريق الشيخ محمد الجزولي والشيخ أحمد زروق ، مع أن الشيخ أبا بكر الدلائى « لم يلتزم تلقين أذكار مخصوصة لمن يريد الاخذ عنه » كما لاحظ الاستاذ محمد حجى فى رسالته القيمة عن الزاوية الدلائيـة .

وعلى هذا يمكننا أن نقول أن اليوسى كان متفرغا للتدريس والتاليف ؛ علم فى الزاوية الدلائية كما تصدر للتدريس فى فاس ومراكش وتطوان ، وترك ذخيرة كبيرة من المؤلفات أحصى منها الاستاذ بيرك ثلاثة وثلاثين مؤلفا وأضاف الاستاذ حجى الى هذه القائمة أربعة عشر كتابا ، ولم يشتغل اليوسى بغير ذلك فيما نعلم الا ما كان من تجواله ورحلاته .

وأما اهتمام اليوسى بعلم التصوف وأخبار رجاله فامر يؤكده كتاب (المحاضرات) ـ كما سبقت الاشارة الى ذلك . والفصل الذي خصصه للحديث عن الكشف والمكاشفة عند الصوفية جدير بالاهتمام فقد عرض فيه طائفة من الاخبار والآراء التى حضرته فى الموضوع وأطال فى ذلك وأجاد .

استهل اليوسى هذا الفصل بخبر نقله عن شيخه أبى بكر بن الحسن التطافى ونصه : « دخلت على شيخنا العلامة الزاهد أبى محمد عبد الله بن على بن طاهر الحسنى ـ رضى الله عنه ـ يوما ، وهو اذ ذلك بقرية أولاد الحاج من بلد مدغرة ، فقال

لى : ان بنى يفوس ، وهى قرية من الخنق ، وقع بينهم قتال . قال : فقلتيا سيدي أجاء أحد من هنالك ؟ قال : لا ، ولكن أخبرنى بذلك قلبى ،وقلبى لا يكذب على فقد جربته . وكان بينه وبين هؤلاء مرحلة ، قال : فجاء الخبر بعد ذلك بوقوع الامر كما أخبر به » .

وبعد نقل هذا الخبر عمد اليوسى الى محاولة استخدام ميزان العقل والعلم المتداول موضحا منهجه بقوله : « وانما أقرر شيئا أتعقله فهما أو شيئا وجدته فى كتبهم مشروحا ، ولا أدعى أنه ليس فى حكمة الله البالغة وموهبته السابغة أزيد من ذلك بل أذكر ما انتهى اليه فهمى » فالعلم والعقل شيء والمواهب والخوارق شيء آخر .

يقرر اليوسى فى هذه المسألة (الكشف والمكاشفة) أن الغيب قسمان : قسم يمكن لبعض العقول أن تدركه كصفات الله تعالى وأسمائه ، وحكمته فى أرضه وسمائه ، وأحكام المعاد وكل علم مستنبط من الاصول والفروع . ويعتبر اليوسى هذا القسم من الاطلاع الصحيح الذي لا يمكن أن يسمى فى الاصطلاح كشفا . وقسم مرجعه الموهبة ، ولا مجال فيه للعقول ، وهو اما أن يكون تلقائيا كحال المجذوب والنائم ، واما أن يتقدمه سبب من رياضة أو نحوها . وبعد أن يعطينا اليوسى بيانات عن خصائص (الموهبة) ومظاهرها من رؤيا

وغيبة ويقظة ينبهنا الى أن العلم بالغيب « من أوصـــــاف الربوبية ، والعبد مرتاح الى ذلك كارتياحه الى القدرة والعلو ، فكان للناس ولوع بذلك وتشوق اليه ، وتشوق الى من يظهـــر عليه شيء من ذلك . . . حتى ان العامة مطبوعون على جعل ذلك آية لثبوت ولاية الولى من غير تعريج على المستقيم منـــــه والسقيم » . ثم يتصدى اليوسى لبيان « وجوه الغلـــــط » الذي يقع فيه الناس بخصوص مسائل الكشف وما يزعمـــــه الزاعمون من أنه يأتى يقظة أو مناما ، ويمكن تلخيص ذلـــك كمـــــا يلـــى :

ـ ان أمور النوم قلما تنضبط ، والاحلام ظواهـــــــر نفسية معقدة تؤثر فيها المشاعر والحالا تالظرفية كالشغـــــف والاستغرا بوالخوف « ولا حاصل لذلك » .

ـ يحتمل الخطأ فى تعبير الرؤيا . والمنامات لا تختص بأفراد دون آخرين « بل تقع لسائر الناس حتى الكفرة ، ولذا وقع فى الحديث : الرؤيا الصالحة من الرجل الصالح . . وفـــى الحديث أيضا : اذا تقارب الزمان لم تكد رؤيا المؤمن تكذب » .

ـ حال الغيبة يمكن أن يقع فيها الخطأ أيضا « بتلاعـــب الشيطان » ، وقد تكون غيبة من تصيبه هــذه الحال « بوارد ربانى أو شيطانى » .

ـ وفى حال اليقظة يمكن الغلط أيضا « فى رؤية البصر بأن يكون المرئى خيالا لا حاصل له كما يقع ذلك للمحموم وصاحب الميد وراكب البحر . . . وفى رؤية القلب كذلك ، وفى الخاطر بأن

يكون شيطانيا أو مجرد حديث نفس أو قوة رجاء وظن ونحو ذلك » والواجب فى هذه الحالة أن لا يغتر الانسان فى حق نفسه وأن يتهم رأيه ، كما يجب عليه « أن لا ينخدع لكل مبطل ولا يسىء الظن بكل مسلم » .

وبعد هذا التحليل العلمى لمسألة الكشف يتصدى اليوسى الى تحذير الناس من الاغترار والافتراء والاستسلام للاوهام وينصحهم بالتزام جانب الصواب الموافق للشرع والعقل مستشهدا بالسنة الطاهرة وبأقوال بعض أقطاب الصوفية كالشيخ أبى العباس زروق ، وقد نقل عنه قوله : « ان من اعتاد من نفسه الغيبة عند السماع لا يحل له تعاطيه ، لان حفظ العقل واجب » .

واليوسى يفرق بين المهوسين الادعياء « وأهل الشراب الصافى من أولياء الله تعالى » مؤكدا أن هؤلاء لم ينالوا ما نالوه « بحولهم ولا قوتهم ولا بالترهات . . . وانما اختصهم الله بموهبته ، وأهلهم لحضرته من غير تدبير منهم ولا اختيار ، ولو كان لهم اختيار لاختاروا البقاء فى خدمته ، وان لا يغيبوا عنها لحظة ، فان أدب العبد وشرفه انما هو فى خدمة مولاه لقيامه بحق سيده لا بحظ نفسه . وما مثال من يطلب ذلك بالوله والسكر الا مثال عبد نصبه سيده لخدمته وهو يريد الاباق عنه أو يريد أن يتركها اختيارا منه . . . »

ويؤكد اليوسى فى مكان آخر أن تحذيراته وما قرره

من تحرزات انما تخص المريدين والعوام الذين يتعرضون للغلط والزلق « وأما العارفون الكاملون ، وان كانوا أيضا غير معصومين ولا مستغنين عن التحفظ ، فلا حديث لنا عنهم ، لانهم أعرف بحالهم فيما يأتون ويذرون » .

وواضح أن اليوسى كان يقصد الى محاربة البدع السائدة فى عصره والتنبيه الى مهاوي الضلال والترهات التى يتردى فيها العوام من أدعياء الجذب والحال فيضللون الناس ويفتنونهم. الا أن اليوسى لم يتطاول على مقام أصحاب « الموهبة » الحقيقية من أولياء الله وأقطاب الصوفية ، بل اننا نراه يستشهد بأقوالهم وأفعالهم ويجعل من ذلك حجة لما يرومه من بيان ونقد واصلاح ، ومن بين الرجال الذين ورد ذكرهم فى الفصل الذي نحن بصدده : الشيخ أبو العباس زروق ، والشيخ أبو مدين ، والشيخ السري ، والامام الغزالى ، وسيدي محمد الشرقى التدلاوي ، وسيدي على أبو الشكاوي ، والشيخ عبد الوهاب الشعرانى ، والشيخ عبد القادر الجيلانى ، والشيخ أبو عبد الله السنوسى ، والشيخ أبو القاسم الجنيد . ومع ذلك نرى اليوسى يتحرز بأسلوبه الخاص وطريقته الاستطرادية فيقول مثلا بأن هؤلاء العارفين الكاملين غير معصومين هم أيضا ولا مستغنين عن التحفظ ، ويؤكد أن ما تنكره « الشريعة أو الحقيقة والعقل فينكر بالشروط المقررة فى انكار المنكر فى الفقه والتصوف مع حسن الظن فى الباطن » ، ويلح اليوسى كثيرا على سلامة الضمير وحسن الظن بالناس والتغافل عن مساويهم « مع فطنة ويقظة ومعرفة بالزمان وأهله » ؛ ويبدو

أن عالمنا الكبير لم يكن مرتاحا كل الارتياح الى زمانه بسبب ما ساده من عادات فاسدة وأفعال مشينة ، فهو يقول فـــى (المحاضرات) : « أما الزمان فلا تسأل عنه ، وقد مر فى الحديث: صنفان اذا صلحا صلح الناس واذا فسدا فسد الناس : الامراء والعلماء ، وقد فسدا معا والى اللــه المشتكــى » ويضيــف اليوسى « وكان الامر يصلح بأئمة العدل وفقه الفقهاء وأدب الصوفية ، وقد فسد هؤلاء الثلاثة بالجور والمداهنة والبدعة ، ففسد الدين بهم أولا والدنيا ثانيا » . ومع ذلك يرى اليوســى أن « انتقاص الزمان وانتقاص أهله لا يوجب انقطاع الديــن ولا ارتفاع النصيحة ، فان هذا النقص سار فى الدين وفى العقول وفى الاقوات وفى الامامة الكبرى والصغرى » . ولم يتأخــر اليوسى فى ميدان النصيحة والاصلاح ومحاربة البدع والفساد بالقلم واللسان والقدوة الصالحة ، وهو يقول : « ان العالم سيفه لسانه ، وما وراء ذلك انما هو لاهل الامر ومن له قــدرة على الامر » وفى المحاضرات وغيره من مؤلفات اليوسى ورسائله أذلة على حسن قيامه بهذا الواجب ، فقد كان حربا على البدع والرياء والجور والترهات ، يصارح بذلك أصحاب السلطــان ولا يهــاب أحـــدا .

ونعود الى مسألة الكشف ودعوى الاطلاع على الغيب لنلاحظ أن اليوسى لم يبد أي تساهل فى حق الادعياء المخادعين فحمل عليهم وفضح بهتانهم وما يتخذونه من أساليب لخــداع العامة لمجــرد الطمع فى حطــام الدنــيا ، فهــو يخبرنــا أن ادعاء الاطلاع على الغيب والتظاهر بالكشف والتصرف فـــى

الوجود شاع فى زمانه ، وهو يرمى هؤلاء الادعياء بالانقياد للخيالات المنامية والظنون الكاذبة والوساويس الباطلة ، وهم لذلك يشتغلون بما يطلبه العوام من معرفة ما سيحدث لهم أو ما سيلقونه غدا هم أو ذووهم . ويفرق اليوسى بين هذه التوافه الغيبية الكاذبة وما يتاح لاولياء الله تعالى الذين « يكشف لهم عن الذات والصفات والاسماء كشفا لا تبلغه العقول ، وعن ملكوت السماوات والارض . . » وشتان ما بين هذا الكشف الربانى الذي تتيحه المعرفة والذوق والرياضة الروحية والعلم بالشريعة وبين الهوس الذي يؤدي بأصحابه الى التكهن الكاذب بأن مسافرا سوف يقدم غدا وأن فلانا يتولى ولاية أو يعزل أو يتزوج .

ولا يغفل اليوسى عن فضح من يستخدمون الجن أو يشتغلون بالتنجيم وضروب الاحتيال الاخرى .

وأخيرا يلخص اليوسى مذهبه فى الاعتقاد بهذه العبارات الجامعة : « ان أشرف ما يكاشف به العبد ما يرجع الى معبوده تعالى من معرفته وما له من الجلال والجمال ومن أسماء علية وصفات سنية . . ثم ما يرجع الى حكمته فى مملكته ، ثم ما يرجع الى أحكامه من معرفة ما تعبد به عباده أصلا وفرعا وكل علم يعين على ذلك »

وهذا كلام يغنينا عن كلتفسير وتعليق ، فهو يوضح تمسك اليوسى بمذهب أهل السنة ، ووقوفه عند حد ما يامر به الله تعالى ورسوله ، واعتقاده أن العقل الراجح والطبع الصحيح هما وحدهما الموصلان الى الحقيقة .

وقد اتضح من خلال العرض الذي قدمناه أن اليوسي يقول بالموهبة التى يخص الله بها بعضا من عباده ، والمعرفة الصوفية ، فى نظره ، لا تتأتى الا بالعلم والجهد والمعاناة ، ولا يدركها الا من خصه الله من عباده وقليل ما هم .

وقد يقول بعضهم أن آراء اليوسى هذه ربما تتعارض بعض الشىء مع ما رأيناه من تصديقه للرؤيا وتعبيرها ، وتقبيله يد معتوه لم يكن يعرف حقيقته ، وقد يستنتج من ذلك أن سلوك اليوسى لم يكن دائما مطابقا لرأيه واعتقاده ، والحقيقة أنه يشترط فى الرؤيا الصالحة أن تكون من الرجل الصالح استنادا الى الحديث الشريف ، وكان والده — حسب شهادته — رجلا صالحا متدينا محبا للخير . أما مسألة تقبيل اليد فيمكن تفسيرها بما كان يقول به اليوسى من وجوب حسن الظن بالناس والتغافل عن مساوئهم مع الحذر والحيطة .

وكيفما كان الحال فان اليوسى ، وهو العالم المدرس ، كان يؤدي رسالته التعليمية بأمانة وصدق فيما يلقنه من دروس لطلابه وفى كل ما كتبه ولا سيما (المحاضرات) التى هى فى الواقع دروس جمعها المؤلف فى وقت انقطع فيه عن التدريس والتصنيف حينما كان مبعدا فى مراكش مفارقا لاهله وتلاميذه . الا أن هذه الدروس المجموعة فى كتا بـ(المحاضرات) تزخر بتأملات اليوسى فى بعض شؤون العصر الذي عاش فيه يعرض فيها الكثير من ذكرياته وتنقلاته ويدلى ببعض آرائه فى مسائل الادب والفقه والعقيدة والتصوف والسياسة وأحوال الدنيا .

واذا كان اليوسى قد أعرب ، بشيء من المرارة ، عن سخطه على العصر ورجاله ، حكاما وعلماء وعلمة ، فانه مع ذلك كان يؤمن بأن « هذه الامة المطهرة المشرفة كالمطر لا يدري أولها خير أم آخرها » وان « فى كل زمان سادة ، وفى كل قطر قادة » ،فهو،اذن،لم يكن يائسا من أمته يتوسم فيها الخير والصلاح على يد قادة مصلحين على أن يسود العدل الذي هو فى نظره روح العالم وأساس كل حكم صالح وأن تتغلب المصلحة على الشهوة والهوى فى الرياسة والقيادة وأن تقوم المساواة بين الناس مع تعليم المتعلمين ونشر العلم وكفاية أهله والسعي فى جمع الكلمة وخدمة الصالح العالم من غير طمع أو عتو أو استعلاء ، كل ذلك م الكفاية ومحاسبة النفس وصلاح النية .

وقد دعا اليوسى الى التدبر فى أسرار الكون واستخدام العقل لاكتشاف الحقائق العلمية ، وهو فى ذلك يقول : « ان الله جل اسمه . . . خلق العقل وجعل غذاءه العلوم والمعارف ، ويسر له الاستمداد من الموجودات . . . فما من شيء يبرز فى الوجود من السماء والارض وما بينهما الا ويمكن أن يكون للعقل فيه غذاء بحصول علم أو علوم . . . يجري ذلك فى الجواهر والاعراض وما لها من الكميات والكيفيات والاوضاع والهيآت » فهذه دعوة صريحة منه الى الاهتمام بالعلوم الطبيعية والرياضية واستخلاص الفوائد منها والسعى الدائم الى تطويرها وتنميتها ، وكذلك الامر بالقياس الى « أنواع الصنائع والحرف وأصناف الحيل » .

وكان اليوسى أديبا شاعرا ذواقة كثير الاستحضار لكلام العرب نثرا وشعرا ، حسن الاختيار يجيد استخراج الفوائد والعبر من الشعر والحكم التى يستشهد بها ويحسن الافادة منها فيما يرومه من تعليم ونصح وارشاد ، ومن أمثلة ذلك هذا البيت لامرىء القيس :

الله أنجح ما طلبت به   والبر خير حقيبة الرجل

فهو لم يتناوله من وجهة النقد الادبى الصرف ، بل وجد « أنه قد احتوى على مقتضى الشريعة الظاهرة والباطنة ، وتضمن كل ما تحصل من دواوين أئمة الدين وأقاويل الصوفية » فالشطر الاول « معناه أن ما طلبته بالله فأنت منجح فيه ، وهو كما قال فى الحكم العطائية : ما تعسر مطلب أنت طالبه بربك ، وما تيسر مطلب أنت طالبه بنفسك » والشطر الثانى « قد تضمن الشريعة كلها وهى أن البر خير ما تحمله العبد وادخره » .

وفى (المحاضرات) ، كما قلنا ، فصل طريف فى تذوق الصوفية معانى الابيات والاشارات وتأويلها حسب المقامات ، وقد أبدع فيه اليوسى اختيارا ورواية وتقريرا وشرحا . مثال ذلك أن انسانا أنشد بحضرة الشيخ مكين الدين الاسمر قول القائل :

لو كان لى مسعد بالراح يسعدنى

لما انتظرت لشرب الراح افطارا

الراح شيء شريف أنــت شاربـــه

فاشرب ولو حملتــك الراح أوزارا

فأنكر بعض الحاضرين على المنشد هذا القول الا أن الشيخ مكين الدين قال للمنشد : انشد فان هذا الرجل محجوب (يعني من أنكر عليه الانشاد) . فيعقب اليوسى أن المقصود بالراح هنا « الخمرة الربانية القلبية وهي لطف من الله تعالى ونــور يرد على القلب فاستعاروا له اسم الخمرة للشبه الواقع فــي اللذة والانفعال ، وهو الصهباء أيضا ، وبعد البيتين :

يا مــن يلـــوم على صهباء صافية

خــذ الجنـــان ودعني اسكن النارا

أي خذ جنان الشهوة وراحة النفس ودعني أسكن نار الشــوق وما يتحمله أصحاب ذلك . » فالعبرة اذن بالمعنى الذي يقع في نفس السامع اذا كان من الصوفية لا بالقصد الذي توخـــاه القائل حتى وان كان يفرغ الالفاظ في قالب معانيها الحقيقيـــة لا المجازية . وقد استشهد اليوسى ببيتين لابى نواس فـــي ممدوحـــه يقــول فيهمـــا :

تغطيت عــن دهري بظل جناحـــه

فعينـــي تـــرى دهري وليس يراني

فلو تســـأل الايـــام عني مـــا درت

وأيـــن مكاني مـــا عرفـــن مكانـــي

يقول اليوسى : « فكان هذا مشربا عندهم فى حق أهـل كهف الايواء . . . » مع أن أبا نواس لم يكن يقصد الى هـذا قطعا وكذلك الشأن فى بعض خمرياته كقوله :

اذا العـشرون من شعبان ولـت

فواصـل شـرب ليلـك بالنهـار

فالصوفية يرون فى هذا « موعظة فى الاكثار من العمل الصالح والتشمير للتزود للمعاد » . وللناس فيما يعشقـون مشـارب .

ويورد اليوسى أمثلة أخرى من أشعار العرب يكون فيها المعنى الذي قصده الشاعر قريبا مما يفهمه الصوفية منهـا ، ومثال ذلك قول عنتـرة :

وأغض طرفى ما بدت لى جارتـى

حتـى يـواري جارتـى مأواهـا

انى امرؤ سمح الخليقـة ماجـد

لا أتبـع النفـس اللجـوج هواها

يقول اليوسى : « فان هذا فى باب العفة والتحلى بمكارم الاخلاق فى الجملة صريح . وباعتبار الرياضة والمطلوب مـن التحلية والتخلية عند السالكين اشارة ، وهى كافية فى المقصود لأن مخالفة الهوى هو ملاك الامر كله ، ومثل هذا لا ينحصر فى

شعر العرب فقلما يخلو بيت أو أبيات من معنى أو معان ، فان الحكمة قد أنزلت على ألسنة العرب » .

ويأتى اليوسى بهذا البيت المشهور لأبى الطيب المتنبى :

لك يا منازل فى القلوب منازل
أقفرت أنت وهن منك أواهل

فيقول : « يفهم منه سوى مقصود الشاعر أمور منها : ان المنازل هى مظاهر الكائنات كلها ، والقلوب قلوب أرباب الاعتبار والاستبصار ، فيقول ان لهذه الحوادث فى قلوبهم منزلة من الحدوث والافتقار الى الفاعل المختار يتعرفون بها وجود الله تعالى وما له من الاسماء والصفات العلية ، فهى مقفرة داثرة فانية ، والقلوب عامرة منها بالتوحيد » .

وفى (المحاضرات) أيضا فصلان ضمنهما اليوسى طائفة من أبيات المعانى عند العرب مع شرحها .

ولن أتحدث عن اليوسى الشاعر فهذا موضوع سيلجه ولا شك من هو أقدر منى على ذلك ، غير أنى رأيت من الفائدة أن اختار فقرات من كلام اليوسى اما لجمال أسلوبها أو لما تتضمنه من آراء وتأملات فى مسائل اجتماعية وانسانية أو لما تنطوي عليه من حكمة ونظر صائب :

الانسان والتمدن

« ان الانسان انما احتاج الى التمدن للقيام بالمتاجر

والحرف وسائر الاسباب التى ينتظم بها أمر المعاش والتعاون على المنافع الدينية والدنيوية ، ولا يتأتى ذلك عادة الا بكثرة الناس لتحصل عمارة الاسواق ، ويحصل من كل حرفة وصناعة وسبب وعمل عارف أو أكثر يقوم بها » .

« ولما كانت المدينة تجمع أخلاط الناس صار ساكنها فى الغالب غريبا عن نسبه ، فقد لا يكون بينه وبين جار بيته نسب ولا معرفة ، فاذا نشأ نسله انتسبوا غالبا الى البلد لا الى قومهم » .

« أنّ نسب الانسان الاصلى هو الطين . . . ثم لكل فرد منه بعد آدم أصل آخر وهو النطفة . . . نعم ، يشرف الانسان بخصوصية تزداد على جسمه الطينى كالعقل والعلم والدين مثلا ، فيثبت لـ ه الفضل ويثبت لبعض على بعض » .

« وأما التراب فهو مهاد الانسان وفراشه حيا وكفنه ميتا ، ثم هو منبع الماء الذي به الحياة ، ومنبت الزرع وجميع الاقوات للانسان وغيره من الحيوانات ، ومنبت العقاقير التى بها الاستشفاء ، والمعادن التى بها قوام العيش والتى بها التعامل . فمنافعه لا تحصى ، وليس فيه من المفاسد والمضار الا ما هو تافه يضمحل فى جنب المصالح والمنافع » .

ميزة الانسان وأصناف الناس

« والانسان لفظ واقع على آدم وعلى ذريته أبدا اسما

للقدر المشترك فيه ، وهو الحيوان الناطق أي المتفكر بالقوة ، والآدمى كله مشترك فى هذه الفضيلة ، ولذا سخر له غيـــره ، وابتلى هو بالتكليف بمعرفة الخالق تعالى وبعبادته ، وهـــذه مزية أخرى لجميعه . وقد خصه الله تعالى فى أرزاقه وفى خلقه وفى خلقه وفى لباسه وركوبـــه » .

« الناس ثلاثة : رجل كان أصيلا ثم قام هو أيضا يشيـــد بنيانه ويحوط بستانه كالذي قبله فهذا أكرم الناس وأولاهم بكل مفخر . ورجل لا أصل له ينتمى اليه ، ولا حسب يعـــرج عليه ، ولكن انتهض فى اقتفاء المآثر ، وانشاء المفاخر حتـــــى اشتهر بمحاسن الخلال ، وصار فى عداد أهل الكمال . . . فهذا أحرى من أن يشرف بوصفه وحاله ، وان يشرف به مـــــن بعده . . . ورجل له أصل قديم وشرف ثم لم يبنه ولم يجدده ، وهو اما أن تخفى عوامله فلم يبن ولم يهدم . . . والمـــراد أن يرجع الى غمـــار النـــاس » .

بقاع الارض ومظاهر التفاوت بينهـــا

« ان بقاع الارض كأفراد الانسان ، وهى كلها مشتركة فى كونها أرضا وتربة ثم تتفاوت فى المزايا الاختصاصية اما مـــن ذاتها بأن يجعلها الله تعالى منبتا للعشب ، وهى أفضل مـــن السبخة ، أو مزرعة وهى أفضل من النكود ، أو سهلة وهـــى أفضل من الحزن ، وقد ينعكس الامر ، أو معدنا وتتفاوت بحسب الجواهر المودعة فيها ، أو منبعا للماء ، وتتفاوت بحسب المياه ،

الى غير ذلك من مختلفات الفواكه والاشجار والازهار وسائر المنافع ، واما من عارض كأن يختصها الله تعالى بكونها محلا لخير : اما نبوة بينة ، ، واما علم ، ، واما زهد أو عبادة ، ، أو ملك أو جود أو نجدة أو جمال أو خلق حسن أو غير ذلك ، حتى رخاء العيش وصحة الهواء ، فكل ذلك ونحوه يكون به الشرف والاشتهار ، كما يكون الاشتهار فى النقصان والمذمة بأضداد ذلك» .

تعظيم العلم

« كنت فى أعوام الستين وألف مرتحلا فى طلب العلم فدخلت قرية فى أرض دكالة فرأيت فيها رجلا مسنا قد لازم المسجد منقطعا عن الناس فجلست اليه مستحسنا لحاله ، وفى الحديث : اذا رأيتم رجلا قد أعطى زهدا فى الدنيا وقلة منطق فادنوا منه فانه يلقن الحكمة . فلما دنوت منه اذا هو يعظم العلم وأهله تعظيما بالغا ، فازددت به عجبا ، فكنت أجلس بين يديه ويحدثنى ويصبرنى على الغربة ويحضنى على العلم . . وأنشدنى بشأن الغربة ملحونا :

أنا الغريب المتوح صابر على كل هانا
الى ننجرح ما نقل أح فى قلب من قطعت أنا »

قصور العقل

« لما كان العقل أيضا معرضا للخطأ وللقصور عن كثير من

المصالح ، وللجهل بكثير من المدارك ولا سيما المغيبات ، لان النقصان شأن المخلوق ، افتقر هو أيضا الى مؤيد : اما الى الهام من الله تعالى ، واما عقل آخر أكمل كما في حال التربية وتلقين الحكمة ، واما وحي سماوي وهو أكمل ، فأنزلت الاحكام وشرعت الشرائع ، وانتسبت الاحكام اليها عند أهل الحق لا الى العقل ، فصار العقل مؤيدا للشرع ومتأيدا به » .

النفس والنعمة

« النفس انما تجد النعمة ما دامت متناولة لها ، فاذا انقطعت عنها تكدرت كالصبي الراضع متى صرف الثدي عن فيه صاح » .

التدوين والاسناد عند المغاربة

« كان من دأب شيخ مشايخنا أبي عبد الله محمد العربي بن أبي المحاسن يوسف الفاسي أنه متى لقي انسانا يسأله من أي بلد هو ، فاذا أخبره قال : من عندكم من أهل العلم ؟ من عندكم من أهل الصلاح ومن الاعيان ؟ فاذا أخبره بشيء من ذلك كله سجله . وهذا الاعتناء بالاخبار والوقائع والمسانيد ضعيف جدا في المغاربة ، فغلب عليهم في باب العلم الاعتناء بالدراية دون الرواية ، وفيما سوى ذلك لا همة لهم » .

النيـــة والعمـــل

« فانو أنت أيضا ان لو كانت لك قوة على اظهار الشريعـة واحياء السنة واخماد البدعة وحسم الباطل واغاثة الملهـوف ونصر المظلوم واقامة ميزان العدل واصلاح العباد والبلاد ، عسى أن تنال بهذه النية خيرا » .

كلام الحجـة حجـة

« قد جرت عادة من ألف بل من كتب برسالة أن يتسمى فى كتابه ليعرف ، وفى معرفته فوائد منها : أن يعرف مذهبه أو مطلبه ليتمكن جوابه أو يشهد له أو عليه . ومن أهمها أن يعلم هل يوثق بنقله وعقله ويقتدى به فى أصله ، فان كلام الحجـة حجة ، وانما يعرف كونه حجة ومرتبته من العلم بشهادة أهل العلـم » .

***

وبعد ، فان أبا على الحسن بن مسعود اليوسى علم مـن أعلام بلادنا ، وهب نفسه للعلم والتعليم وتلقى جل ما تلقـاه من علم فى بوادي المغرب لا فى مراكز العلم التقليدية بالحواضر فدرس فى زاوية الدلاء قريبا من تادلا ، كما تلقاه فى درعـة وسجلماسة ، وربما بدأ تعليمه الاولى فى قبيله (آيت يوسى)

بملوية قبل أن يشد الرحال الى أقاصي البلاد ، وهذه ظاهرة تستحق من الباحثين كل العناية . وقد خلف اليوسى ذخيرة من المؤلفات والموسوعات فى شتى أصنا فه المعارفه ، وما يزال معظم مؤلفاته مخطوطا ، وبعضها مفقود ، وأعتقد أن اليوسى لم ينل لحد الآن من الدارسين والباحثين العناية التى يستحقها بحكم المكانة العلمية التى احتلها فى حياته وبعد مماته .

وقد تعرفنا من خلال (المحاضرات) على ملامح من شخصية اليوسى وتفكيره وسلوكه على أننا كنا فى ذلك مقصرين بعيدين عن بلوغ الغاية التى توخيناها من هذا البحث .

ويمكننا أن نقول بايجاز ان اليوسى كان اماما وكان كاتبا وشاعرا ومحاضرا ، وكان ميالا الى علم التصوف عارفا برجاله وكتبه .

وكان اليوسى جوالآ دقيق الملاحظة مطلعا على أحوال عصره ، شجاعا فى ابداء رأيه لا يميل الى المداهنة والرياء ، وكان شديد التمسك بالكتاب والسنة مطلعا على علومهما معتدا بميزان العقل فخورا بثقافته العربية الاسلامية ، وهو بذلك مثال حى من أمثلة الاصالة المغربية التى تتجلى فى هذا التمازج الرائع بين أبناء مازيغ ويعرب فى ظل الاسلام الخالد ، هذا التمازج الذي صهر المغرب فى بوتقة الاتحاد ووحدة الانتماء : اتحاد الدم والوجدان والمشاعر والغايات ، والانتماء الفكري

والروحي والعضوي إلى الامة العربية الاسلامية الكبـــرى . وعسانا أن نحافظ على ذلك ونقويه في اطار التجديد والانبعـــاث والسير بثبات وثقة نحـــو المستقبـــل .

الربـــاط محمد العربي الخطابي

الإمام اليوسي

(1040 - 1120)

في حلله ومباذله

عبد الرحمن الفاسي

طلب العلم في البادية والحاضرة ، بالصحراء وبالساحل، وبالسوس وببلاد البربر ، فاجتمع له من عناصر ثقافة العصر التي نفقت بعض فروعها في تلك الآفاق ، حتى امتلأ منه الوطاب.

ومن حياض حضرة الدلاء في احضان الاطلس الصغير ، عب ونهل ، وزاوية الدلاء يومئذ موئل رجال العلم عندما غاضت في أرض المغرب حياضه ، وتعطلت بتوالي الفتن حلقاته ، وانهار صرح الأمان ، وصفرت ارجاؤه ، فانتهت الى تلك الحضرة الدلائية رواغد علمية من كل صوب ، وتناثلت على ساحتها ارتال الطلاب من كل جهة .

وبعد عشرين حجة كاملة بتلك الديار في الدرس والتحصيل ، وفي الاقراء والافادة والتلقين ، استوت بعدها مقوماته في العلم، وصقلت ادواته في البيان واللسن ، حتى ادرك بهما مشيخة

أيضا فى مضارب أهل « كيكو » ، وهم أهل وبر على قرب قريب من مدينة صفرو المستشرفة الى فاس :

وبحكم هذه العراقة فى البداوة كانت تـثـب من لسانه وتصرفاته فى بعض المقامات بادرة غلاظة ، وتشمخر قناتـه على جفاوة ، فما الانتها فضلة علم تهيأ له ، ولا طراوة مرع فيها ، ولا انسية روحيين اغترف من نبعهم شابا وشيخا ، ولقد استهلت حياته صارخة فى العاصمتين باحدى تلك البدوات ، وكادت تلوي بمصير مستقبله عن مجراه ، لولا وجهته العلمية التى شفعت له ، ومروءة أهل الحاضرتين التى تجاوزت بالاغضاء عن تلك الفرطات وأغضت عن الوشلات .

وهكذا نلتقى به عند قدومه فى اعوام الستين والألف لطلب العلم بالزاوية البكرية ، وهو يومئذ طري العود عطري الثقافة ، ومن فتوته على غرارة ، فقد دخلها وهو ينتفج ضيالابمسكة من العربية أخذها من بلاد القبلة ، وبما شذا بمراكش من نتف فى الاصول ، والمنطق ، والكلام وشذور من فنون أخرى لا تسمن ولا تغنى فى الدلاء دارة العلم الكبرى ، فقد اتفق لدى دخوله الزاوية ان وجد نفسه وجها لوجه امام الشيخ أبى عبد اللـه المرابط (1021-1089) المذكور ، وهو أحد ابناء القطب الشيخ أبى عبد الله محمد (فتحا) امام الزواية الدلائية فى العلم والولاية وشمس انوارها ، وسادنها بعد ابيه ابى بكر ، مؤسسها ، ومؤثل أمجادها ، وقد امتاز أبو عبد الله المرابط بالامامة فى المعـقـول والمنقول ، وبحظ وافر ، فى العربية ، واللغة ، والآداب ، وبما

أقرأ وأفاد ، وبغزازة شعرية ، وببراعة نثرية ، فيما رصع من خطب تعالت بها المنابر ، وبما رصف من رسائل ازدانت بها الدواوين . ثم هو بعد ، احد القلائل الذين سارت شهرة آثارهم العلمية فى المغرب والمشرق مسير الشمس ، وطارت فى الاشادة بامامته أشعار أهل الغرب والشرق (5) .

وتلك هى مكانة ابى عبد الله المرابط ، عالم الدلاء ، الذي كان للطالب اليوسى معه اول لقاء ، وكادت تشوبه شائبة جفاء ، حسبما يفهم من القصة ، كما حكاها اليوسى نفسه فى كتابه « المحاضرات » ، على سبيل المباهاة ، فقال : (6)

(فدخلت الزاوية البكرية فوجدت شيخنا أبا عبد الله محمد ابن محمد المرابط رحمه الله قد جمع خطبا وعظية ، وتقدم الى أهل الوقت فى بلده ليكتبوا عليها تقريظا فكتب كل ما قدر له من نثر ونظم ، فلما رأيت ذلك ، كتبت أنا أيضا ، فوقع فى مكتوبى لفظة القطائف ، فاعترض على ورام تبكيتى ، وقال انا لا نعرف القطائف الا هذه المفروشات ، فقلت له ان القطائف هنا جمع قطيفة بمعنى مقطوفة ، فقال هو صحيح فى اللغة ولكن الادباء لهم الاختيار وعندهم ألفاظ يستعملونها مخصوصة فلا يرتكب عندهم كل ما يقع فى اللغة ، فقلت له حينئذ هذا أبو محمد الحريري يقول فى مقاماته :

---

5 — انظر ما يتعلق بشهرته فى الشرق ، كتاب : « البدور الضاوية » ، لسيدي سليمان الحوات . وقد اورد فى ترجمته مجموعة كبيرة من مختارات شعره ورسائله .

6 — ص : 141 — 142 .

فلا تعذلوني بعدما قد شرحته
على أن منعتم في اقتطاف القطائف
على أن ما زودتم من فكاهة
ألذ من الحلوى لدى كل عارف

فتلون وجهه رحمه الله ، وخجل ، ولم يراجعني بكلمة ، فلولا معرفة المقامات واستحضار هذا البيت ، لاخجلني عوض ما كنت أخجلته) .

وواضح ان الشيخ اليوسي ظل على وهمه في الانتصار ، وعلى تتالعه بالمباهاة ، حتى عند تأليفه « المحاضرات » ، فلم يتوفق مع مضي الزمان الى ما رمى اليه الشيخ من التفاتة شعرية في ذلك المقام .

لقد حسب التلميذ أن الشيخ فاته ان القطائف جمع القطيفة بمعنى المقطوفة ، وهذا ينم على ان هذا منتهى ما كان ينظر اليه الفتى لدى وصوله الى الزاوية ، ولما لفت الشيخ نظره بما يفيد ان الامر يتجاوز هذا الى ملحظ اللغة الشعرية ، احتج عليه من كلام الحريري بقافية ، ونسي ان المعانقة بين كلمتي القطائف واللطائف طلبا للجناس هي نفسها الآفة بين الكلمتين حتى في صياغة صاحب المقامات ، وان الجمع بينهما بما اجتمع فيهما من طائين ، قد أطفأ وضاءتها الشعرية ، كما هو واضح في الابصار والاسماع ، ولولا الجناس ، لظلت شعرية الكلمة قائمة الذات ، ومن ثم كان قبول صناعة البديعيات اللفظية منوطا بأكثر من عيار وقياس ، ثم ان الحريري ــ وهو طالب صناعة ــ ليس بحجة على اي حال

فى مثل هذا المقام ، وذلك ما خفى على الطالب الفتى ، وحمل الشيخ على أن يتغاضى ويفسح له فى الانتعاش ، ليستقبل دراسته بتفتح ونشاط .

وفى ظلال هذه الرعاية ، قضى فى زوايتهم عشرين حجة ، نهل فيها من حياض علومهم ، وانتفع بجمهرة الاعلام الذين كانوا يحجون الى رحابهم ، وتأهل وأنجب فى ارضهم ، واقتدى فى كل ما يأتى ويذر بهديهم ، وسير رجالهم ، واصبح الطلب الموصول بالاقراء ، والاخذ المقرون بالعطاء ، قربى علمية أفاءت عليه بجميع مقومات معرفة اهل الدلاء ، وبمسالكهم الى سبيل اولياء الله .

وعد عن مختلف فروع المعرفة بمعقولها ومنقولها ، التى كانت رائجة فى تلك الحلقات ، وماثلة فى حلتها الاسلامية نسيجة العلم والعمل والعقيدة ، فقد كان لها فى علم الادب وعلم التصوف مجالس مشهرة ، وبرامج مقررة ، أصلت لثقافتهم سماتها الخاصة بها ، وهى نفس المقومات العلمية والتربوية التى تأثلت للزاوية الفاسية ، وأتاحت للزاويتين تقارض الاخذ والعطاء ، ولن يستطيع أي باحث أن ينكر تأثير البرامج الادبية لمدرسة الدلاء فى مدرسة فاس ، فبه تكاملت لاعلام العصر من تلامذة المدرستين ، تلك المقومات ، وطبعت آثارهم بتلك السمات ، ومن اليسير أن نستجلى من القسمات الواضحة لمدرسة الدلاء عنصر أدبها الذي كان له حظه الاوفر فى البرنامج الاصلى للتلعيم، منذ قيام الزاوية فى أوائل القرن العاشر ، والمعروف أن « الكامل » للمبرد ، و « أمالى القالى » ، و

« مقامات الحريري » ، كانت من صميم مواد الدراسة فى منهاج الدلائيين ، وان فهارس واجازات أعلام العصر ، لتعرض علينا أسانيد موصولة بأصحاب دواوين الأدب الكبرى وغيرها ، مما يدخل فى علوم الادب المصطلح عليها ، كالقالى ، والمبـرد ، والجوهري ، والحريري ، والخزرجى ، والبصيري ، وغيره من أصحاب الامداح والمقصورات فى الادب العربى .

أما الوجهة الصوفية ، والعلوم اللدنية ، فأنوار معارفهـا هى التى أضاءت ذلك الصرح فى بداية الامر ، فأهطع اليـــه المريدون من كل حدب وصوب .

ولقد كانت سماتها ماثلة فى الاساس ، ومنذ نقطـــة الابتداء فى وجهة التصوف ، الذي أخذوا به نحلة شاذلية ، ثــم نظريات دراسية ، فكانت رسالة القشيري ، وحكم ابن عطاء الله ، مما يتدارس فى تلك الحلقات ، وليس من شك فى أن الركون الى الشاذلية ، قد حمى ذلك الحمى من مزالق وحدة الوجود ، ومن المتشابه فى الحكم العطائية الساجعة بوحدة الشهـود ، وكان ابن عطاء الله يلتقى فى ساحتهم مع الامام ابن تيمية (7) وان فرقت بينهما النحلة ، واستشرت بينهما فى الديار الشرقية

---

7 ـ لقد خلط ابن تيمية بين آراء الشاذلية وبين ابن عربى ومدرسته ، كما اختلطت عليه وحدة الشهود بوحدة الوجود عند ابن عطاء الله الذي ينفى كل صفات الحلول عند تحدثه عن وحدة الشهود والذي يقول: « الاكوان ثابتة باثباته متحدة باحدية ذاته » انظر الحكم ج ، 2 ص : 89 ، وانظر الرسائل الكبرى لابن تيمية ج 1 ، ص : 154 .

البغضاء والقطيعة ، وذلك أصل الجمع عند تلامذة المدرستين الدلائية والفاسية بين التصوف السني ، وبين الحكم العطائية التي تدارسوها واستظهروها ، واستجازوها ، وبالرواية والاسناد أجازوا بها ، وذلك من مظاهر عنايتهم بفروع العلم صغيرها وكبيرها .

والظاهرة التي تسجل في المقام ، هي أن محصول أبي علي اليوسي في طريق القوم ، أو محصوله من علم الباطن – كما يقال – قد كانت له مسالكه وبواكيره في مهاد تربيته الاولى منذ صباه ، وقبل أن يشرئب الى أفق الدلاء في مطلع الشباب ، فهو يذكر في الفهرسة أنه ما كاد يستظهر القرآن حتى توجه به والده لزيارة الولي الصالح أبي يعزي (8) ويذكر في السياق نفسه أنه استفاد من مجموع لمعلم القرآن كان يحتوي على حكايات الصالحين ، كأويس القرني ، وابراهيم بن أدهم ، والخواص ، فانتشرت تلك المآثر في عقله ، ووقعت حلاوتها في قلبه ، فكانت من ثم بداية انعام الله عليه بالطريقة ، والتسليم لأهل تلك الشريعة .

كما أن بداية صحبته واتصاله بالشيخ الامام الحافظ ، الجامع ، الزاهد الناسك ، أبي عبد الله محمد (فتحا) الدرعي ، صاحب الزاوية « بتامكروت » (9) (ت. 1085) سبقت التحاقه

---

8 – دفين « تاغيا » من قبيلة زيان باقليم خنيفرة اليوم .

9 – باقليم ورزازات ، وولده وخليفته بالزاوية ، ووارث سره هو الشيخ الامام أبو العباس أحمد ، صاحب الرحلة الحجازية المعروفة بالرحلة الناصرية .

بالزاوية البكرية ، وقد كانت معارف شيخه الناصري ، لا تقف عند النهل من عين الحقيقة ، ولكنه ارتوى من علوم الظاهر ، فدرس وألف ، مع الضبط والاكباب ، ونفع طلبة الباطن والظاهر ، على السواء ، وكانت له الى الحجاز رحلتان لقبل الخلق فيهما على صحبته بالمشرق ، مثلما تهافتوا عليها فى المغرب ، وقد اعتمده أبو على اليوسى فى الميدانين ، وقال عنه فى فهرسته : (وهذا الشيخ هو الذي أخذنا عنه العهد والورد ، واليه ننتسب ، وكل من نذكره سواه ، فعلى طريق انتفاع ما) .

ومع ما هو معروف من أن شيخه ابن ناصر كان ملازمـــا لدراسة الحديث ، فان اليوسى الطالب المريد ، اقتصر فى الاخذ عنه بالنسبة لعلم الظاهر على علم العربية ، وللشيخ الناصري فى هذا المجال تمكن ورسوخ ، تمكنه من متن اللغة ، فكـان لا ينقطع عن نسخ القاموس ، حتى ليصح قول من قال ، انه كان من أيسر محفوظلته ، مثلما كان يستظهر التسهيل لابن مالك ، ويصوغ القواعد النحوية صيـاغته للحقـائق اللـدنية ، كما حضر عليه فى درس التفسير و « الصحيح » و « الشفـا » و « المدخل » و « الاحياء » و (طبقات الشعراني) ، وأحسب أن طالبنا المريد ، قد أكب على مورد الباطن ، حتى ارتوى وثمل ، وأخذ يبدو له من واقعاته فى الحضور والغياب مع شيخه ، أنه ورث عنه تلك الرسالة وانفرد بالخصوصية (10) ، وكان شـأن اليوسى مع شيخه المرابط الدلائي ، على نحو من اختيار ظاهر

10 — انظر « نشر المثاني » ، ج : 2 ، ص : 19 ، ط : الحجريـة .

أيضا ، فمع ان شيخه المرابط الدلائي كان من أهل التصوف ومن أئمة تدريس الحديث ، فان طالبنا الفتى انما خف الى مجالسه في العربية والمعقول ، واقتصر من مجلس التفسير على بعض الدروس ، وهو ينظر في ذلك قطعا الى أن علم المعقول قد انتهى اليه من غير خلاف ، وقصب السبق في العلوم اللسانية ملك يديه، وللشيخ اليوسي شهوات قاهرة ، ان في عهد الطلب أو الاستاذية.

واذا كان يبدو من طريقته الصوفية أن ليس فيها عن الدلائية أخذ ، ولا ورد ولا عهد ، فان عهد الشاذلية يجمع بين الزاويتين ، والطريق الدلائية اليها لاحبة من جهتين ، فمن المعروف أن الامام أبا عبد الله ابن ناصر عمدة اليوسي ، الذي أخذ عنه الورد والعهد ، واليه انتسب ، يسند عهده عن الشيخ عبد الله بن حسين الدرعي ، عن أبي العباس أحمد بن علي الحاجي ، عن أبي القاسم الغازي عن أبي الحسن علي بن عبد الله السجلماسي عن الشيخ أحمد بن يوسف الراشدي عن الشيخ زورق ، وسند هذا الى أبي الحسن الشاذلي معروف ، وكما أن للسادة الدلائية اتصالا بأبي الحسن الشاذلي بواسطة الشيخ محمد بن سليمان الجزولي ، وذلك من طريق أبي بكر شيخ الزاوية الدلائية ، ومن طريق الشيخ عبد الله بن حسون دفين سلا ، ومن طريق الشيخ محمد البكري الصديقي المصري، ثم من طريق الشيخ أبي المحاسن يوسف الفهري الفاسي فان لهم أيضا اتصالا بواسطة الشيخ زورق عن طريق الشيخ أبي المحاسن الفاسي ، وذلك أن شيخه المجذوب ، كما روى عن أبي حفص الخطاب عن أبي فارس عبد العزيز التباع عن الشيخ سليمان الجزولي

كذلك روى (عبد الرحمن الجذوب) عن أبى الحسن على بن أحمد الصنهاجى الملقب بالدوار ، دفين خارج باب الفتوح ، وهذا عن الشيخ ابراهيم الحجام (صاحب المزارة بجبل زرهون) عن الشيخ زروق ، وبهذا شارك الامام اليوسى شيوخه الدلائيين فى الانتساب الى الطريقة ، وفى المسلك الى دليلهم لعين الحقيقة ، واذا كان اليوسى قد سجل اعتداده بشيخه الناصري بعبارات يتجلى فيها القصد والعناية بذكر المبدا، والمنتهى معذلك الشيخ، فان عشرين سنة فى صحبة أولئك الدلائيين ، المعروفين بالنسك والصلاح ، وتربية المريدين بالنصيحة والتلقين ، لمن شأنها أن تفتح البصائر ، وتبذر الكمال النفسى فى البارح والسانح بتلك المناهل ، فلا مناص من تسجيل دلائيته الروحية الى جانب تلك المواهب الناصرية .

وهكذا ففى غمرة من جلال دلائية علم الظاهر والباطن، وجمالية فنون أدبها الباهر ، تلقت حاضرة فاس الامام اليوسى عالم الدلاء وفسح له السلطان الشريف المولى الرشيد،مثلما فسح لسادة أعلام الدلاء ، فى الرعاية والاعتبار (فأقبل عليه الناس اقبالا عظيما فكان حيثما قرأ أطبق الناس عليه) ، (وتزاحمت الركب على بابه مثنى وثلاث) (11) .

وقد كان الامام اليوسى حقيقا بهذا الاقبال لحذقه الصناعة فى التدريس ، وانهمار عارضته فى المجلس بالانشاد ، وبالتحقيق

---

11 ــ « نشر المثانى » ، ج : 2 ، ص : 142 ، ط : الحجريـــة .
ــ « صفوة من انتشر » للافرانى ، ص : 207 ، ط : الحجرية .

ولكنه لاحظ أن أعيـان فاس ، لم يقبلوا على حلقته بجمعهـم ، ولم يتهافتوا على ما جاءهم به بأكتعهم وأبصعهم ، فاستهـل عهده في فاس ببادرة غلاظة ، أربت على بادرة الدلاء بالانشاد ، وبافاضة اللسان ، فقال مشبها حاله وحال فاس وأعلامها ، من غير احتراس :

مـا أنصفـت فـاس ولا أعـلامهـا
علمـى ولا عـرفـوا جـلالـة منصبـى

لـو أنصفـوا لصبـت الـى كمـا صبـا
راعـى سنـين الى الغمـام الصيـب

وهكذا ، فقد نظر في الشطر الثانى من بيته الى قول الشاعر :

وحـديثهـا كالقطـر يسمـعـه
راعـى سنـين تتابعـت جدبـا

فهو ـ كما ترى ـ قد جرح بعنجهيته علماء فاس بتتابـع الجدب ، والحاح المحل ، الى أن انهمر عليها من علمه ذلك السيل، وكان من حق أهلها أن ينسجموا مع طبيعة الاشياء ، ويتتالعوا بأعناقهم اغتباطا بهذا الصيب الهتان ، وكذلك انتفخ اليوسى بغير قياس ، وانتفج بالانانية والكبرياء ، وحسب أن الدلو هنا من تلك الدلاء ، ولكن سرعان ما بدهه الجواب على نفس الروى والميزان:

بـل أنصفـت فـاس ومـن انصافهـا
أبـدا سقـوط المدعـى والمعجـب

تنفـــى الدجــاجــل عــاجــلا أو آجـــلا
منهـــا ، فهـــى طريـــدة مـــن يثـــرب

وكان الجواب صادرا عن أبى زيد عبد الرحمـان الفاسـى (1040 — 1096) ، الملقب بسيوطى الزمان ، أصغر أنجـال الامام ، أبى البركات وأبى محمد عبد القادر الفاسى (1007 هـ — 1091) ، وأبو زيد يومئذ فى ميعة صباه ، والشعر على لسانه جلوة اندفاع ، فلسعت أبا على قولته الشائنة بالتدجيل ، فهب كالعاصفة يترنح أمام الشيخ عبد القادر بالتشكى والتهويـل ، ولكن الامام الوالد عبد القادر ، وله رجاحة الشيوخ ، وفراسة الاولياء ، وملكة الافتاء فى ما ينزل بالناس من أقضية ، وبما يعن من شؤون وأحداث ، أجابه من غير مقدمة أو اعتذار : ان البادى أظلم ، وأنت أزلت عنك جلباب الوقار ، وبخست مقدارك بتصديك لمعارضة الاحداث ، واصغائك لمقال من لا يساويك فى علم ولا لسن بحـــال .

وأحسب أن صوت العالم الشاب أبى زيد الفاسى فى قصة الامام اليوسى ، قد ألصقها فى أذهان الناس بصراع النفـــوذ العلمى بين اليوسى وبين آل الفاسى ، واستمرأ صاحب فهرسة الفهارس (12) الجنوح الى هذا المعنى فقال : (ان اليوسى ألف كتابه « المحاضرات » (بسبب ما كان وقع بينه وبين أبى زيد عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسى ، رحمهم الله ، لما افتتح التفسير بالقرويين) ، فى حين يلاحظ أن صاحب نشر المثانى قد

12 — الجزء : 2 ، ص : 449 .

سجل فى ترجمته أنه ألف المحاضرات (كالجواب عما أجاب به بعض أهل فاس عن بيتيه السابقين) ولم يركز ، على الامام أبى زيد الفاسى صنع صاحب الفهرسة والواقع أن درسا واحدا مـــن املاءات أبى على اليوسى ، كان كافيا للتعريف به ، وتعبير علمه ، بالمقياس الدقيق السليم ، فما به من حاجة الى تاليف ، ليدل بفيضه على ما آتاه الله من علمه ، لاسيما وليس فى كتـــاب « المحاضرات » أي تلميح لمعارضة ، أو لحسد ، أو غبطة ، فكيف بالتركيز على هذه القصة ، بل ان كتاب « المحاضرات » ، يمتاز بليونة العطاء ، امتيازه بسجاحة البيان والاداء ، حتى انه لـــم يحجم فيه عن الاعتذار عن البيتين بقوله : (لكن للنفس فرطات، ولا بد لها أحيانا من سقطات) .

وما كان فى وسعه غير ذلك بعد أن طالع الشيخ عبد القادر بما فرط من أبى زيد ولده ، وحداه أدبه وادراكه ، الى أن يعتبر القضية منتهية ، وبكلمة الشيخ عبد القادر مطوية ، فقد قطعت على الطرفين ما يوسوس به الجنان ، أو يجري على أسنة الاقلام، ولو أنه بقي شيء فى نفس اليوسى ، مما تراشق به مع أبى زيد، لطما على لسانه فى قافية ، أو وثب الى متن احدى رسائله ، أو كتبه السائرة ، ولكنه كان صادرا فيما أتاه عن معرفة وتقدير لمقام الشيخ عبد القادر ، وأهله ، وهو الذي أهطع الى الاخذ عن الشيخ ، بعد الذي فاته فى حلقاته ، فاستفاد منه بالمحاضرة والمذاكرة فى مجالسه ، وعقد معه عهد مودته واخائه ، ثم هفا الى طلب اجازته فأجازه ، كما عرفنا قبل مما حلاه به ، واعتد اليوسى اعتدادا بهذه المشيخة ، فسجلها فى فهرسته ، وفى آخر

محاضراته ، وفى الكتاب الذي قدم به التعزية عند وفاة الشيخ عبد القادر الى ولديه ، أبى زيد ، والامام أبى عبد الله محمد (فتحا) شقيقـــه .

وفى خطابهما يقول : (13) : (الى البدرين النيريـــــن ، والبحرين الزاخرين ، والدرتين الفاخرتين ، والهضبتين الشامختين ، والامامين المحترمين الفاضلين ، أبى زيد عبد الرحمن ، وأبى عبد الله سيدي محمد (فتحا) ، ابنى الامام الهمام ، نخبـــة الليالى والايام ، شيخنا أبى محمد سيدي عبد القادر بن على الفاسى ، سقى الله ثراه ، سلام على ساداتنا ورحمـــة اللـــه وبركاته ، وعلى من احتوت عليه تلك الاندية العاطرة الرائقة ، من فروع شجرتكم المباركة الفائقة ، وسائر من احتوت عليه تلك الزاوية الكريمة من الاخوان الملازمين المحبين الزائرين).

وبعد فقرات من هذا القبيل ، يقـــول :

مصاب لو أن الارض نـــال أديمهـــا
لمـــا أنبعـــت نهـــرا ولا أنبتـــت زهـــرا

ولو أن آفاق السمـــاء أصابهـــا
لما أطلعت شمسا ولا أنزلـــت قطـــرا

---

13 — انظر النص الكامل لكتاب تعزية اليوسى فى ترجمة أبى البركات وأبى السعود الشيخ عبد القادر الفاسى فى الجزء الثانى من كتاب « نشر المثانـــى » .

الى أن يقول فى الاخير : (نسال الله أن يجبر بوجودكم ثلمه ، ويخلف بعلومكم علمه ، ويفتح أبواب الهداية بمستقيم منهاجكم ، وينور أرجاء الديانة بمضىء سراجكم ، فما ضـــل بعون الله ، من كان له مثل ذلك الشيخ سلفا ، ولا هلك بحول الله من كان له مثلكم خلفـــا) .

وبعد الكلام فى رسم التعزية والاعتذار عن التقصيــــر ــ على حد قوله ــ فى ما يجب للمقام ، ختم خطابه بهذا المقال : (والمطلوب من كمال سيادتكم أن تتحفوا هذا العبد الظلوم لنفسه بدعوة فى ذلك المجمع صالحة ، من قلوب حاضرة) .

وهذه نفثات تدل على طوية حسنة ، وقلب سليم ، لم يكن لينطوي على ما يكدر سريرته تجاه أبى زيد الفاسى ، وقبيله ، ومما يشهد لذلك ، أنه بادر الى نصرة الامام الحافظ الضابط ، أبى عبد الله محمد المهدي الفاسى ، مؤلف « النبذة اليسيرة واللمعة الخطيرة فى مسالة خلق الافعال الشهيرة » ، وهو أحد المؤلفـــات التى رد بها على سقطات الشيخ أبى اسحاق ابراهيم الكــورانى الشهرزوري المدنى (1025 ــ 1101) .

ومن الملاحظ أيضا أن الامام الفاسى ، صاحب التآليـــف المذكور ، كان يعتد برأي الامام اليوسى ، ويرجع اليه ، مستقيا من قليب عمله ، وفضلة اطلاعه ، حسبما يعلم من جواب اليوسى ، الذي نقله من خطه ، القادرى فى « نشر المثانى » .

وفى « محاضرات » اليوسى ، ثناء جميل على شيخه (14) الامام ، أبى حامد الفاسى ، صاحب «مرآة المحاسن» ، وتنويه بهمته فى التبييض والتسويد وبما يشهد له بالرواية الى جانب الدراية ، وبالعناية بالتواريخ ، ثم نقل من كتابه « المرآة » كلمته الشهيرة عن اهمال المغاربة لتاريخهم ، وضياع الكثير بسبب ذلك من فضلائهم .

وأحسب بهذا أن العبارة الماكرة فى كتاب « فهرسة الفهارس » لا تحتاج فى ردها الى تسجيل كل ما هو متناثر فى مؤلفات الامام اليوسى ، من الثناء على أعلام البيت الفاسى ، والانحياش الى رعيلهم ، والسير على هديهم ، ومثله ما ورد فى مؤلفاتهم ورسائلهم من التنويه بامامته ، ومشاركته ،وبارع أدبياته.

على أن قصته مع طلبة فاس لم تقف عند التراشق مع أبى زيد الفاسى بتلك القوافى العابرات التى أقصر بعدها أبو زيد ، وذلك عندما حسم الشيخ عبد القادر بكلمته فى ما جرى وكان ، ولكن المفهوم من فقرة وردت عند الافرانى (15) (أنه وقعت بينه وبين طلبة فاس محاورات شتى) كما أن المتناثر من أخباره عند مترجميه ، وعلى لسانه فى بعض رسائله ومؤلفاته، يشير — كما سمعنا — الى ظاهرة شذوذ جلبت عليه فضول مجتمع طلبة فاس وأشاعت بينهم على لسانه تقولات وتزيدات ، ودأبوا على مواجهته بكريه الاعراض ، حين غلب عليهم ما

14 — انظر « المحاضرات » ، ص : 59 ، ط : الحجرية .
15 — « صفوة من انتشر » ، ص : 208 ، ط : الحجرية .

فى الطبع الآدمى من جحود لاقدار مثله من أولئك الرجـــال ، الذين يشع ضياؤهم حتى من وراء حجاب ، وذلك ما أهـــاج جفاوة أبى على ، ونعبر عنها بعنجهيته العلمية فى هذا المقام ، فأطلق لها العنان ، ونفس عن طبعه بما أخذ بيدي من ظاهرات فضله وتبريزه على الناس ، وبما أفاء الله عليه من مواهب ليست مما ينال بالاكتساب ، ويدرك بالرواية أو السماع .

وقد كانت الاقوال السائرة عنه فى هذا العراك ، مما لا يصدر عادة عن الاعلام الذين جملهم الله بالتواضع ، والظهور بمظهر طلاب العلم بالاقوال والافعال ، ومن مصاولاته السائرة قوله فى خطاب أهل فاس :

علـــى رسلكـــم يـــا أهل فـــاس فإننـــى
فتـــى لست بالفـــدم الغبـــى ولا الغمـــر

أنـــا الصـــارم الماضى ، ويا رب نافـــث
يخلـــق فى البحـــث الاديـــم ولا يفـــري

ولنذكر أن الاقدار ألقت به فى مجتمع يختلف عن مجتمع الدلاء ، فمجتمع فاس يضطرب بخلق من العلماء ، ومن أدعياء العلم ، وبآخرين — وان اكتظت حواصلهم بمعارف أهل الزمان ، فقـــد ظلوا خماصا من زاد التقوى ، ومعارف أهل الله ، فكان مـــن المنتظر أن يتخطف أولئك المنافسون أقواله تندرا ، ويحصون عليه الانفاس سرا وجهـــرا .

وهكذا نراه أعلن فى فهرسته (61) ــ وهو لا ريب ــ مما كان يبوح بمثله فى مجالســـه .

(وكانت قرائتى كلها أوجلها فتحا ربانيا ، ورزقت ولله الحمد ، قريحة وقادة ، وفطنة ذكية بأدنى سماع ، وأدنى أخذ ، ينفعنى الله ، فقد أسمع بعض الكتاب ويفتح الله على فى جميعه فتحا ظاهرا ، وأبلغ فيه ما لم يبلغه من سمعته منه ، ورب كتاب لم أسمعه أصلا ، غير أن سماع البعض فى كل فن سار بـــدوا للفتح ، وتتميما لحكمة الله فى سنة الاخذ عن المشايـــخ ، ولا تستوحش مما ذكرناه من قلة سماع الكتب والفنون ، ظنا منك أن الربح يكون أبدا على قدر رأس المال ، كلا ، وقد يبلـــغ الدرهم ألف مثقال ، وما ذلك على الله بعزيز) .

ومن هذا القبيل أن سائلا سأله يوما بدرسه عن مسألة فقال له : (أسمع ما لم تسمعه من انسان ، ولا تجده محررا فى ديوان ، ولا مسطرا ببنان ، وانما هو من مواهب الرحمان) .

ولا ريب أن الانتفاج بمثل هذا الفخار فى مجلس الاقراء مما يرفع جباه الطلبة عن الكراسات ، ويثير فى أعينهم الغمزات.

ولم يتوان مرة أخرى أن يقول فى تقييده « القول الفصل فى الفرق بين الخاصة والفصل » : (انه بلغ درجة سعد الديـــن

---

16 ــ انظر أيضا فى صفوة من انتشر للافرانى ، ص : 206 ، ط حجرية .

التفتزاني (17) والسيد الجرجاني وأضرابهما بحيث يقبل من كلام العلماء ويرد) .

وكان أيضا يرفع عقيرته قائلا : (لو شئت لا أتكلم الا بالشعر لفعلت) .

وهي قولة صدق ، فقد كان قرض الشعر بالنسبة لـــه أسهل من التنفس كما قيل عنه ، وبراعاته معروفة فى ديوانـــه الذي جمعه بعض أصحابه ولاسيما فى بدائعه المطـــولات ، ومساجلة القدماء .

وقد طغت فيه صولته العلمية حتى على علماء المشـــرق الذين لم ينافسوه فى كرسى علم ، أو قافية سائرة ، فقد ذكـــر الاديب الجيلالى الاسحاقى فى رحلته الحجازية ، عن بعـــض أصحابه أنه سمع أبا على اليوسى بعدما رجع من حجته (18)

---

17 ــ سعد الدين التفتزانى صاحب الشرحين المطول والمختصر على التلخيص للقزوينى ، وهما التاليفان اللذان أخذ بهما المغاربة فى دراسة علوم البلاغة بعد أرجوزة الشيخ الطيب قديما وحديثا ، وعنوا بذكر سندهما فى الاجازات ، ويعنى اليوسى بالسيد الجرجانى الشريف عليا ابن محمد المعروف بالسيد وبالشريف الجرجانى (740ــ816) وهو صاحب الحواشي على شرحى السعد، وكتاب التعريفات،وله شروح على عدة كتب فى الاصول ، وشرح على الكشاف ، وكتب فى الهياة والفلسفة، وشرح على الجزء الثالث من كتاب المفتاح للسكاكى وهو نفس الجزء الذي لخصه القزوينى ، وله شرح على كتاب المواقف للايجى .

18 ــ كان خروج اليوسى من فاس بقصد الحج فى 14 جمادى الثانية عام 1001 ، انظر رحلة ولده أبى عبد الله محمد ، الذي كان رفيقه فى الحج ، ومثلة فى ترجمته من « نشر المثانى » .

يقول : (ما بقي بالبلاد المشرقية من تشد اليه الرحال فى طلب العلم) وفى رحلة ولده أبى عبد الله محمد اليوسى هذر من هذا القبيل ، والواقع فى هذه الافادة الواهمة أن أخذ العلم فى الرحلات عادة ما يكون عن طريق الاجازة والرواية ، لان ظروف الرحلة الحجازية لا تسمح بمداومة القراءة والاقراء ، ولم يكن لليوسى حظ من علم الرواية والاسناد الذي ينفق منه فى هده الاسواق ، ويظهره بالواعية الذي فى وطابه ما يتزاحم عليه الناس ، وصدق فيه قول تلميذه الشيخ الامام المسناوي انه (لم يكن له كبير اعتناء بالرواية ، وانما كان الغالب عليه العلم دراية) ، ولذلك لم يستدع منه الاجازة أي مشرقى غير الخرشى شارح (19) المختصر ، الذي عنى كثير من المشارقة باستدعاء اجازته لانه كان واسع الرواية ومن همه أن يجيز ويستجيز ، وبالرجوع الى كتب التراجم نجد بالحجاز وغيره من مدائن الاسلام على عهد رحلته ، الجماء الغفير من أعلام الدراية والرواية كما نجد على عهد الخرشى فى مصر أمثال عبد الحي الشرنبلالى ، وشاهين الارمناوي ، ومحمد ابن منصور الاطفيحى ، والشمس البقري ، والعجمى ، وغيرهم كثير ممن استجازوا وأجازوا غير اليوسى من المغاربة ، كما هو الحال برحلتى الناصري والعياشى على سبيل المثال .

وهذا هو الاصل فى أن صاحب فهرسة الفهارس لا يكاد يعثر على سند أدرج فيه اليوسى حتى يضع يده توا على محل

---

19 — انظر فهرسة الفهارس ، الجزء : 2 ، ص : 464 .

الوهم فيه باقحام اسم اليوسى في سلسلة روايته ، فهو مثلا يستغرب ان الفقيه الصوفى أبا حفص عمر بن الطالب ابن سودة حدث في مصر بحديث الاولية عن شيخه الازمى عن الشيخ التاودي ابن سودة عن ابن المبارك ، عن اليوسى ، عن الزرقانى شارح المختصر (20) مع أن اليوسى انما دخل مصر بعد موت الزرقانى المتوفى سنة 1099 ، في حين أن خروج اليوسى من فاس بقصد الحج قد كان عام 1101 كما سمعنا ، فكيف يأخذ عنه ويسمع حديث الاولية ، وابن المبارك اللمطى المذكور في السند لم ير اليوسى وانما دخل من الصحراء الى المغرب سنة 1110 .

وعلى كل حال فيبدو أن مثل هذا التباهى من قمة كرسى التدريس ، وفي صلب المؤلفات والدواوين ، وبالنسبة الى أعلام المغرب والمشرق ، قد سار ولا ريب على هذه الوتيرة حتى في ما يعلنه في مجالسه ، فسارت الجفوة على مداها بينه وبين حسدته ، وأصبح لها دوي في أعصابه ، فحميت الى حد توتره وشذوذ أحواله ، وخيل اليه معها أنه وصل الى درجة اليأس في الاقناع بعلمه وفضله ، فركبته العقدة ، وهو ذلك الطارىء على قوم كابروا في أهليته وتبريزه ، وأصبحت تلح عليه الغضاضة كلما اعتلى بجامعة القرويين كرسى تدريسه ، فاذا الدوار يلوي برأسه ، والصداع يلتهب التهابا في صدغه ، وكأنما شيطان مريد يتخطف كلمات املائه من بين لهاته ولسانه ، وتلك حال يصورها

---

20 ــ ساق هذه السلسلة الابياري في حاشيته على مقدمة القسطلانـي .

لتلقين الاوراد واعطاء العهود الصوفية لم يسلم من متابعة أولئك الحاسدين ، وهم فى هذه قد تجاوزوا التندر الى مرير الانتقاد ، والى المساس بمستواه الصوفى الذ يكان يعتد به ، وينوه باصله ومبدئه ، فالمعروف عنه أنه تصدى بعد شيخه الامام ابى عبد الله ابن ناصر ، الى تلقين الناس ما يحتاجون اليه من اوراد النوافل والاذكار ، التى يتزودون بها لمعادهم ، ويتقربون بها الى ربهم ، فيتخذ منها أحد القضاة فرصة للنيل من تطلعه لهذه الرتبة فى المقامات التى تسلق اليها قبل الاوان ، ويفصح الامام ابو على نفسه عن جلية الواقع فيقول فى كتابه « المحاضرات » : (وأخبرنى بعض اصحابى أنه جرى كلام بينه وبين بعض القضاة المتصدرين للتدريس ، فتكلم له القاضى فى شأنى ، وقال له على وجه النصيحة فيما زعم : فما ألجأ فلانا الى تلقين الاوراد ؟ ثم يتساءل اليوسى مرة أخرى فيقول: (فهل رأيتم مريدا كذلك وكيف نراه الا ان يتداركنا الله برحمته).

وبعد ان يحكى ان الشيخ ابى العباس زورق كلا ما فى هذا المعنى ، ويؤول الى ان النصح والتذكير لا يرتفعان حين يعز وجود المريد بشرطه الاصيل ، يتوجه بالكلام الى القاضى الناصح قائلا :(ثم يلزمك أيها الناصح فى مثل هذا ما يلزمنا وجوابك هو جوابنا : بأنك تصدرت للتعليم ، فهل رأيت بعينك متعلما على شروط التعليم المعتبرة ؟ أو رأيت نفسك على شروط المعلم وعلى من يجلس اليك شروط التعليم ؟...)

وسواء كان هذا الجواب مقنعا بالنسبة الى عصرنا

وعصره،او غير مقتنع ، فهذه بقطع النظر عن صلاحه وتقواه،وجنوحه الى النسك ، تعد من الظواهر فى جانب علمه الباطن التى تقدم لنا معارفه الروحية، فى معرض تعليق التمائم ، وتلقيــن الاوراد والاذكار على طريقة توزيع البركات فى طقوس البابوات .

ثم ان هذه منه تساؤلات وأسئلة انكار ، لا تنفع فى المقام سواء جلس أبو على اليوسى لتلقين الاوراد ، وتوزيعها علــى سبيل التربية او لمجرد النصح والتذكير والارشاد ، لان التصدر لهذه المهمة باسم الشاذلية الناصريــة انــمــا هو لمن اعطى الخصوصية بالاستخلاف ، وقد ظفر بها الشيخ الصالح أبو العباس ابن الامام الشيخ محمد ابن ناصر ، ولولده أبى العباس هذا اذن فى تلقين الاوراد ، ورفع الراية بالزاوية للزوار ، وما كانت حظوة ابى على اليوسى عند الامام الناصري شيخه او دعواته الصالحة له التى جاء مصداقها ماثلا كفلق الصبح فى علمه وفضله ستيح له الخصوصية ، وارث الكرامة التمكروتية ، لانها بالفرض وانتعصيب لسليل الشيخ الذي جلس لها بالمدينة المنورة ، وفى المكان الذي تخضع له رقاب العارفين ، ويحج له المريدون مــن كل فــج عميــق .

والذي يبدو هــو ان ابا على انما كــان يداري طماحه فى هذا السبيل بعد ان حاول المنافسون أن ينكروا عليه صــدارة التدريس بالقرويين ، واذا كان اولئك الحسدة قد خابــوا فى التهوين من امامته العلمية ، وزعامته الادبية ، فانهم عثــروا على الخصاص الذي نفذوا منه الى القول فى وجهته الصوفيــة ، فمن اخباره بما فيهــا التى حكى عن نفسه ما يوحــى أنــه

محمد المهدي بن احمد الفاسى صاحب الردود على الصوفى ابى اسحاق الكورانـــى ، فقد كان لا يأكل الا من عمل يــده بالنسخ ، ومن ورعه (25) أن السلطان بعث له بخمسين دينارا على عادة ملوك الشرفاء العلويين فاعتذر عن قبولها بما قبله منه السلطان الرشيد .

ومن بابة هذا الذى صدر عن اليوسى ، وان لم يكن من جنسه ، الا أنه فى حكم مجانسه ، لانه بالنسبة لرجال العلــم والتصوف ، يعتبر انحرافــا عن جادة الطريق ، وعــن المبداء الانسانى المستقيم ، وذلك ان السلطان المولى الرشيد نكأ جرحه بملامته على ما يحس فى نفسه من علوق بعهد الدلائيين ، فلم يكن من اليوسى الا أن أجاب بتقية خانعة مستسلمة لا تعهد من امثاله ، ولا بالنسبة الى الدلائيين أهله فقال فى جواب غير منتظر : (لا ناقة لى فيها ولا جمل) .

وما هذه ــ لعمري ــ فى مثل هذا المقام بتقية ، ولكنها بادرة جفاوة ، وكفران بداوة ، وهى بعد تستر مكشوف لا يسمن ولا يغنى فى ساحة الملوك .

والمعتقد ان السلطان الشريف كان ينتــظـر من العالم الاديب جوابا معقودا على علمه وادبه وذكاء قبيله ، فيخرج من مضيقه بجواب مستطاب ، كما جاء على لسان شيخه ابى عبد الله المرابط الدلائى حين فاجــأه السلطان بما فى نفســه عــن الداهية التى انزلها بمعاهد الدلائيين قومــه وانشد فى وجهه :

---

25 ــ انظر هذا فى ترجمته من كتاب صفوة من انتشر للافرانى .

ومن نكد الدنيا على المرء ان يرى
عدوا له ما من صداقته بد

فكان جواب عالم الدلاء من بديهته المطلوعة المعطاء ، فقال من غير تلكىء او اعتذار :

ان من سعادة المرء ان يكون خصمه عاقلا يا مولاي !
وبه جاء الحسم فى الموضوع بالبلسم الشافى لما فى النفوس

وعلى كل حال ، فان بداوة اليوسى ، لم يكن من شأنها أن تنسجم مع حضارة فاس ، كما سجل عن نفسه ، متبرما من كثرة الحاجيات والكماليات التى يتطبع بها النساء والصبيان ، فتثقل الكاهل وتصد القلوب عن اوجب الواجبات ، لا سيما اهل الحاضرة (انما اشتغلوا بالحظوظ الدنيوية) ، وقد تعرض فيها (الى البلاء والفتق من كل ناحية) ، وكل هذا قد ضخم فى ذهنه مناوءات العلماء ، واذا هو يتراءى خساسات المعاصرة حسدا اكتوت به القلوب منذ انفض عن حلقات العلماء بفاس طلابها ، لينقلبوا متهافتين على حلقته التى ضربت على مجالس الخصوم بوارا وفراغا منذ ايامه الاولى .

وعند هذا الحد اجد ان لا مناص للباحث من ان يتوقع قيام حدث فى حياة هذا الرجل ، فينقله من حال الى حال ، ويجعل حدا لهذا الصراع ، ويره له هناءة النفس والانسجام مع جبله على أي وجه كان .

وذلك ما حدث بشده العزم على الخروج من فاس واستدبار مجتمع الحضارة الذي أعنته ، الى بساطة البداوة التى تواتيه وتبسط له فى هناءته وراحة عيشته ، وهكذا عاد الى مسقط رأسه وانقلب الى معدنه تاركا جمهور تلاميذه ، معرضا عن رعاية المولى اسماعيل وعن رغبته السلطانية فى أن يظل هذا العالم بفاس قواما على نشر العلم ونفع طالبيه .

ولم يكن له مناص من ابداء العذر فحرر جوابه فى رسالته السالفة الذكر ، وهى التى ابان فيها للمولى اسماعيل عن وجه العذر فى اختياره الذي لا رجعة فيه ، وهى رسالة نارية من حيث انه يواجه فيها السلطان بذات نفسه التى ما زالت مقروحة من اثر ذلك اللقاء الكريه ، الذي كادته به فاس حين رمته اليها الاقدار على غير انتظار ، عقبى لما حاق على يد المولى الرشيد بزاوية الدلاء ، ولان رسالته حسبما يستفاد من بعض نصوصها كانت جوابا عن كتاب ضمنه المولى اسماعيل ما استشعر منه اليوسى انه قصد قصدا الى اعناته بالمقام فى فاس التى هدت من كيانه .

ومن العجب ان الاطار الذي قدمه لنا فى هذه الرسالة عن جو حياته فى البادية ، ماثلا فى هدوء الدار التى شادها بقرب المسجد ، وفى نافورة مائها ، وخضرتها المنبسطة عن يمينها وشمالها ، وفى تقلص مطالب الحضر ، وتوفر المؤونات ... لم يكن كل هذا من شأنه ان يهديء من أعصابه ويلوي به عن ذلك الجو بتكاليفه وصراعه ، وانما تجلى فيها متبديا على حقيقته

فأخذ يدلي بالحجة اثر الحجة لتصحيح قراره على شاكلة من يلقم مخاطبه الحجر اثر الحجر ، حتى لكأن مخاطبة المولى اسماعيل هى أصل ما به ، وكانت بذلك رسالة فريدية من حيث هذا النفس المحموم ، ومن حيث المضمون ، وقد جاءت من خير الامثلة على قوة عارضته لانه كما يلاحظ كان يمتح فى آن واحد من قليب علمه الثر ، ومن نفسه التى لم يهدأ حميها بعد مفارقة موطن الفتنة بالحياة وحظوظها

وهكذا أطلق نفسه الطويل ليبدى للمولى اسماعيل أن هجرته للبادية انما هى عين التدبير الذي يأمر به ربنا الحكيم : « ولا تلقوا بايديكم الى التهلكة » وان نفسه لا تقع على طبيعتها الا فى احضان البادية ، ولا يصلح للحاضرة وهو كما يقول باستكبار فى شبه تواضع غير مستطاب (محتاج (26) الى مزيد حذاقة وابانة ، وحسن تأت وتدرب ، وانا بعيد عن هذا كله انما أنا رجل بدوي).

وأما بالنسبة الى واجب النفع بالعلم فيرى (أنه لا يجب علينا أن نرتحل الى المدائن ليتعلم أهلها علمنا ، ففى بيته يوتى الحكم ، ولم يوجب الشرع قط على بدوي أن يتخضر ، كما لم يوجب على حضرى أن يبتدى ، نعم فى صدر الاسلام أمر الهجرة حيث كانت العرب على كفرها ، فكان من أسلم يفر بدينه من الفتنة ، فلما فتحت مكة وأسلمت العرب انقطع ذلك الامر فقال صلى الله عليه وسلم لا هجرة بعد الفتح) .

---

26 ـ انظر مخطوطة الخزانة الملكية ذات الرقم المشار اليه آنفا .

وقد ذهب اليوسى فى هذا المعنـــى مستشــــهـدا بأقوال الرسول عليه الصلاة والسلام : (ليضرب الناس أكباد الابل فى طلب العلم) وغيره من الاحاديث النبوية ، ومن أقوال الحكماء، والمروى عن عيسى عليه السلام، الذي قال: لا تمنعوا العلم عن أهله فتأثموا ، ولا تضعوه عند غيره فتجهلوا ، وكل هذا مخلل بأوجه أخرى من الاحتجاج ، ومطرز بالانشادات الشعرية التى لا يظهر معها للقاريء تعين انتقال من بـــاديـــة الى حاضرة ، وهـــو فى استعراضه لهذه الاحتجاجات لا ينـــى عن تجريح أهل فـــاس والتعريض بهم فى كل حال ، ومن جملة ما يغمز به ، وبأكثر من وجه وفى غير ما سياق ، ان مجتمع فاس انما هو مجتمع تجار، لا مجتمع علماء ، ويعنى بذلك ان لا فائدة من المقام بفاس لنفع من همه فى كسب الدانق من غير قريحة فى العلم ، وصـــاحـــب القريحة على حد قوله : « لا تتركه قريحته ان ينتظر ما يأتيه، فمن كان فى « القيساريـــة » مكبا على غلوســـه حتى اذا سمع بعالم دخل المسجد ، ارخـــى غلق الحانوت ، وجاء يستمع وقلبه فى الحانوت ، فمتى يحصل له العلم ؟ هيهات هيهات ! انما يرجو العلم من انبعثت جمرة فى قلبه تذكره ضياع ايامه ، وتنسيـــه جميع اولاده وامواله) ولا يتحرج من أن يروى فى هذا السياق عن عيسى عليه السلام الذي قال : (لا تطرح اللؤلؤ الى الخنزير فان الخنزير لا يصنع باللؤلؤ شيئا ، ولا تعط الحكمة من لايريدها ، فان الحكمة خير من اللؤلؤ ، ومن لا يريدها شر من الخنزير) ؟

ومن انشاداته فى هذا المعنـــى قول بعضهم :

أأنثر درا بين سائمة الغنم
أم أنظمه نظما لمهملة النعم

فان يشفنى الرحمن من طول ما لدى
وصادفت أهلا للعلوم ونلحكم

بثثت مفيدا واستفدت مودة
والا فمخزون لدي ومكتتم

فمن منح الجمال علما اضاعه
ومن منع المستوجبين فقد ظلم

وانه ليتأكد من هذه الاقوال أننا لسنا بازاء صراحة بدوية خالصة ، وانما نحن ازاء شذوذ واضح لكل ذي عينين . واذا كان الامام اليوسى قد هدانا فى هذه الرسالة الى عامل البداوة فى تمسكه بفضائل مجتمعها ومواءمتها نجو الطلب والحياة الفاضلة فيها ، فان من المعتقد الى جانب هذا ان تؤثر أعصابه الصارخ فى هذه النقمة الملازمة قد ينظر فيه ايضا الى عامل تأثير الاطاحة بحكم الدلائيين وبمعاهدهم ، وباجلائهم عن آفاقهم ، وما تبع ذلك من دخوله قسرا الى فاس فى جملة رعيلهم فذلك — فيما يظهر — قد خلف فى نفسه اثرا لا يمحى ، وصغر فى عينيه كل واسع فى الدنيا بعد دنيا الدلاء ، وان كل قافية من رائتيه المطولة التى رثى بها تلك الزاوية لتنضح بما خلف ذلك الحادث فى نفسه من جراح ما كانت لتندمل على مر الدهور والاعصار ، فليس بالظاهرة الغريبة أن يصبح بعدها متوتر

الاعصاب ، هائج النقمة على مجتمع ليس هو منه ولا اليه ،مزمجرا بكل ما يقال وما لا يقال ، وما وصلته بهذا المجتمع غير الاقدار، ومازجته فيه غير ارادة ملكية ظل يداريها ويحترس بفضل ذكائه ــ من اي بادرة حركة او سكون تنم على ما يضطرم فى نفسه تجاهها ، واعتقد ان روح الغضب التى تسيطر على تلك الرسالة التى أجاب بها المولى اسماعيل لتترجم عن هذا كله وتبين ، وما كانت نصيحته للمولى اسماعيل بتعميم العلم فى المدر والوبر الا لغاية التورية بمكارم السادة الدلائيين ولهذا ، أكاد اقول ان مبادرات هذا العالم لاتفهم على حقيقتها بغير الدخول عليه مزخلفياته ، وما كانت حصافة المولى اسماعيل لتغيب عنها المغامز ولا تلك الحمم التى كان يقذف بها مجتمع فاس من قريب ومن بعيد، فاننا انستطيع أن نتفرس هذه الحصافة العلوية فيما لمح به المولى الرشيد للامام المرابط الدلائى حين انشد فى وجهه :

ومن نكد الدنيا على المرء ان يرى
عدوا له ما من صداقته بد

واذا تصاممنا عن هذه الشقاشق الهادرة ، واستشرفنا الى صداها عند الآخرين ، فاننا لا نستروح من قبلهم غير صوت الاشادة وروح الانصاف ، والتنويه بما آتاه الله من علم الظاهر والباطن على السواء ، فقد رفعوه مقاما عليا فى كتب الطبقات : واضفوا عليه من الحلى والالقاب ما لا يظفر به غير القلة من الشيوخ الاعلام ، وحتى هنات أبياته فى فاس التى اعتبرها هو بلسانه من (السقطات والفرطات) أدرجها

القادري [27] فى سياق الاكبار مصحوبة بالاعـــتـــذار ، وحلاه بالامام الكبير والمحقق الشهير ، ونص على انه آية فى الادراك ، وعندما تطرق الى ذكر بعض تآليفه وطأ لها بقوله : (ولصاحب الترجمة مؤلفات فى تحريرات وتدقيقات) وقال عن ديوانه (انه من اعاجيب الزمان) ، كما أنه نوه بعارضته (الكبيرة فى النقـــل والتحقيق) وروى ما حكى من أنه بقـــي فى تدريس الفاتحـــة بفاس نحو ستة اشهر ، وانه ممن يستحق أن يوضع فى ترجمته مجلدات .

وقد سمعنا قبل صفحات ما حلاه به حجة الاســـلام أبـــو السعود عبد القادر الفاسى (1007 — 1091 هـ) فى اجازته التى التى وصفه فيها بالمحقق الفهامة واضاف اليها الحبر المشهـــور ، فكانت من مفرداته وشهادة على كماله .

وقال فيه الافرانـــى (28) صدر ترجمته انه : الشيخ الامام علم الاعلام ، وشيخ الاسلام وآخر علماء المغرب علـــى الاطلاق ، ومن وقع على علمه وصلاحه الاجماع ، ثم أشار الى عارضته فذكر (انه لما دخل مراكش، تصدر فيها لأقراء عـــلـــم التفسير بجامع الاشراف ، فمكث فى تفسير الفاتحه قريبا مـــن ثلاثة اشهر ، وهو يبدي كل يوم من التحقيق أسلوبا ، ويلقـــى من التحريرات صنوفا ، فعجب الناس لحسن القائه ، وغزارة مادته ، مع انه ربما يبيت فى ضريح بعض الاولياء والناس معه فلا يطالع كتابا ، ولا يراجع مؤلفا ، فاذا اصبح قعد على كرسيه،

27 — نشر المثانى الجزء : 2 ، ترجمة اليوسى .

28 — صفوة من انتشر ، ص : 205 ، وما بعدها ، ط الحجرية بفاس .

وأطلق لسانه بما يبهر العقول ويحير الاذهان) وزاد بعدها : وبالجملة فهو آخر العلماء ، بل خاتمة الفحول من الرجال حتى كان بعض اشيلخنا يقول : هو المجدد على رأس هذه المائة ، لما اجتمع فيه من العلم والعمل ، بحيث صار امام وقته وعابـد زمانه ، ولذلك قال الأمام ابو سالم العياشى فيه :

من فاته الحســن البصرى يصحبه
فليصحب الحسن اليوسى يكفيـه

ونجد صدى لهذا الاجماع فى كتب المـتأخـرين كصاحب شجرة النور الزكية (29) من اهل تونس الذي قال عنه : (شيخ مشايخ المغرب على الاطلاق ، الامام الذي وقع على علمه وصلاحه الاتفاق ، المتضلع فى العلم الحامل لواء المنثور والمنظوم)

وقال عنه محمد البشير ظافر الازهري (30) ، العالـم العامل المشارك المتفنن ، المحقق الصدر الاوحد .

وحلاه صاحب فهرسة الفهارس (31) بعالم المغـرب ، ونادرته ، وصاعقته فى سعة الملكة ، وفصاحة العلم واللسان ، ثم زاد صاحب الفهرسة : (مع الزعامة والاقدام والصدع بمـا يتراءى له).

---

29 ـــ الجزء : 1 ، تحت رقم : 1284 وانفرد بتلقيبه بنور الدين .
30 ـــ انظر ترجمة اليوسى (فى كتابه اليواقيت الثمينة فى اعيان مذهب عالم المدينة) ، ص : 133 ، مطبعة الملاجىء العباسية ، وقد نقل ترجمته عن تلميذه الامام سيدي المهدي النهري من كتابه المنح البادية .
31 ـــ الجزء : 2 ، ص : 464 .

ولا ريب ان التعبير « باقدامه وصدعه بما يتراءى له » هو الذي لطفه وهذبه شيخه ابو عبد الله محمد المرابط الدلائى حين وصفه فى اجازته بصاحب الهمة التى نيطت بالثريا ، وكل من الدلائى والكتانى انما يعنيان فى الواقع جرأته وعناده على ذلك الوجه الذي عرفنا ، واحسب ان جلالة مترجمنا هى التى حدت الشيخ المرابط الى أن يرى حسنا ما ليس بالحسن ، فعبر ببعد الهمة عما جاء فى هذه الصفحات على صورة العناد والانانية وأما الشيخ صاحب الفهرسة ، فقد سمى هذه الانانية اليوسية بخير اسمائها فى نظر مصلحته ، وذلك للافصاح عن جرأته فى مخاطبة المولى اسماعيل بذاته وصفته .

والذي يعنى على كل حال هنا هو الاشارة الى ان امامة اليوسى فى التحقيق والتدقيق والتحرير ، تبدو غالبة على كل ما قيل فى حقه ، وذلك أيضا ما تشهد به مؤلفاته وتقاييده ، الى جانب عارضته القوية وفيض انشاداته المتوالية ، وكلها سمات تنبىء عنه ، وتشى بهويته ، ولو لم يسجل اسمه على ظهر تآليفه وتقييده ، وذلك لوضوح الرؤية الادبية فى كل ما يأتى به ، مما يميزه عن غيره ، أما ان التحقيق والتدقيق والتحرير ميزته الخاصة به ، او انه آخر شيوخ العلماء او آخر المحققين او الآية وحده فى الادراك والتحرير ، فهذه شأنها شأن الاوليات التى يكيلها كيلا ومن غير حساب من يقصر نظره واطلاعه على شخصية بعينها ، من غير أن يلم بمن فى مستواها وطبقتها ، او يعرف شيئا عمن اربى عليها ، ولا حاجة بنا الى ذكر الاسماء كشيخه المرابط او ابى حامد الفاسى صاحب المرآة ، او قريبه

الشيخ الفهامة ، ابى عبد الله محمد المهدي ، الضابط ، صاحب الردود على الامام الكورانـــي ، او الامام ابى عبد الله محمـــد (فتحا) ابن الشيخ عبد القادر الفاسى ، او الامام ابن زكري ، او الامام المسناوي تلميذ اليوســـى الى غير هؤلاء من اهـــل طبقته او من شيوخه وهم كثير ؟

والواقع الذي يشهد به التاريخ وتعرضه علينا كتب الطبقات من الحلى والالقاب التى درج كتاب التراجيم على اضفائها على الاعلام ، اننا قلما نظفر بين جيل طبقة اليوسى من شيوخه او تلامذته او من اعلام مدرسة الدلاء او فاس من لم يقل فى حقه خاتمة العلماء ، او خاتمة المحققين ، او خاتمة مشايخ المغرب ، او خاتمة علماء المغرب ، او الحامل لواء المنظوم والمنثور ، او أشعر أهل زمانه ، كما قيل فى حق الافرانـــي وهو من اهل ابانه ويكفـــي ان يرجع القاريء الى تراجم رجال هذه الطبقة مـــن أعلام فاس والدلاء فى كتاب شجرة النور الزكية ، والى طبقات المغاربة من غير استثناء ، وليقف الباحث أيضا عند تـــحـــليات المعاصرين التي اوردها الشيخ ميارة فى الشيخ الكبير على المرشد المعين ، وذلك فى صلب ما جلبه فى نص انتقاد البوسعيدى عليه من المجازفة بالتحليات الروحية من غير تمييز .

وبالصدور عن جملة آثار اليوسى المعروفة يمكن ان نقول أنه امتـــاز .

اولا : بصناعة التدريس ، وقد انفرد بطريقته القائمة على نظرية خاصة فى التلقين ، وعلى اتجاه خاص فى الاملاء ، وذلك ما

جعل الطلاب يتهافتون على مجالسه بالقروييين حتى صفرت حلقات غيره من المدرسين ، ولم ينفض جمع الطلبة عنه الا عندما تولى القضاة توزيع العطايا على الطلاب ، فعند ذلك أخذ الطلبة كما يقول : (يبيتسللون ويذهبون الى حيث كانت العطايا ، حتى لم يبق فى مجلسى بحمد الله الا من همته العلم ، لا الدنيا ، أكثرهم من أهل البادية وقليل من أهل البلد) .

وواضح ان الشيخ يعنى أن القضاة الذين تتوزع على يدهم الصلات كانوا يخذلون الطلبة عن مجالسه العلمية ، ولا نستطيع تصديق هذا او نفيه باعتبار انه ، قد يكون ناشئا عما كان يشوش باله من الشكوك ، وعن الهوس الذي ألح عليه فى تلك الظروف .

وعلى كل حال فان منهاجه فى التدريس يرتكز على أساس تربوي كان له ولا ريب اثره فى اقبال الطلاب عليه ، وذلك على نحو ما نرى فى تآليفه من ترتيب ونظام عقلى وسلاسة وتيسير. ومن فوائده الجليلة فى هذا الباب قوله : (الاقراء تصحيح المتن ، وحل المشكل والزيادة على هذا ضررها أكثر من نفعها ، ولا بد أن يدرج فيما ذكر من تصحيح المتن ، او حل المشكل التنبيه على النقص او الحشو ، وتوجيه ما يحتاج الى التوجيه ونحو ذلك ، فهذه وظيفة الاقراء ، وهذا كله للمبتديء ، وأما غيره فيعامل بما يليق به وان لم يكن ماهرا طبيبا فضرره أكثر من نفعه) .

وأما ما يليق بغير المبتديء ، فقد تركه كما سمعت

للمقتضيات ، والمعروف مما روي سابقا عن املاءاته فى تفسير الفاتحة بمجلس القرويين بفاس، او بمسجد الاشراف فى مراكش أنه كان يجنح الى استمالة سامعه بمعارضته المتدفقة بفنون التحرير ، وضروب الاحتجاج والتدليل ، مع تطريز العبارة بالفقرات الادبية البارعة ، والالتفاتات البيانية ، والانشادات الشعرية، وهذه تطالعنا فى مختلف مؤلفاته ورسائله وفى أي علم وفن ، أطلق فيه نفسه الطويل او القصير ، وقد كان يساعده على هذا محفوظاته الشعرية التى ذكروا منها دواوين المتنبى وأبى تمام والمعري ، وتلك طريقة فى الامالى من شأنها أن تستهوي الطالب المنتهى ، الذي يقع فيها على غذاء العقول والاذواق معروضا على بساط زاه من الكلام الرقراق .

ويمكن ان نرد هذا الاتجاه الى طابع ثقافة المدرسة الدلائية، فهذه المقومات التى كانت تتيح اطالة الاملاء فى تلك المجالس والمقامات ، قد عرفتها حلقة الشيخ الامام ابى الامام ابى عبد الله محمد بن ابى بكر الدلائى (967 هـ 1046) الذي عرف بالانطلاق المستهوى ، وبفصاحة العبارة فيما يكتب ويحدث ويملى ، وقد روى ان درسه كان يستغرق نصف يوم دون أن يشعر المتربع له بسأم ، وعلى هذا النحو عرفت فاس مجالس شيخ اليوسى ابى عبد الله محمد المرابط الدلائى بما املاه بزاويتهم وبالقرويين عند نزوحه الى فاس باثر النازلة بالدلاء. كما عرفت بعده وعلى غراره الامام أبا عبد الله محمد بن أحمد المسناوي تلميذ اليوسى ، وقد كان طبقة فى الفقه وكعبة القصاد فى الافتاء ، وبرز على مثال استاذه اليوسى فى المعقول والمنقول،

وفي الادبيات وتجويد المنثور والبراعة في المنظوم ، وانتهت اليه طريقة شيخه في التدريس ، فتهافت عليه طلبة فاس تهافتهم على شيخه ، والامام المسناوي من الدلائيين الذين درسوا بفاس حيث نزح اليها صبيا صحبة اسرته باثر انهيار دولة الدلاء ، فهو خريج مدرسة فاس ، ومثل كامل لثقافة العصر التي اجتمعت فيها مقومات مدرسة فاس ومدرسة الدلاء .

ثانيا : امتاز اليوسي على معاصريه بمجموعة تآليف بعد العهد بمثلها كما قيل ، فقد أخرج ما يربو على اربعين مؤلفا وتقييدا ، ويغلب عليها جميعها طابع التحقيق والتدقيق والعارضة القوية ، وتتألق بين صفحاتها مقوماته الادبية ، وكلها عناصر ثقافية متألقة تتبرج فيها شخصيته بجلاء ، وقد عنى المستعرب الفرنسي المعاصر الاستاذ جاك بيرك في مؤلفه عن اليوسي باستقراء تآليفه فوصل بها الى ثلاثة وثلاثين ، واستدرك عليه الاستاذ محمد حجي في رسالته عن الزاوية الدلائية اربعة عشر مؤلفا ، ونضيف الى قائمة الاستاذ حجي شرحا لليوسي على أم المنطق ، وهي منظومة للشيخ عبد العزيز (32) بن على ابن الشيخ أبي المحاسن يوسف الفاسي المترجم في النشر ، وقد اورد هذا الشرح الشيخ محمد البشير ظافر الازهري بين ما اورده من اسماء مؤلفات اليوسي .

ولن يجد القاريء في مؤلفاته المطبوعة قديما وحديثا كالمحاضرات والقانون والديوان ، او في مخطوطاته المعروفة ما يدعو الى القول

---

32 — اسمه « عزيز » عند الشيخ . ظافر ، ونسبه الى جده ابي المحاسن دون ذكر ابيه .

والاقتناع بادراجه بين المجددين على رأس المائة، فليس ما أتى به من معقول ومنقول ، ومنظوم ومنثور ، او منهاج فى املاءاته العلمية ونحلته الصوفية ما يتجاوز التبريز الى التجديد ، فالقول بذلك انما خرج عند قائله مخرج الاعجاب والتقدير .

وحتى بالنسبة الى عدد تاليفه فقد شاركه فى غزارة التآليف الذي بعد العهد بمثله ، عصريه وخصيمه صاحب «الاقنوم» الامام ابو زيد ابن شيخ الشيوخ عبد القادر الفاسى ، حيث اربت تآليفه على الاربعين بالاضافة الى ان مجموعته تمتاز بتنوع العلوم والفنون .

وقد قيل أيضا فى المسناوي تلميذ اليوسى المذكور انه مجتهد العصر او ان ادوات الاجتهاد قد اجتمعت له ، مع أنه لم يخرج فى فتاويه الفقهية — وهى مطبوعة — عن المشهور او الراجح ، او ما به العمل من مذهب الامام مالك ، وغاية ما فى الامر أنه أجاز الخروج من مذهب الى مذهب وقال بنصرة القبض ، وألف فى ذلك رسالته المعروفة (بنصرة القبض والرد على من أنكر مشروعيته فى صلاتى النفل والفرض) وأبان فيها عن شجاعة علمية ، وقوة استدلالية فىتضعيف ما رجحه ابن القاسم والآية فى ذلك عندهم انه صدع برأيه على عهده الذي كان فى المغرب من أشد عهود التاريخ الاسلامى تعصبا لمذهب بعينه، واليبس على فروع فقهه، وما كان هذا وحده ليقيمه فى أي طبقة من طبقات المجتهدين .

وأحسب ان التجديد بالنسبة الى الامام اليوسى ، والاجتهاد او الظفر بأدواته بالنسبة الى المسناوي ، مما لا يوخذ على حقيقة اطلاقه فى عصر حفل بالائمة الاعلام من معاصريهم الذين لا يشق لهم غبار .

على أن اليوسى صاحب ذلك التبريز وتلك المقومات ، لا يكاد يلم بذهن قارئه حتى يتشبح متبرجا فى قوة شخصيته وكبريائه وجلالته ، ويمثل متألقا فى هالة من طلاب علمه ومريديه

وصدق المؤرخ الحوات صاحب « البدور الضاوية » حين لقبه بسلطان العلماء ، فهذه اشكل به على كل معيار وقياس

الربـاط عبد الرحمن الفاسى

ملامح الفكر السياسي عند الحسن اليوسي

محمد الكتاني

يمثل المثقف فى أي عصر من العصور الحضارية التى تعرفها أمة من الامم ذات الثقافة العريقة نقطة انتهاء وابتداء معا ،فى سير الثقافة التى يمثلها . ذلك أن المثقف هو بمثابة تـجمـيع مكثف نعناصر الثقافة المختلفة ، ومناهج العلوم المتباينة ، تتلاحم فى شخصيته تلاحم النسيج ، ولا تلبث تلك العناصر المتلاحمة أن تكون بذاتها من خلال شخصية المثقف امتدادا جديدا تغايـر معطياته المعطيات السابقة ، اسهاما فى تشكيل جديد وصياغـة جديدة لتلك ا لثقافة . فالمثقف الحقيقى هو الذي يمتص معطيات حضارة أمته وثقافتها وتاريخها ، ثم يحولها الى امتداد فى الفكر والحياة الاجتماعية . وبهذا الاعتبار تتغذى الحضارة والتاريخ من الثقافة ، حتى اذا كفت هذه الاخيرة عن ذلك الامداد كفت

الحضارة عن الامتداد ونفدت طالقتها وخبا شعاعها وتحولت الى رماد ودخلت فى حكم التاريخ .

والتاريخ الاسلامى نفسه شاهد على هذه الظاهرة بثقافته وحضارته ، فمنذ جاء القرآن بتلك الفعالية الاخلاقية والمنهج العلمي فى استقراء الظواهر والاستدلال بها على اطراد السنن الكونية ، نشأت ثقافة انسانية جديدة ، اضطلعت بتصحيح الفكر اليونانى وتسديد خطا العقل الانسانى نحو الحقائق الكونية . فكان من نتائجها ظهور حضارة اسلامية متكاملة ، لم تنغلق عن المعطيات الحضارية قبلها ، ولكنها انتقت منها ووجهتها الوجهة الاسلامية المطلوبة ، وقد تم ذلك عن طريق الابداع الفكري والفنى الذي عرفته الثقافة الاسلامية فى عصور ازدهارها. وعندما كفت تلك الثقافة عن الابداع والتجديد وجمدت القرائح وأغلق باب الاجتهاد ، تحول التاريخ الاسلامى الى مسيرة متبلدة . وبدأ ما سماه مالك بن نبى مجتمع ما بعد الموحدين (1) وهو المجتمع الذي فقد فيه المسلم التوازن بين الثقافة والحياة الاجتماعية ، والتوازن بين العقل والوحى ، والتوازن بين الثبات والتطور . ولا يصعب ايراد الامثلة على حركة الأفول التى عرفها العالم الاسلامى فى الشرق والغرب ، كسقوط الاندلس وانحطاط المغرب (المرينى) فى الغرب ، وسقوط بغداد وأفول حضارتها فى الشرق . ولذلك لا ينبغى أن ننخدع بالنهضة

1) انظر : نداء الاسلام لمالك بن نبى عربه عن الفرنسية رمضان لاوند ص 43/ . .

التيمورية المزدهرة خلال القرن الرابع عشر فى أضرحة سمرقند ولابمظاهر الفخامة فى الامبراطورية العثمانية التى كانت تفتقر الى تلك الروح الوهاجة والدوافع الثقافية المبدعة ، ولا بالانتصارات العابرة لبعض السلاطين المغاربة فى عصر المرينيين أو عصر السعديين . فلقد كان العالم الاسلامى يتم تطويقه باحكام من طرف عالم آخر ناهض ، تدفعه حركة ثقافية جديدة .

ويهمنا من الاشارة الى حركة الأفول هاته أن نؤكد أنها كانت شاهدا على خمود الابداع الثقافى أيضا ، ذلك الابداع الذي وضع ابن خلدون آخر لبناته فى نهاية القرن الثامن الهجري . فهل يجوز لنا أن نتوقع توهج الثقافة الاسلامية مرة أخرى فى عصور غارقة فى الفتن المحلية والمنافسات حوم الحكم وفى غيبوبة التصوف الذي جعل شعاره يومئذ : (موتوا قبل ان تموتوا (2) .

سقنا هذه المقدمة لتحديد السياق العام التاريخى والحضاري الذي ظهر فيه اليوسى أحد اعلام الثقافة المغربية فى النصف الثانى من القرن الحادي عشر الهجرى ، ولنكون أقدر على تصور الممكن وغير الممكن بالنسبة للانجاز الثقافى المطلوب من عالم مغربى يعيش فترة صراع ، هى فى الواقع نهاية عصر وبداية عصر فى تاريخ المغرب .

---

2) اعتبر بعض الصوفية ذلك حديثا ولكنه غير ثابت ، انظر : موضوعات على القارى ، والمقاصد الحسنة ص 202 .

(2)

عاش الحسن اليوسى (ابو على الحسن بن مسعود 1040 / 1102 هـ) (3) فى النصف الثانـــى من الـــقـــرن الحادي عشر الهجري ، وهى الفترة التى كان المغرب فيها قد أخذ يتطلع لوحدة وطنية ، يستعيد معها هويته التاريخية والسياسية .

أما التمزق فكان يعنى تجزئة الـــبـــلاد حسب مـــطامع قيادات قبلية سلالية او دينية . وقد وجدت هذه المطامع فى الفوضى والفتن الداخلية عقب انحلال الدولة السعدية مبرر المغامرة . ولكن القوى المتحركة الطامحة للحكم استقطبـــها فى النهاية وبعد التصفيات المحلية حركتان كبريان :

اولاهما : الحركة الدلائية وهى كتلة بربرية صنهاجية التفت حول زاوية أسسها أبو بكر بن محمد الدلائى ، وسرعان

---

3) ينتمى ابو على اليوسى الى قبيلة آيت يوسى ، التى هى فرع من آيت يدراسن من قبيلة صنهاجة الكبرى ، وكانت قبيلته تقيم ما بين ملوية العليا واطراف جبل العياشي (ناحية الاطلس الشرقي) وقـــد نشأ فى أسرة بسيطة متدينة، وتنقل كثيرا فى طلب العلم، وتلقى مبادىء التصوف منذ يفاعته ، فتمكن من نفسه ، حتى اننا نراه عبر أسفاره لا يتخلى عن زيارة اضرحة الصالحين ومشاهير الصوفية . وتعتبر الزاوية الدلائية كمؤسسة ثقافية هى التى كونته التكوين العلمى الذى شكل حياته كلها ، لانه استقر بها نحو العشرين عامـــا . وبعض سقوط الزاوية بدأت مرحلة ثالثة من حياة طبعها عدم الاستقرار ، ولا حقته فيها السلطة مخافة تكتل الناس حوله ، وقد كان محط تقدير وثقة عندهم ، وذلك ما اكده محمد بن الطيب القادرى فى كتابه (التقاط الدرر ومستفاد العبر) مخطوطة الرباط ص 123/ . .

ما وجدت فيها القبائل المتوسيطية (الاطلس المتوسط) أسباب التكتل الذي يفضـــى الى قيام سلطة تحقق مآرب الملتفين حولها

وثانيهما : حركة العلويين بجنوبـــى المغرب ، وهم اسرة تنتسب الى السلالة النبوية ، التفت حولها بعد معارك طويلـــة كل القوى المتحركة فى الجنوب .

وقد دخلت الحركتان فى صراع طويل امتد زهاء ربع قرن، أو على الاقل من معركة (القاعة) سنة 1056 هـ الى معركـــة (بطن الرمان) سنة 1079 . ورغم انهزام الدلائيين وانتصـــار العلويين فقد ظلت الفتن والانتفاضـــات الجهويـــة متعاقبة الى نهاية القرن الحادي عشر ، فى ارجاء المغرب ، وهكذا كان عصر اليوسى عصر قلق واضطراب ، وتحول سياسى لم يسفر بعد عن اتجاهه الفكري ، والاجتماعـــى حتى وفاة هذا العالم الكبير .

ومن الناحية الفكرية يكاد يكون الطابع الصـــوفى هـــو الطابع الاساسى للفكر المغربـــى فى هذه الحقبة . فقد قامت الزوايا الصوفية فى كل النواحى النائية والقريبة ، بعيدا عـــن المدن والحواضر لتستقطب قلوب الناس ونشاطهم الروحـــى ، ولعلها كانت تعبر فى معظمها عن طموح سياســـى طالما ان الامر كان يبدأ على هذا النحـــو ، من استقطاب الناس حول طريقة صوفية أو رباط أو زاوية ثم ينتهى الى مذهب فى (الامر بالمعروف والنهى عن المنكر) ، فالى طموح للحكم وتشغيب على الحاكم فالى ثورة يكتب لها النصر أو الهزيمة .

ويمكن القول بأن الحسن اليوسي كان قد امتص كل المؤثرات السائدة في بيئته ، وأبرزها التصوف ، فانتمى الى الزاوية الدلائية ، في أهم فترة من فترات حياته ، وهي فترة التنشئة الثقافية ، أي فترة تشكيل الفكر والشخصية ، مع الانفتاح على الاتجاهات ومواجهة الاختيارات . ولا شك في أنه انفعل بالقضاء على هذه الزاوية وتخريبها من طرف المولى الرشيد ، حين كان يعمل على توحيد البلاد تحت سلطة مركزية واحدة . فقد تعرض اليوسي خلال ذلك للنفي والمطاردة ولو بشكل غير سافر ، فلستقر في وعيه احساس بشذوذ في سير الزمن ، واملى عليه ذلك بعض التأملات ، والمشاعر السوداء التي تحولت الى شبه فلسفة او موقف فكري يظهر جليا لقاريء كتابه (المحاضرات) .

لن القضاء على الزاوية الدلائية كقوة سياسية طامحة للحكم ، من طرف القوى الجديدة الآتية من الجنوب المغربي، والمستندة الى شرف المحتد والمبررات السياسية الاخرى ، بالاضافة الى الانتصارات المتلاحقة لهذه القوى في كل مجابهة مناوئة او منفصلة كان يعني على الاقل مواجهة اليوسي لاختيار سياسي عميق . ولا شك في انه كان منحازا للقوى التي نشأ في احضانها ، والتي كانت تملك مبرراتها هي الاخرى في نظره ، ولكن طابع المغامرة والفوضى اللذين طبعا فترة كبيرة من الحقبة التي عاش فيها جعلاه يلمس معنى حركة تقلب الزمان . ومعنى مداولة الايام بين الناس . وهكذا ندرك مغزى ايراده تلك الآية (لله الأمر من قبل ومن بعد) وكأنها فاصل

بين كل فصل وفصل من كتابه (المحاضرات) وقد تأرجحت اهتمامات اليوسي بوصفه مثقفا مسلما ــ وهاتان صفتان متلازمتان متكاملتان ــ بين علوم الوسائل وعلوم الغايات . أما علوم الوسائل فهي اللغة وآدابها والمنطق ، وهذه تعكسها تآليفه التاليـة :

ــ ديوان شعره والقانون فى أحكام العلم وشروح علم المنطق ومنها (نفائس الدرر) والمحاضرات (4) .

وأما علوم الغايات فهى علوم الفقه والتفسير والتصوف والتوحيد ويعكسها من تآليفه :

(الفتوحات السوسية) فى التفسير و (شرب العام والخاص من كلمة الاخلاص) ، وارجوزة فى الفقه وشرح (عقد جواهر المعاني فى مناقب الغوث عبد القادر الجيلاني) .

والملاحظ أنه لم يكن له اهتمام بالعلوم العقلية الاخرى ، الا بقدر محدود ، فهو يستخدم المنطق لاثبات العقائد الدينية،

4) كان القدماء يعتبرون فن (المحاضرة) علما يعتمد على تحصيل ملكة خاصة قوامها ايراد كلام للغير مناسب للمقام من جهة مضمونه او من جهة شكله وفنه ، والغاية منه تحقيق ملكة الرواية الادبية الشاملة للادب بكل معانيه المعروفة قديما . واشهر ما الف فى هذا الباب (محاضرات الادباء ومحاورات الشعراء والبلغاء) لابي القاسم حسين ابن محمد المعروف (بالراغب الاصفهاني) (والمحاضرات والمحاورات) للسيوطي و (محاضرة الابرار وسامرة الاخيار) للشيخ محيي الدين ابن عربي .

ولهذه الغاية اهتم بالمنطق وشروحه ، كما انه لم يكن رجل الادب بالمعنى الاصطلاحى للكلمة ، وان كان له من الآثار ومن النظم ما يستوجب اعتباره مثقفا مشاركا وأديبا ، فالصفة البارزة الغالبة على ما عداها فى شخصه انه عالم فقيه ، بالمفهوم المعروف عن الفقيه المشارك فى الثقافة المغربية . وهذه الثقافة المشاركة تعكسها فى رأينا آثار بعينها ، وهى كتابه (القانون)، وكتابه (المحاضرات) و «رسائله» .

(3)

لقد عرض اليوسى لتقلبات الدهر فرأى أنها من طبيعة الحياة ، وان الحياة قائمة على الابتلاء وعلى الفتنة (5) ، واستخلص من ذلك ما يجب ان يستفيده المسلم المؤمن من عظة ، وما يجب أن يتحلى به من خلق ثابت وايمان عميق . ولكنه لم يفته أن يستنتج من تداول الامر بين الدول أن دوام الملك واضمحلاله رهين بالعدل أو الجور (6) . فأورد شواهد المنقول والمعقول على اثبات ذلك فقال : وقد قال الحكماء ان الملك يستقر ويستقيم مع الكفر ولا يستقيم مع الجور ، وهو صحيح . والعلة فيه أن الملوك هم خلفاء الله فى عباده ، مؤمنهم وكافرهم . غير أن المؤمن خليفة فى الطريقين والكافر فى الدنيا فقط. والملك هو نظام العالم ، والعدل هو روحه . فمتى ذهب

5) انظر المحاضرات للحسن اليوسى طبعة محمد حجى . 1976 ص 41/ ..
6) المرجع السابق ص 103

العدل اختل النظام ووقع الفساد فى العالم ولذلك قال ارسطو طاليس فى ضوابطه : « العالم بستان سياجه أي حائطه الدولة، والدولة سلطان تحيى به السنة ، والسنة سياسة يسوسها الملك ، والملك راع يعضده الجيش ، والجيش أعوان يكفلهم المال والمال رزق تجمعه الرعية والرعية عبيد تعبدهم العدل ، والعدل مألوف وهو حياة العالم » (8) بل نرى اليوسى يعقب على ما يورده من أقوال مأثورة بهذا التعقيب الذي ينم عن نظرة فاحصة وتوجيه نقدي لحكام عصره. وذلك حين قال : « وكل من تعرض لها من السلف (وهو يقصد السلطة او الحكم) فاما انتهاضا لنصح المسلمين من نفسه باقامة الحق لئلا يضيع، واما نزعة بشرية حركها سبب من الاسباب . اما الثانى فلا يقتدى به (يقصد المغامر الطامح للحكم من أجل الحكم) واما الاول فيقتدى به من بلغ مقامة فى التمكين والقوة والنزاهة . وفى مثل زمانه الصالح الذي لم يزل فيه الدين طريا والحق جلياء والاعوان عليه قائمين . وهيهات ذلك فى آخر الزمان ، الذي غلب عليه فيه حب الدنيا واستولى سلطان الهوى على الناس (9) »

وهناك ملاحظة أخرى لم تفته بصدد استعراض التاريخ الوطنى فى اطار الاعتبار بتقلبات الزمان وتعاقب الدول ، وهى فضح او تحليل ظاهرة الاحتيال بالصلاح ووسواس المهدوية ظانا ان هاتين الظاهرتين كانتا اسلوبا تقليديا لطلب الرياسة والشهرة .

8) المرجع السابق ص 103

9) المرجع السابق ص 104

فقد ذكر بعض شواهد الاحتيال باظهار الصلاح لخداع الناس ، كالذي ذكره عن رجل بسجلماسة اعتقد الناس فيه الخير ثم ظهر انه كان مصابا مشتغلا باستخدام الجان ، وكالذي ذكره عن رجل من جبال هسكورة ، ومثل هؤلاء كثير . ثم يقول : « فالحذر مطلوب ، ولا سيما فيما نحن فيه من آخر الزمان ، الذي استولى فيه الفساد على الصلاح والهوى على الحق والبدعة على السنة الا من خصه الله ، وقليل ما هم (10) ».

وأما عن وساوس المهدوية فقد لاحظ أن معظم القائمين بها انما تخدعهم أنفسهم أو تغريهم دسيسة دنيوية أونزعة شيطانية ، يقع ذلك حتى لبعض السالكين الذين يفتنهم الشيطان فلا يزال بهم حتى يغويهم ، وذلك بان يجد أحدهم قوة من الايمان فى قلبه او يستشعر حالة جمالية غامرة تردعليه ، فيوهمه ذلك أنه قوي على أن يصدع بالحق ، وربما توهم انه الحقيق بذلك دون سواه ، او يخيل اليه انه المهدي المنتظر ، فيتحرك على طمع أن ينقاد له الامر، وينقاد له ابناء الزمان ، « ويحفر فيكدي ، ولا يعيد ولا يبدي ، ثم يصير أشقر ، ان نقدم تنحر ، وان تأخر تعقر ، فلا يسعه على زعمه الا فتح ابواب التاويلات والترخيصات واسعاف الناس بعد ان قام ليتبعوه ، ومن هنالك يهدم الدين عوض ما قام ليبنيه .. وقد رأينا فى وقتنا هذا من استولت عليه هذه الوساوس حتى وقع فى شبه صاحب المالنوخيا ، بحيث لو اطلع الناس على ما هو فيه

---

10) المرجع السابق ص 45/ . .

رموه في المارستان » (11) . ومما يتصل بهذا الموضوع تعليقه على ظاهرة كانت طابع الفترة التى عاش فيها ، وهى ظـاهرة حب الرياسة والطموح الى الحكم . وقد اعتبر اليوسى طلـب الرياسة ظاهرة طبيعية فى الانسان ولكنها انماط ، فهى اما ان تدفع اليها رغبة فى صاحبها نحو الاصلاح والقيـام باظـهار الشريعة واحقاق الحق ، واما ان تدفع اليها رغـبـة فى حب التسلط والشهرة . فان كانت الاولى ، وسلم صاحبها من كـل مفسدة وشهوة ، وتهيأت له امكانات التوفيق والنجاح : فقـد حصل على الشرف فى الدارين ، وان كانت الثانية ، فاما أن يتفق له رعـى المصلحة او حفظ الامن وحماية المجتمع ، فذلك كالسراج الذي يضيء وهو يحترق ، وفيه يقال : « ان الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر » واما الا يتفق له شيء من ذلك سوى اتباع الشهوة فذلك هو الفساد فى الارض » .

واذن فاليوسى يقسم انواع الحكم السياسى ، بحسب الدوافع اليه والمسلك الاخلاقى الذي يلتزم به صاحبه ، الى انماط ثلاثـة تطابق مضمون الحديث المأثور : « ان هذا الامر يكون نبوءة ثم خلافة ، ثم ملكا ثم عتوا وفسادا فى الارض » (12)

ويعود اليوسى لتحليل الدوافع نحو الرياسة فيـرى أن شهوة الناس فى الرياسة واضحة ، يقصد أنها طبيعية لتعشق النفس صفات الالوهية ، وتعشق ما تتوهمه من ثمرات ذلـك

---

11) المرجع السابق ص 105
12) المرجع السابق ص 109

كالتنعم والترفه ، والاحتواء على الدنيا واهلها ، وقد ينضاف الى ذلك علو الهمة وقوة الحرص وشهامة النفس . وهـذه الرغبة من الدوافع الايجابية فى حياة الانسان أو حياة المجتمع ، لما يترتب عليها فى حال توفيقها وتحقيقها من مصالح الاجتماع كاطفاء الفتن واخماد الاحن وقمع البغاة ، واغاثـة الملهوف وانصاف المظلوم . وفى هذا المعنى يورد قول الشاعر :

لولا الخلافة لم تامن لنا سبل وكان أضعفنا نهبـا لاقوانـا

وهو يحث البصير الحازم الطامح فى الرياسة أو فى السياسة أن يزن دوافعه ويقدر مصاعب الطريق وأعباءه ، ليزن الأمور بميزان العدل ، وينزه نفسه عن الغوايـة والهوى ، فاذا دعته نفسه الى طلب الرياسة مثلا ، متوهمة أنها تريد جمع الكلمة واقامة الشريعة وكف الظلم ، فلا يثق بها فى هذه الدعوى حتى يمتحنها . ولهذا الامتحان طريقة يذكرها (13) . فـان ألفاهـا صادقة ـ وما أغرب ذلك ـ فلينظر حينئذ فى الامكان اى فى الظروف والوسـائـل .

وهكذا يبدو تأثير العصـر فى فكـر اليوسى السياسى والاجتماعى واضح البصمات ، فهو ينظر فى كل ما ساقه من افكار الى طائفة من المغامرين ، الذين طمحوا الى الحكم مـن أجل التسلط ، والى طائفة اخرى تدفعها داوفع دينية واصلاحية لجمع الكلمة وتوحيد الامة ودفع الشرور وحماية الثغور . ولكن الامر اختلط بين هؤلاء وأولئك ، فهو يدعو الى امتحان تلك الدوافع ،

13) المرجع السابق ص 110/ . .

والى اعمال النقد الذاتي في تحليلها حتى يتميز طيب من خبيث ، ومصلح من مفسد .

— 4 —

لا نستطيع ان ندرك ملامح الفكر السياسي عند اليوسي الا اذا ربطنا بين هذا الفكر وبين عاملين : عامل الثقافة الاسلامية وعامل البيئة الوطنية أو بعبارة أخرى ، الدين كعقيدة وشريعة ملزمتين بموقف سياسي معين من ناحية والتاريخ الوطني والواقع السياسي للعصر الذى عاش فيه اليوسي من ناحية ثانية . **فالعامل الاول :** أملى على اليوسي ما أملى عليه من مبادىء فى مقدمتها الاسهام فى توجيه السلطة السياسية بالقدر الذي يتحمله العالم المسلم فى البيئة الاسلامية . وفى هذا الصدد نرى الحسن اليوسي قد التزم بالتعبير عما رآه من آراء تجاه السلطة السياسية والاتجاهات السائدة فى عصره . وهذا ما كان يعتبره داخلا فى اطار مسؤولية العالم فى المجتمع الاسلامي .

والعامل الثانى : حدد له طبيعة الاسهام الفكري فى توجيه السلطة وفى تنوير الفكر العام فى بلده ، وبين مريديه وجماعته

ويأتي انتاج اليوسي ، فيما يخص (الرسائل) موجها الى هذين الطرفين (14) .

---

(14) قامت بدراسة هذه الرسائل فى رسالة جامعية السيدة فاطمة خليل القبلي بعنوان : رسائل ابى علي اليوسي . (رسالة مرقونة بمكتبة كلية الآداب بفاس) .

ــ السلطة الحاكمة ، وهى الدولة ، ويمثلها السلطان المولى اسماعيل يومئذ .

ــ الرأي العام ، او الجماعات التى تستفتيه فى مسألة من المسائل الشرعية .

والملحوظ أنه فى الوقت الذي كان يخاطب الدولة او السلطان بمنتهى الشجاعة الادبية والصراحة فى النقد والتوجيه والنصيحة ، نراه يؤكد ضرورة الطاعة لولى الامر فى البلاد ، وهو السلطان ، شعورا منه بضرورة تثبيت المشروعية وحياطتها بما يلزم من القناعة والتسليم ضمانا للاستقرار الاجتماعى الذي كان مطلبا أساسيا من مطالب ذلك العصر ، لكثرة ما عرفه من تمزق سياسى وانقسام فكري بين القوى الاجتماعية والدينية والاقليمية ، وما تخلل ذلك من مغامرات وطموحات الى الحكم . وشاهد ذلك خاتمة رسالته (فى ندب الملوك للعدل (15) . حيث اعتبر من مهلم الملوك حسم الفتن وتأمين السبل وحماية البيضة ، واعزاز الملة واظهار أئمة الاسلام ، مستشهدا بالاثر المروى (السلطان ظل الله فى الارض) .

وسنرى ان العاملين معا يتكاملان فى توجيه الفكر السياسى عند اليوسى فى اطار الاهتمام الاجتماعى بأمته ،

---

(15) توجد هذه الرسالة ضمن مجموعة بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم 364 د

وبالسياسة السائدة يومئذ ، مقدما آراءه فى حدود الوعى الذي اتيح له بالنسبة للحقبة التاريخية ، وتأتـــى (الرسالة الكبرى لاسماعيل فى مقدمة الرســائل الاجتماعية ، وان لم ينشئهــا الا جوابا عن كتاب اليه تلقاه من السلطان المولى اسماعيل ، يحمله بعض التبعات ، ويلاحظ عليه بعض الملاحظات تــؤول فى نظر السلطان الى معنـــى العصيان والعصــبيـــة ، فيضطر اليوسى الى الاجابة بتفصيل عن رسالة السلطان نقطة نقطــة وفقرة فقرة .

ونستطيع أن نجمل أهم النقط التى طرقتها الرســالـــة فى مجال الفكر السياسى ، فى المسائل الآتية :

1) تحديد نصاب الطاعة الواجبة لاولياء الامر على الرعية. وفى هذا الصدد يرى اليوســـى ان القدر المطلوب من الطاعــة لاولى الامر على الناس هو الا ينازعوه ولا يخالفوه ولا يحاربوه وهنا يبدو لنا ان اليوسى لم يكن يدرك الجانب الايجــابى فى الطاعة المطلوبة حتى فى ضوء الالتزام بالاحكام الاسلاميــة نفسها ، ولهذا اقتصر على الجانب السلبى ، فحصر الطاعــة فى الامتناع عن الشغب والفتنة والمخالفة ، اما ما عــدا ذلك من الممارسات التى تدخل فى الحقوق التى للافراد مما هو مباح شرعا كالتصرف فى الاحوال الشخصية والاهتــمــام بالــشـؤون الاجتماعية وحرية التنقل ، وحرية الالتزام بالتوجيه العام او

عدم الالتزام به . فذلك كله لا دخل له فى طاعة السلطان أو خروج منها .و المبدأ العام فى هذا هو ان ما لم يكلفه الشرع فلا حق أن يكلفه ولى الامر ، وهو القائم بشؤون الشرع .

وقد كان اليوسى يقرر هذا المبدأ بصدد الدفاع عن نفسه تجاه المآخذ التى وردت فى رسالة السلطان المولى اسماعيل عليه ، نراه يقرر ذلك فى عبارات حاسمة صريحة ، معززة بالدليل الشرعى ، وكأنها تريد أن تستخلص الاساس الشرعى لحرية الفرد داخل المجتمع تجاه السلطة او تجاه الآخرين فى مجتمع لم يكن يدرك بعد معنى حقوق الفرد خارج الاطار الشرعى .

2) ضرورة قيام الحكم على أساس تطبيق الشريعة وتنفيذ أحكامها والانتهاء بنواهيها . ويستقى اليوسى الأمثلة والشواهد لتقرير هذه الحقيقة من حكم الخلفاء الراشدين ، ولمن تبعهم واقتدى بهديهم من الخلفاء اللاحقين ، واقفا عند الامثلة المتعددة لاولئك الخلفاء ، الذين حكموا الشريعة من غير تردد واستمعوا الى النصيحة حين قدمها العلماء ، وآثروا تحكيم العقل على الهوى والشرع على الشهوة . وفى هذا الاتجاه تأتى رسالته الاخرى (رسالة ندب الملوك للعدل) (17) ، وتأتى فى نفس الاتجاه السياسى الاجتماعى ايضا (رسالته الصغرى) (18) المعروفة

---

17) سبقت الاشارة اليها فى حاشية (15) .

18) توجد مستقلة فى عدة مخطوطات ، منها مخطوطة بالمكتبة الملكية رقم 7754 .

ببراءة اليوسى ، وهى التى ناقش فيها مسألة جباية الأموال ، ومسأله الجهاد ، ومسألة القيام بحقوق العدل ، وما يتصل بذلك عند اختلال الاحوال فى هذه الامـور ، والنصـح باصلاحها .

ويستوقفنا فى هذه الرسائل خلق العالم المسلم عند اليوسى ، فقد تحلى بالصراحة والشجاعة فى توجيه الملاحظـة واسداء النصيحة . ولا أدل على ذلك مـن قوله وهـو يخاطب المولى اسماعيل : « وليعلم سيدنا أن أول العدل أن يعدل فى نفسـه ، فلا يأخذ لنفسه من المال الا بحق ، ويسأل العلماء عما ياخذ ويعطى وما يأتى وما يذر . »

3) منح حرية الفكر ، وجعل العلماء ــ وهم الممثلون للفكر ــ فى سعة من الالزام السياسى . وهو ما عبر عنه اليوسى بعلاقة العلماء بالملوك . وهو فى هذه النقطة يرجـع الى تاريـخ تلك العلاقـة التى عرفتهـا صلـة الملـوك بالعلماء المتقدميـن ويرى كاستنتاج من مجموع تلك العلاقة عبر العصـور أنهم كانوا بين اثنتيـن :

ــ فاما الاتصال بالملوك والسلاطين خدمة للمآرب ، وطلبا للتوسع فى المكاسب ، أو للتمكن من الظفر بالمنافسين والخصوم .

ــ واما الانعزال عنهم تفرغا للعلم وقيامـا بحقوق تلقيه وبذله ، تساميا بأنفسهم عن مغريات الدنيا التى لا تجد متسعا فى صدور العلماء ، عملا بالحديث (من ازداد علما ولم يزدد زهدا لم يزدد من الله الا بعدا) . وهو لذلك ينصح السلطان بألا يلزم العلماء بملازمته للاعتبارات التى يحللها ، كما ينصحه بألا يصنع

صنيع الملوك المغاربة قبله من الموحدين والمرينيين ، الذين ألزموا العلماء بصحبتهـم ، وأن عليه أن يقتـــدى بدلا منهم بالخلفاء الراشدين .

هذا جانب هام من رسائل اليوسى وبعض آثاره ، يكشف لنا عن ملامح الفكر للسياسى عند هذا العالم المغربى ، يمكن أن يقف بفضله الى جانب أعلام الفكـــر السياسى الاسلامى الذين رصدوا مؤلفات بذاتها لهذا الموضوع او نشروا أفكارهم فى ثنايا رسائل ومؤلفات عامة أمثال ابن مسكويه والطرطوشى والماوردى وابن جماعة وابن تيمية وابن القيم وابن خلدون .

لقد كان اليوسى مثال المثقف المسلم أو الفقيه المسلم ، حين قام بالتزامه الفكرى تجاه مجتمعه وعصره ، وتجاه السلطة الشرعية فيه . وفى ضوء الثقافة الاسلامية لا يمكن الفصم بين العلم والعمل ، أو الحكم الشرعى والممارسة .

وتلك هى الثقافة المسؤولة كما يحددها الاسلام نفسه . ولا سيما حين يكون الظرف التاريخى داعيا الى هذا الالتزام الدينى والفكرى ، مثل الظرف الذى عاش فيه اليوسى ، فعمل جهده على تثبيت المسائل الآتيه :

ـ تثبيت السلطة الشرعية فى البلاد ، لاستعادة المشروعية .

ـ بعث الوعى الدينى والاجتماعى ، ونقد الشعوذة وفضح أصحابهـــا .

ـ توجيه السلطة نحو مسؤولياتها .

ـ تقديم النصح والتوجيه والتعليم لكل من يتطلع الى ذلك .

ولا نستطيع أن نقدر هذه المسائل حق قدرها الا اذا نظرنا الى الفترة التاريخية التى عاش فيها اليوسى ، تلك الفترة التى سادها الخوف ، وتحكمت فيها الدسائس ، وأخذ فيها الناس بمجرد الريبة والظن . فقد كان العصر عصر بناء وهدم ، وكانت مهمة العالم المثقف هو اختيار المسالك وتمييز المواقع بين هذه المتناقضات كلها ، والحفاظ على التوازن بين جواذب النفس ومغرياتها ، وبين داعى الواجب وهواتف الضمير . ولا نعتقد أن اليوسى اضاع توازنـــه بين هــذه المطالب ، أو ضـــل سبيله بين تلك المتناقضات ، أو تخلـــى عن التزامـــه بوصفـــه عالما مسلما اتجاه أمته وتاريخ بلاده . لقد كان عطاء اليوسى الفكري والسياسى صورة من التحام العناصر الثقافية والاجتماعية ف فكر هذا العالم وبهذا المعنى كان مثقفا حقيقيا . حاضر الوعى ، شاعرا بالمسؤولية . وذلك مبلغ ما يمكن أن يرجى من مثقـــف يلتحم بمجتمعه ، ويجعل نفسه شاهدا عليه ووجدانا نابضـــا بحبه والنصـــح لـــه .

فـــاس **محمد الكتانى**

الحسن اليوسي اللغوي
في كتابه
"زهر الأكم في الأمثال والحكم"

د. محمد حجي

غلب التصوف والصلاح على شخصية الحسن اليوسي ، وطغت مشاركته وتآليفه المتنوعة فى المواضيع الدينيّة والعقليّة والأدبيّة على تخصصه كعالم لغوي بالدرجة الاولى . وقديماً اشتهرت قولة اليوسى : « لوشئتُ ألا أتكلم إلّا شعراً لفعلت !» فأنكرها المكابرون الجاهلون وعدوها ضرباً من الفخر النّزق والحذلقة الجامحة ، وعَرَف صدقَها وأحقيتها المنصفون الموقنون بمدى ضلاعة الرجل فى اللغة العربية وآدابها . والعرب بالباب — كما يقول المثل — فهذا **ديوان اليوسى** الضخم يدل — على نقصه — دلالة قاطعة على مكانة الشاعر وامتلاكه ناصية اللغة يتصرف فيها على نحو ما تتصرف العرب العرباء . بل هذه **داليته فى تهنئة** ومدح الشيخ مَحمّد

ابن ناصر الدرعي نافست المعلقات المذهبات بل فاقتها طولاً حيث تُعَدُّ أبياتها بالمئات ، وجارَتْها في متانة التركيب وجزالة اللفظ والصدق في تمثيل الطبيعة وتصوير العاطفة . وهذه **رائيته** البديعة في رثاء الزاوية الدلائية تأخذك منذ المطلع ، وأنت ترى عين الشاعر تفيض من الدم الاحمر كالعقيق ، وتشدُّك شدّاً لقراءة أبياتها البالغة نحو المائتين ، فيخيَّل اليك حيناً أنك مع امرىء القيس ، وحيناً مع زهير بن أبي سلمى ، وأحياناً أخرى مع غيرهم من فحول الشعراء الجاهليين والاسلاميين .

ليست تلك القدرة البالغة في قرض الشعر إلّا مظهراً ثانوياً لعربية اليوسي وتخصصه ، وانما تتجلى مكانته اللغوية وأصالته أكثر فيما كتب من نثر ، سواء منه النثر الفنيُّ المنمق الذي يستهويك ولا تكاد تفهمه الا اذا أحطت نفسك بمعاجم اللغة وكتب البلغاء ، أو النثر المرسل الذي يستخفك ويفيدك دون كبير عناء . وذلك ما تجده في مؤلفات اليوسي المختلفة ورسائله المطولة والمختصرة . وإنك لَواجدٌ في كتاب **زَهْر الأكَم في الأمثال والحِكَم** بصفة خاصة ضروباً من النثر والشعر تدلُّك – متى قرأت وأمعنت النظر – على مصادر تلك الثروة اللغوية الطائلة ، ألا وهي فهم القرآن والحديث ، ثم حذق آثار اللغويين والبلاغيين القدامى أمثال الصومعي وسيبويه وثعلب والزمخشري وأضرابهم ، والاحاطة بأشعار الجاهليين والاسلاميين ، ومن أتى بعدهم من المشارقة والمغاربة والاندلسيين.

ويرجع عهد اشتغال المسلمين بالأمثـــال الى العصـــر العباسيّ الأول فى نطاق تلك الحركـــة الرائدة لجمع اللغـــة وتدوينهـــا ، فرويت الامثال ضمـــن أيام العرب واشعارها ، وأخبار فرسانها وأجوادها وأقيالها وصعاليكها . ثم أخـــذ اللغويون يفردون الأمثال بالتأليف فى القرون التالية ، واشتهر من بين ذلك كتاب **مجمع الامثـــال** لأبي الفضل أحمد بن محمـــد النيسابوري الميدانى المتوفى عام 1124/518 . وقد أشـــار الميدانى فى مقدمة كتابه الى صعوبة التأليف فى هذا الموضوع ، ورجوعه الى نحو خمسين كتابا مما كتبه مَنْ تَقَدَّمـــه مـــن اللغويـــين .

ثم يجيء اليوسي فى القرن الهجري الحادي عشر الـــذي خمدت فيه جذوة الدراسات اللغوية وطا ل العهد بها لا سيمـــا فى أقصى الغرب الاسلامي ، فيضع تصميماً لكتاب فى الأمثال يفوق – لو تمّ – كتاب الميدانى وغيره من المتقدمين . ويشتمل تصميم **زهـــر الأكـــم** على ستة وستين باباً مقسمة قسميـــن أو سمطين ، فى السمط الاول الأمثال وما يلتحق بها ، فى مقدمة وخاتمة وأربعة وثلاثين بابا ، تسعة وعشرون باباً فى الأمثـــال المرتبـــة على حروف المعجم ، والأبواب الخمسة التالية فـــى الامثال التركيبية ، والاعيان ، والامثال القرآنية ، والحديثية ، والتشبيهات الشعرية . ويحتوي السمط الثانى على الحكم وما يلتحـــق بها فى اثنين وثلاثين بابا ، تسعة وعشرون فى الحكـــم المرتبة على حروف المعجم ، وفى الابـــواب الثلاثة الاخيـــرة طائفة من الحكم المجموعة ، والنوادر ، والأوليات .

ويشاء القدر ألا يمهل عالمنا ليحقق غرضه كاملا من الكتاب، فيموت وهو لم يكتب منه غير المقدمة والخاتمة وأربعة عشر باباً من السمط الاول ، غير أن المقدمة وحدها كافية للدلالة على المكانة اللغوية للحسن اليوسى وقوة عارضته وسعة تفكيره ، وفيها يعجب القارىء عندما يعرف أن اليوسي ألَّف **زهر الأكم** دون أن يطلع على أي كتاب من كتب المتقدمين فى الامثال ، وانما رجع الى قريحته وحصيلته اللغوية الخاصة . ويؤكد هذه الدعوى ، فضلا عن مروءة اليوسى وعدالته ، مقارنة ما كتبه فى **زهر الأكم** بما كتبه الميدانى فى **مجمع الأمثال** ، فشتان بين مُشرِّقٍ ومُغرِّب ! ولا يظهر التباين بينهما فى اختيار الأمثال وترتيبها فحسب ، وإنما يظهر أيضا فى طريقة معالجة الأمثال التى توارَدَا عليها ، اذ لكل منهما طريقته فى الشرح والتعليق .

وهناك الطابع المغربى فى **زهر الأكم** يتمثل فيما اختاره اليوسي من أشعار المغاربة والأندلسيين ، كقول مالك ابن المرحل :

لا تُخالِفْ مالكاً فى رأيهِ فبه يأخذُ أهلُ المغربِ

وفى الأمثال المغربية المتداولة فى عصره والتى أورد عدداً غير قليل منها عند المناسبات فى ثنايا الأبواب ، لكنه « فَصَّحها » ولم يذكرها بلسان العامة ، واضطُرَّ بسبب ذلك الى تغيير بعض ألفاظ هذه الأمثال ليستقيم تركيبها الفصيح ، ولم يحتفظ باللفظ العاميّ إلا نادرا كالسَّبَّاط مثلاً في قولهم « اِمْشِ بالنَّعلين

حتى تجِدَ السّبّاط » ، أورده فى باب الباء مع المثل العربى : « يُبْلَغُ الخَصْمُ بِالقَضْم » .

وربما كان من المستحسن هنا أن نورد نموذجاً من نثر اليوسي فى مقدمة **زهر الأكم** ، ومثلاً منه لمقارنة شرح اليوسي بشرح الميداني . يقول الحسن اليوسى فى فضل اللغة العربية وشرف أمثال العرب وشكوى الزمن :

« . . . وان الخِصّيصَى التي بها شرفُ الانسان ، إنما هى العلمُ واللسان ، فإنَّ المرءَ لو بلغ فى كمال الجسم والجمال أطْوَرَيْه ، لا يكون إنساناً إلّا بِأصْغَرَيْه . . . وما امتاز اللسِنُ الذكيّ عن العَيِيّ الغبيّ إلّا برجاحة الْجَنانِ ، وفصاحة اللسان ، فان الْخَلِيق للأفكار ، عند افتراعِها المعانيَ الأبكار ، والجديرَ للألسنة عند اقتطافها أزاهيرَ البيان ، واهتصارِها أفانينَ التّبيان ، أن يَتَميّزَ فيها الفائقُ من المائق ، والسابقُ من السائق ؛ وعند مزاولة الغرض المُعضِل ، أن يُعرَف المقرطِسُ من المُخْضِل ، وعند انتياشِ مضاربِ الأفْهام ، أن يمتاز الصارمُ عن الْكَهَام ، وعند اقتباس حكمةٍ تُسْتَشْعَر ، أن يشرُفَ المُورِي عن الْأَدْعَرِ ، وعند اقتسام مزايا الفضل الفسيح ، أن يفوز المعلّى دون السّفِيح ، وعند استفتاح المَغَالِق ، وتَغَشّي المضائق ، أن يُعلَمَ المُجْحِمُ من المُحْجِم ، والهَصورُ من الحَصورْ . فلا جَرَمَ كان من أجلّ العلوم وأفخرِها ، وأحقّها بالاعتناء به وأجدرِها ، علمُ الأدب ، والتضلّعُ من كلام العرب ، إذْ به تنحلُّ عُقْلةُ اللسان ،

وتُزاحُ رَوْعةُ الجَنان . وهو لسان نبينا نُخبةِ العالَم ، وصفْوةِ وَلَدِ آدم ، وكتابُه الـذي أخرس به مَصاقِعَ البيان ، من بُلغاء عدنانَ وقحطان ، حتى عدَلوا عن المجادلة إلى الطِّعان ، وعن المعارضة الى الإذعان . صلى الله وسلم عليه وعلى آله ما لَمَعَ بـــارق ، وطَلَع شارِق . فهو لعمري أجلُّ الكلام ، وأشرفُ ما اعتَوَرَتْـــه الألسنةُ والأفهام ، وأبهى بدرٍ يُسْتَجْلى وعروس ، وأسنى أثـرٍ يُستَبْقَى فى ميادين الطُّروس . لا سيَّما علمُ أمثالِها التي هي زِمامُ كلِّ معنى ، ومَناطُ كلِّ مَبْنى ، ومنارُ كلِّ مَرْمَى ، ومصباحُ كـلِّ ظَلْمًا ، وبها يرتاضُ كلُّ جَموح ، ويُصبح المنبهِمُ ذا وضـوح ، وبها يعود الغائب مشهودا ، بل المعدومُ موجودا .

وكان الاقدمون بهذا الفن معتنين ، ولنوادره مُلَقِّنيـــــن ومُدَوِّنين ، يَرِدُونَ مَوارِدَها ، ويقتنصون شوارِدَها ، ويقتطفون أزهارَها النَّضِرَة ، ويتنسَّمون نسماتِها العَطِرة ، ويرتشفـــون ثغُورَها ، ويقتبسون نُورَها ، ويَشيمُون لَمَحَاتِ تلك البَوارِق ، ويَشِمُون بِدُرَرِها صفحاتِ المَهارِق . فلما طال العهدُ بأزمان العرب، وقُضِي مِن تناسي أيامِها كلُّ أرب ، تغلبتِ العجمةُ على الألسنـة والطباع ، فخَلَتْ مِن قَطِينِها هاتيك الرِّباع ، وأصبحت حديثـاً مهجورا ، كأن لم تكن شيئًا مذكورا ، وكانت أيامها محـــضَ أوهام ، فكأنها وكأنهم أحلام ، وتقلَّص ضافي بُرْدِها ، وتكدَّر صافي وِرْدِها ، وذهبت المعارفُ والعوارف ، وتقلَّص ظلُّهــا الوارف ، وأمست رِباعُ الأدبِ قَفْرا ، وراحتِ الخواطرُ منــه صِفـــرا .

وكانت لي نفسٌ تَشُوقُني إلى هذا الفنّ ومآثره ، وتُنازِعُني إلى تتبّع دائِره ، فكنتُ أشتاقُ أن أرَى في هذا موضوعا ، وأُصادِفَ كتاباً مجموعا ، ممّا عُنِيَ به الأقدمون ، واقتفى أثرَهم فيه المتأخّرون ، فلم يسمَحْ بذلك الدهرُ العقيم ، ولم يُظفِرْ بشيءٍ منه الجَدُّ السّقيم ، ولما لم أذُقْ من ذلك لَماقا ، ولم يَزْدَدِ القلبُ إلاّ اشتياقا ، طفِقتُ أجولُ في عَرَصات كتب الأدب ، وكلِّ ما لَهُ ماسّةٌ بكلام العرب . ولم أزل أتتبّعُ ظِلالَها ، وأشْتَفُّ بِلالَها ، وأرعاها قُنَناً وَوِهادا ، وأنْتَجِعُها فُتُوحاً وَعِهادا ، وأحتلِبُها شَصائِصَ وَشَكارَى ، وأعتنِقُها عُونًا وأبْكارا ، حتى التقطتُ مِن ثمينِ جَوْهَرِها ، واقتطفتُ مِن يَنِيعِ زَهْرِها ، ما يَشْفِي العَليل ، ويَنْقَعُ الغَليل ، ويَمِيسُ مَيْسَ الغُصنِ المَرْوح ، ويسري في الجسوم مَسْرَى الرُّوح . فلما امتلأ بحمد الله من ذلك الوِطاب ، وعاد البَلَحُ إلى الإرطاب ، هَمَمْتُ أن أجمعَ ما علِقَ في هذا الوقتِ بخاطري ، مما تَرَقَّى اليه نَظَري وناظِري ، في كِنٍّ يُؤْوِيه ، ومجموعٍ يَحْوِيه ، حِذاراً من النِّسيان ، عند تطاوُلِ الزّمان ؛ فألّفتُ هذا المجموعَ في الأمثال ، وأودعتُه كلَّ دُمْيَةٍ وتِمْثال . ثم رأيت أن أضُمَّ اليها من الحِكَم جملةً ممّا انتهيتُ اليه ، ووقفتُ عند تَطْوَافِي عليه ، تتميماً للفائدة ، وتكميلاً للعائدة ، مع قُرْبِ ما بين النّوعين جِدّا ، كما ستقفُ عليه عند التعرُّضِ لهما فَصْلاً وَحَدّا . فجاء بحمد الله كتاباً مُمْتِعا ، لِلآذانِ الصُّمِّ مُسْمِعا :

جمعتُ به والجفنُ مُغْضٍ على القَذَى
وبِالخَلَدِ البَلْبالُ أصبَح ذا خُلْدِ

محاسنَ تُزْرِي بالنَّسيمِ إذا سَرَى
فحيَّى مُحَيَّا السَّوْسَنِ الْغَضِّ والْوَرْدِ

وتُزْرِي بهاءً بِالْمطِيرِ مِن الرُّبَى
وبالعَذْبِ للصَّادِي وبِالْكاعِبِ الرَّأْدِ

لآلِئُ ما غوَّاصُها بمُصادِفٍ
لها صَدَفاً في مُلْتَقَى أَبْحُرِ الْهِندِ

ولا حُلِّيَتْ يوماً بها جِيدُ غادةٍ
ولا فُصِّلَتْ بِالْعَسْجَدِ الصَّرْدِ في عِقْدِ

فرائدُ ما منهنَّ إلاَّ خَرِيدَةٌ
أَعَزُّ على الْمُرْتَادِ في الأَبْلَقِ الْفَرْدِ

ومع هذا فإنِّي أعتذر لذوي النفوس الوقَّادة ، والصَّيارفةِ النَّقَّادة ، مِن تقصيرٍ فيه ، وخَلَلٍ لم يَتَّفِقْ تلافيه . وكيف لا يُعْذَرُ ذو بالٍ مُتَقَسِّم ، ووَبالٍ مُتَكَسِّم ، وشخصٍ لا يَبِينُ لِمُتَوَسِّم ، مكلومٌ بِفاغِرٍ مِنَ الخُطوب مُتَبَسِّم ، يَرْمُقُ العَيْشَ بَرْضا ، ويَقطعُ بَسِيطَ الحَيْرة طُولاً وعَرْضا ، لا يَتَرَجَّى مَدَدا ، إلاّ كان كمَدا ، ولا يَغتَبِقُ إلاَّ عَبْرَة ، ولا يَعْتَنِقُ إلاَّ زَفْرَة ، ولا يَعُدُّ إلاّ ذُنوب الدهر ، ولا يُعِدُّ إلاّ ذَنُوبَ نَهْر ، في فِتَنٍ تحولُ بين المرءِ وقلبه ، وتُذْهِلُ غَيْلاَنَ عن حِبِّه ، ودهرٍ حَالَ دُونَ الْقَرِيض ، بِالشَّجَى والْجَرِيض ، وَرَدِّ الأَوْجِ إلى الْحَضِيض ، ولم يجعل بُدّاً مِن مُصادقةِ الْبَغِيض ؛ وأعادَ الصُّدورَ أَعْقابا ، والنَّواصِيَ أَذْنابا ، وكَدَّرَ كُلَّ صَفْو ، وأَوْرَثَ كُلَّ شَجْو ، وخَلَّف مِن بَنِيه كجِلْدِ الأجْرَب ، وزَبانَى

العقرب ، لا يتجرّعون إلاّ عَلاقِم ، ولا يَلْتمِسُون إلاّ أراقِم . أمّا أذنابُها فرَعَاع ، وشَرّ شَعَاع ، وفتنة وِرْدُها قُعَاع ، وظُلْمة ليس بها شُعَاع ؛ وأمّا ذُرَاها فلا تَعْدُو رضيعاً تَبْكِي المَخَاضَ الجُرْبَ لِمُصَابِه ، وتشكو الصُّفْرُ والبِيضُ يَدَ الضَّياعِ لِصِفْرِ وِطَابِه ، وخليعاً يذهَبُ دهرُه ما بين الزَّخِّ والزُّخَّة ، والفَخِّ والفَخَّة ، وكِلَا النَّوْعين قد أنزلَهما أَسْوَدُ العينِ طَرَفَه ، وتضمَّنهما القَمَرانِ المُشْتَبِهان في بَيْتِ طَرَفَة .

وكان الأدب وسائر العلوم قديماً إنَّما يُحيِي غِرَاسَهَا ، ويُشْنِي مِرَاسَها ، ويُطَيِّبُ أَنْفَاسَها ، ويُحبِّبُ نِفَاسَها ، الفَضْلُ الهَام ، والعَدْلُ الجَام . فأمّا اليومَ فلا نَدًى يَسْتَثْمِرُ الإبداع ، ولا انتصافَ يَتَلافَى الإنْصِدَاع ، فأيُّ علمٍ يُرْتَجَى مِمَّنْ زوالُ الرَّوْعِ عنده مُنتهَى الرَّجَا ؟ قنُوعٍ مِنَ الغنيمةِ بالإِيَاب ، ومن الإيرَاب ، بنُفَاضَةِ الجِرَاب ، ومِنَ الشَّراب ، بِلَمْحَةِ السَّرَاب ! وكيف يمكنُ لمثلي أن يَجْمَعَ بين كلمتين ، فضلاً عن فَصْلَين ؟ لكن لما لم يكنِ التَّجَزُّعُ عند حلولِ الأقدار ، مِن شِيَمِ الأحرار ، قَبَضْتُ على أحرَّ مِنْ جَمْر ، وتجلَّدْتُ على ما بِي مِنْ ضُمْر ، وثَنَيْتُ الضُّلوعَ على أذَاهَا ، وأغضيتُ الجفونَ على قَذَاهَا ، فجمعتُ هذه الأحرفَ على حِينَ لم يَبْقَ من العلم إلاّ رَسْمُه ، ومِن التَّحقيق إلاّ اسمُه ، مِن غير كبيرِ عُدَّةٍ أعتمِدُ عليها ، وأرجِعُ عند المُعْوِصَاتِ إليها ، ولا وُجُودِ مُصَنَّفٍ في هذا الفنِّ أهتدِي بمنارِه ، وأستضيءُ بضَوْءِ نَهارِه ، وانما اقتدحْتُ الفِكْرَ السَّادِر ، فاقْتَرَحْتُ نوادِر ، جَمَعْتُها من كلِّ أَوْب ، وحَدَرْتُها مِن كلِّ صَوْب ، ولا أكادُ مع ذلك أجدُ مَثَلاً منها مُتكلَّماً عليه ،

ومُنَبِّهاً فيه على ما يُحتاج إليه . وانما يُذكَـرُ جُلُّها مُجـَرَّداً ، فَأَلْتَقِطُهُ مُفرَداً ، ثم أتحمَّلُ أعباءَ شرح ألفاظِه ومعانيه ، وأتكلَّفُ مِنْ دواوين العرب ومَنْ بَعْدَهُم إحضارَ شواهدِهِ ومَبانِيـه . فكنتُ في ذلك ثِبْتَةَ الواضعِ وان سُبِقْتُ ، والمُخترِع وإنْ نَقَلْتُ . وأضفتُ إلى ذلك مِن نفائسِ النَّوادِر دُرَرا ، ومِن نُكَتِ الفوائدِ غُرَرا . وجمعتُ فيه من شعر الأقدمين والمُحْدَثِين عيونـا ، وقضيتُ مِن غريبه دُيونا . وما ذكرتُ شعراً إلاّ اخترتُه ، ولا أَلْمَمْتُ بِمَنْزَعٍ إلاّ حَرَّرْتُه ، ولا دفعتُ إلى مُبْهَم إلاّ أوضحتُـه ، ولا افتتحتُ باباً إلاّ أتمَمْتُه ، مع جملةٍ وافرة من عِلْمِ اللغة ، تكونُ للمقتصر عليه كفايةً وبُلْغَة ، لولا أنّي رُمْتُ بَذْلاً علـى تقتير ، وإنْباضاً بِلاَ تَوْتير . فإنْ جاء وفْقَ الغَرَضِ ، وقَضـى الحقَّ المُفْتَرَض ، فَلِلَّه تعالى المِنَّة ، ومنه الحَوْلُ والمُنَّة ... »

❖

وهذا مَثَلٌ من الأمثال الواردة فى كتابي الميداني واليوسي ، نقدِّم أوّلاً نصّ ما كتبه الميداني — وهو قليل — قبل أن نأتـي بكلام اليوسي انرى الفرق بينَ الشرحين والتعليقين للمثل :

أَنا جُذَيْلُها المُحَكَّكُ وَعُذَيْقُها المُرَجَّبُ

يقول الميداني (1) :

(1) **مجمع الامثال** تحقيـق محمد محيي الدين عبد الحميد ، طبعـة دار الفكر الثالثة ، 1393 هـ/1972 م ، الجزء الاول ، ص. 31–32

« الجُذَيل : تصغير الجِذْل ، وهو أصل الشجرة . والمُحَكَّك : الذي تتحكَّكُ به الإبلُ الجَرْبَى ، وهو عُودٌ يُنصَب فى مبارك الإبل تتمرَّسُ به الإبلُ الجَرْبَى . والعُذَيْق : تصغير العَذْق – بفتح العين – وهو النخلة . والمُرَجَّبُ : الذي جعل له رُجْبَة وهى دعامة تُبنَى حولها من الحجارة ، وذلك إذا كانت النخلة كريمة وطالت تخوَّفوا عليها أن تنقعِر من الرياح العواصف. وهذا تصغير يراد به التكبير ، نحو قول لبيد :

وكلُّ أناسٍ سوف تدخلُ بينهم   دُوَيْهِيَّةٌ تَصْفَرُّ منها الأَناملُ

يعنى الموت. قال أبو عبيد : هذا قول الحُباب بن المنذر بن الجَموح الأنصاري ، قاله يوم السقيفة عند بيعة أبى بكر ، يريد أنه رجلٌ يُستشفَى برأيه وعقلِه .

***

ويقول الحسن اليوسي فى شرح المثل السابق :

« لما قُبِض النبيُّ صلى الله عليه وسلم اجتمعت الأنصار إلى سعد بنِ عُبادة في سَقِيفة بني ساعدة ، فأتاهم أبو بكر وعمر وغيرُهما من المهاجرين – رضي الله تعالى عن الجميع – فتكلم أبو بكر ، والقصةُ مشهورة ، وتكلم رجلٌ من الأنصار ، وفى رواية : وهو الحُباب بن المنذِر ، فقال : أنا جُذَيْلُها المُحَكَّك ، وعُذَيْقُها المُرَجَّب ، مِنَّا أميرٌ ومنكم أمير !

● والجُذَيْل : تصغير جِذْل ــ بكسر الجيم ، وتُفتَح ، وبالذّال المعجمة الساكنة ــ . والجِذْلُ : ما عَظمَ مِن أصول الشجر ، أو أصلُ الشجر وغيرها بعد ذهاب الفرع . والجمع أَجْذَال وجُذُول وجِذَال وجُذُولَة . قال امرؤ القيس :

كأنّ على لَبّاتِها جَمْرَ مُصْطَلى
أصابَ غَضاً جَزْلاً وَكُفّ بِأَجْذَالِ

● والجِذْلُ أيضاً : عودٌ يُنْصَبُ لِلْجَرْبَى لتَحْتَكّ به ، وهو المقصود هنا . ويقال : هو عودٌ يُنصَبُ فى مَبْرَكِ الإبل تَحْتَكُّ به لتُزِيلَ ما عليها من قُرَادٍ وكلِّ ما لزق بها فتَسْتَشْفِي بذلك ، ويكون كالتَّمَرُّغ للدَّابَّة . قال الراجز :

لاقَتْ على الماءِ جُذَيْلاً وَاتِدا

ويُضرَبُ مَثَلاً للرجل فيقال : هو جِذْلُ مُحَاكَّةٍ وجِذْلُ حِكَاك . قال الأصمعي : قلت لأعرابيّ : أَلكَ بَنُون ؟ قال : نعم ، وخالِقِهِمْ لم تَقُمْ على مِثْلِهِم مُنْجِبَة . قلت : صِفْهُم لي . قال : جَهْمٌ وما جَهْم ! يُنْضِي الوَهْم ، ويَصُدُّ الدَّهْم ، ويَفْرِي الصُّفوف، ويُعِلُّ السُّيوف ! قلت ثمّ مَنْ ؟ قال : غَشَمْشَمٌ وما غَشَمْشَم ! ما له مُقْتَسِم ، وقِرْنُه مُجَرْجَم ، جِذْلُ حِكَاك ، ومِدْرَهُ لِكَاك ! قلت ثُمَّ مَن ؟ قال : عَشَرَبٌ وما عَشْرَب ! لَيْثٌ مُحَرَّب ، وَسِمَامٌ مُقَشَّب ، ذِكْرُه باهِر ، وخَصْمُه عَاثِر ، وفِنَاؤُهُ رِحَاب ، وَدَاعِيهِ مُجاب ! قلت : فَصِفْ لِي نَفْسَك ! قال:ليثٌ أبُو رَيَابِل : رَكّابُ مَعَاضِل ، عَسّافُ مَجَاهِل ، حَمّالُ أعباء ، نَهّاضٌ بِبَزْلاء !

قوله يُنْضِي الْوَهْمَ أي يُهْزِلُ الوَهْم ، وهو الجمل الضَّخم من قوته .

ويَصُدُّ الدَّهْم أي يكُفُّ الدَّهم ، وهو العددُ الكثير من العدُوّ.

ويَفْرِي الصُّفوف : أي يَشُقُّها فى القتال مُقدِماً .

ويُعِلُّ السيوفِ : أي يُورِدها دماءَ الأَقران مرةً ثانية ، مِنَ الْعَلَلِ فى الشُّرب .

وقوله قِرْنُه مُجَرْجَم : أي مُبارِزُه مُجَرْجَم أي مَصْرُوع .

وجِذْلُ حِكَاك : أي يُستشْفَى بِه فى الأُمور ، كالجِذْلِ المنصوب الذي تستشفي به الإبلُ الجَرْبَى .

والمِدْرَه : لسانُ القوم . واللِّكَاك : الزِّحام .

واللَّيث المُحَرَّب : المُغْضَب ، وهو أشدُّ ما يكون .

والمُقْتَشَّب : المخلوط . والباهر : الغالب .

والرَّيَابِل : جمع رِيبَال ــ يُهمَز ولا يُهمَز ــ وهو الأُسد .

والمُعَاضِل : الدَّواهِي . والعَسَّاف : الرَّكَّابُ الطريق على غير هداية .

والمَجَاهِل : القَلَوَات . والأَعباء : الأَثقال . والبَزْلاء : الرَّأْيُ الجيِّد ، وهو مثلُ سيأتى .

● وأما العُذَيْق فهو تصغير عَذْق . وهو بالفتح : النخلة بِحِمْلِها ، وبالكسر : القِنْوُ منها . والمقصود هنا الأول .

● والمُرَجَّب : المعظَّم . يقال رجَّبْتُه ترجيباً : عظَّمتُه . ومنه رَجَبٌ لتعظيمهم إياه . ويقال إن فلاناً لمُرَجَّبٌ أي عظيم . وحدَّث الأصمعي قال : مررت في بلاد بني عامر بحِلَّةٍ في غائطٍ يَطَؤُهُم الطريق ، فسمعت رجلاً يُنشِد في ظلِّ خيمةٍ له ويقول :

أحقّاً عبادَ اللهِ أنْ لستُ ناظراً ... إلى قَرْقَرَى يوماً وأعلامِها الغُبْرِ
كأنَّ فؤادي كُلَّما مَرَّ راكبٌ ... جناحُ غرابٍ رامَ نَهْضاً إلى وَكْرِ
إذا رحَلَتْ نحوَ اليمامةِ رِفْقَةٌ ... دَعَاكَ الهوى واهْتاجَ قلبُكَ للذِّكْرِ
فيا راكبَ الوَجْنَاءِ أُبْتَ مُسَلَّماً ... ولا زِلْتَ مِنْ رَيْبِ الحَوادِثِ في سِتْرِ
إذا ما أَتَيْتَ العَرْضَ فاهتِفْ بِجَوِّهِ ... سُقِيتَ على شَحْطِ النَّوَى سَبَلَ القَطْرِ
فإنَّكَ مِنْ وادٍ إليَّ مُرَجَّبٌ ... وإنْ كُنْتَ لا تَزْدَادُ إلَّا على عُفْرِ

قال : فلما رآني مُصغِياً إليه أشار إليَّ فاستأنسني وأنزلني وصنع طعاماً ، فقلت : أنا إلى غير هذا أَحْوَجُ ! قال : ماذا ؟ قلت : تنشِدُني ! قال : أفْعَلُ . فلما أصبتُ من الطعام قلت : الوَعْدَ ! فأنشدني :

لقد طَرَقَتْ أمُّ الخُشَيفِ وإنَّها ... إذا صَرَعَ القَوْمَ الكَرَى لَطَرُوقُ
فيا كبِداً يَحْمَى عليها وإنَّها ... مخافةَ هَيْضَاتِ النَّوَى لَخَفُوقُ
أقام فريقٌ مِن أُناسٍ يَوَدُّهُم ... بِذاتِ الغَضَى قلبِي وَبانَ فريقُ

لحاجة محــزونٍ يظَلُّ وقلبُــه رهينٌ ببَيْضات الْحِجالِ صديقُ
تَحَمَّلْنَ إنْ هبّتْ لهنَّ عشيّـــةً جَنوبٌ وإنْ لاحتْ لهُــنَّ بُروقُ
كأنَّ فُضولَ الرَّقْمِ حينَ جَعَلْنَها غديّــاً على أُدْمِ الجِمالِ عُذُوقُ
وفيهنَّ مِن بُخْتِ النِّساءِ رِبَحْلَــةٌ تكــادُ بِها غُــرُّ السَّحابِ تَرُوقُ
هِجانٌ فامّا الدِّعْصُ مِن أُخْرَيَاتِها فَوَعْثٌ وأمّــا خَصْرُها فَدَقِيــقُ

فقوله « فإنك من وادٍ إليَّ مُرجَّب » : أي مُعظّم .
وقوله في القطعة الثانية :

كأنَّ فُضُولَ الرقم حينَ جعلْنَها غديّاً على أدم الجمال عُـذُوقُ

أي نَخْلات ، جمع عَذْق ، وهــو النخلــة كما ذكرنا قبــــل ، أو قِنْوَانُها . وهو تشبيه مشهور عند القدماء ، يُشبهون الحُمول والبُرود المرقومة فيها بالنخيل اذا أينع ثمرُها فاحمرَّ واصفــرَّ ؛ قـــال امرؤء القيس :

أو المُكْرَعَات مِن نخيلِ ابْنِ يامِــنٍ
دُوَيْنَ الصَّفا اللائي يَلِينَ المُشَقَّرا

سَوَامِقَ جَبَّارٍ أَثِيــثٍ فُروعُــهُ
وعَالَيْنَ قِنْوانــاً مِن البُسْرِ أحْمَرا

وقـــال أيضـــا :

عَلَوْنَ بِأنْطَاكِيَّةٍ فــوقَ عِقْمَــةٍ كَجِرْمَةِ نَخْلٍ او كَجَنَّةِ يَثْــرِبِ

وقد عُلِم اشتمالُ الكلامِ على مَثَلَين ، وليس مثلاً واحداً ، الا أنهما يَقتَرِنُ بينهما كثير . وفى مقامات البديع قوله : « حتى إذا مال الكلامُ بنا مَيْلَه ، وجرّ الجِدالُ بيننا ذَيْلَه ، قال أصبتم عُذَيْقة ، ووافَيْتم جُذَيْلة الخ » .

وقيل معنى أنا جُذَيْلُها المُحَكَّك : أنا صاحبُ رِهـان . والمحكّك : المعاودُ لها ، كما قال الراجز :

جِذْلُ رِهـانٍ فى ذِراعيه حَـدَب

أي الشّير . ويقال أيضا رجل محكّك أي مجرِّبٌ للأمور بَصِيرٌ بخيرها وشرِّها . وهو مدحٌ فى الرجال ذمٌّ فى النساء . قال الحماسِيّ :

لا تَنْكِحَنَّ الدَّهْرَ ما عِشْتَ أَيِّماً   مُجَرَّبَةً قـد مُـلَّ منها ومَلَّـتِ

ويقال أيضا : أنا جُحَيْرُهَا المُوَرَّب ، وعُذَيْقُـها المُجَرَّب . والجُحَيْر تصغير جُحْر وهو الغار . والمؤرّب المُوَفَّرُ المُلَمْلَم . ومعناه واضح من الذي قبلـه .

**

هكذا يكون اليوسى كتب فى شرح هذا المثل عشرة أضعاف ما كتبه الميدانى فيه . والمؤلفان وان اتفقا فى بعض الجزئيات من شرح المفردات وغير ذلك فان اليوسى قد امتاز عن صاحبه بأشياء نجمل الاشارة اليها ــ دون أن ندخل فى تفاصيل المقارنة ــ فيما يلى :

● والتَّرْجِيبُ في النخل : أن يُجعَل للنخلة دُكّانٌ تعتمد عليه أو تُدعَّم بشيء إذا كثر حملها لئلّا تتكسر . ويسمَّى ذلك الدكان الرُّجْبَة – بضم الراء – . وقيل : أن يغرز الشوك حولها حتى لا يوصل اليها . وقيل أن تُضَمَّ قِنوانُها الى سَعَفاتِها وتُشَدَّ بالخُوص حتى لا ينفضها الريح ، فيقال : نخلة مُرَجَّبَة ، وعِذْقٌ مُرَجَّب . ويقال أيضا نَخْلَة رُجَبِيَّة – بتخفيف الجيم وتشديدها – ويُنشد بهما قول الشاعر :

لَيْسَتْ بِسَنْهاءٍ وَلَا رُجَّبِيَّةٍ ولكنْ عَرَايا في السِّنِينَ الْجَوائِحِ

ولا يُرَجَّبُ من النَّخل الا الكريمة .

● واعلم أن التصغير في كلّ من الجُذَيْل والعُذَيْق للتعظيم على ما أثبت الكوفيون من ورود التصغير للتعظيم ، كقول لبيد :

فُوَيْقَ جُبَيْلٍ شامخٍ لن تنالَهُ بِقِمَّتِهِ حتّى تَكِلَّ وتَعْمَلا

وقيل للتقريب كما في بُنَيّ وأُخَيّ .

• وقد تحصل في معنى الكلام بجملته انه يقول : أنا الذي يُرْجَع اليه في النائبات ، ويُتمسَّكُ بذيله في المُلِمَّات ، ويُستَنَدُ إلى عقله في الحوادث المُدْلَهِمَّات ، ويُستشفَى بفضل رأيه في المُعضِلات المُعوِصات ، كالجُذَيْل الذي تَستشفي بالاحتكاك به الإبل . وأنا لي أيضاً أهلٌ يحفظوني ويأوونى ، وعُصبةٌ ينصرونى ويمنعونى ، كالنخلة الممتنعة برجبتها ، الكريمة على أهلها ، إذ لا يرجَّبُ من النخل إلا الكرام كما مرّ .

– نسب المؤلفان معاً المثل الى الحُباب بن المنذر خطيب الأنصار يوم السقيفة ، إلاّ أنّ اليوسى بيّنَ الإطار التاريخي للمثل بتلخيص حادث السقيفة واختلاف المهاجرين والأنصار . ثم لم يقتصر على لفظ المثل – كما فعل الميدانى – بل أتى بكلام الحُباب كاملا : « أنا جُذَيلها المحكَّك ، وعُذَيقها المرجَّب ، منا أمير ومنكم أمير ؛ » ليظهر وجه الافتخار والدعوى .

– أورد اليوسى معاني متعددة للجِذْل – بدل المعنى الوحيد عند الميدانى – وذكر جموعه مستشهداً ببيت امرىء القيس ؛ وقول الراجز ، وقصة الاصمعي مع الاعرابى أبى الربابل ، وشارحاً ما غمض فيها .

– أتى اليوسى بمادة (رجب) مبيناً معانيها الأُصلية والفرعية ، مستشهدا بالقطعتين اللتين رواهما الأصمعي عن العامري ، وقد ورد فى أولاهما : « واد مرجّب » وفى الثانية : « كأن فضول الرقم . . . عذوق » مبيناً كذلك اختلاف معانى العذق باختلاف فتح أوله أو كسره ، فى حين اقتصر الميدانى على معنى إجمالى للكلمتين معا .

ولم يفت اليوسي هنا أن يُنبّه الى ما اشتهر عند القدامى من تشبيه البرود الملونة بالنخيل الموقع ، مستشهداً بأبيات امرىء القيس ، قبل أن ينتقل للكلام عن ترجيب النخل وطرقه المختلفة عند العرب .

– افترض اليوسى لتصغير كلمتي المثل أُحد احتمالين : التعظيم على مذهب الكوفيين ، أو التقريب على مذهب غيرهم ،

فى حين جزم الميدانى أن التصغير للتكبير .

– بين الميدانى مضرب المثل فى الاخير بجملة واحدة :
« يريد أنه رجلٌ يُستشفَى برأيه وعقله » وهو بيان مبتور لا ينطبق إلا على الشطر الأول من المثل . فى حين أتى اليوسي بفقرة كاملة – كتبت بالاسود – تتساوق فيها العبارات المسجعات المتكاملات ، لتستوعب الشروح الضافية السابقة وتلخصها .

❋

اننا لم نقصد الى التنقيص من قدر أبى الفضل الميدانى أو غيره ، وانما قصدنا الى بيان أصالة الحسن اليوسى فى فن سبقه الميدانى الى التاليف فيه بستة قرون ، وسبقه غير الميدانى فيه بسبعة أو ثمانية أو تسعة قرون ، ومع ذلك كتب اليوسي ما كتب فى الامثال ، أواخر القرن الهجري الحادي عشر ، ابتكاراً على غير مثال سابق ، بل ودون أن يطلع على أي كتاب فى الأمثال ، وكأنَّ **زَهْرَ الأَكَمِ** أُلِف فى عصر ازدهار العلوم العربيّة أيام العباسيين ، إذ المصادرُ مصادرُ ذلك العصر ، والأسلوب متينٌ سليم ، والتفكير حر مبدع لا يعرف قيود التقليد والترديد .

الرباط **د . محمد حجى**

ملاحظة :

تم تحقيق الجزءين الاول والثاني من كتاب **زهر الاكم فى الامثال والحكم** من طرف الاستاذين محمد حجي ومحمد الاخضر ، وهما الآن قيد الطبع بمعهد الدراسات والابحاث للتعريب بالرباط .

شعر الحسن اليوسي

محمد ابن تاويت

أثر عن أبى على اليوسى ، أنه قال « لو شئت أن لا أتكلم الا نظما لفعلت » وهى قولة قالها أبو العتاهية فيما قبل بنحو تسعة قرون ، وحق لهما أن يقولاها ، وان كان البون شاسعا بينهما :

فأبو العتاهية شاعر قبل أن يكون ناظما ، أما أبو على فهو ناظم قبل أن يكون شاعرا ، اذ غالب شعره يتنسم بألفاظ وأساليب تجتنبها نواميس الشعر وطقوسه، ولا يعزب عنا هذا حتى فى عيون قصائده ، ان صح أن نسميها عيونا ، وهذه «العيون» تتسم بالكم ، أكثر مما تتسم بالكيف ، وعلى هذا الاساس ، نلتمسها فى الطوال من قصائده ، كداليته التى هنا بها الشيخ سيدى امحمد الناصرى ، ورائيته التى رثى بها الزاوية الدلائية ورائية أخرى

فى عزة النفس وعلو الهمم ، ونونيته التى أجاب بها الشيخ أحمد المباركى عن ابياته التى خاطبه بها .

واذ قلنا ما قلناه فى شعره على العموم ، فالمنتظر أن يخلو من الصنعة والتصنع ، وهذا واقع فى الغالب ، أما فى غير ذلك ، فقد حام أبو على حول الحمى لتلك الصنعة وهـذا التصنع ، وخصوصا فيما يتصل بالالفاظ فى جناساتها ولزوم ما لا يلزم منها وفى الالغاز بها .

هذا ما يتصل بالشكل ، أمـا ما يتصل بالموضـوع ، فان الاخوانيات طاغية فيه على غيرها ، يليها التوسل بالاولياء والتبرك بأضرحتها ومدح الرسول وصحابته ، والحنين الى الديار المقدسة، ومناجاة الذات القدسية ، ثم الحكم والنصائح ، فالعزوف عن المقامات التى تذل فيها رقاب الاحرار ، ومجابهة الخصوم ، خصوصا منهم علماء فاس الذين لم يعترفوا له بباعه الطويل ، حينا حل باظهرهم بأمر السلطان مولاى رشيد ، الذى كان يقدره حق قدره ، ويشير عليه بالنظم فى بعض آثاره الخالدة .

وباب الاخوانيات التى أسلفنا ، باب واسع ، يلجه ما له من أمداح لاحيائهم ومراثيه لامواتهم ، وتهانيه لكبارهم ، ونصائحه لصغارهم ، وقد يتحول الموقف فيهم ، فينال بعضهم بهجو يشبه العتاب ، أو ينال بذلك بلدهم ، بعد ما يكون قد مدحه ، أو قبل ما يكون قد مدح ، كما حدث منه تجاه تطوان ، التى أشاد بها اشادة لا تقل عنها اشادته بمدينة شفشاون وأهلها ، أو مراكش التى اقام بها طويلا ، ثم صار يحن الى وطنه الاول وأقاربه به ،

فهذه المدينة بالذات نالت منه حظوة ، لم تنلها سلا ولا القصر الكبير ، اللذان رثى لحالهما ولحال رجالهما ، ولم يذكر فاسا الا بالنعى على علمائها خاصة ، وسكت عنها نفسها ، كما سكت عن رجال مكناس أو فازاز اللتين ورد ذكرهما عرضا فقط .

والصفة الغالبة على شعره هى الجدية ، ولكنه لـم يشأ أن ينأى بجانبه عن الغزل والنسيب ، فقال فيهما على الاستقلال ، زيادة على ما قاله فيهما فى افتتاحيات قصائده العديدة .

ولاشك أنه كان يتفرغ لنظمه ، كما أنه قد قال على الارتجال ، بعض قطعه ، وأعجب ما قاله على الارتجال غينية فاه بها ، وقد زار أقاربه فبكت للقياه أخته ، عند السلام ، ولما سالها ، قائلا ، أليس هذا وقت سرور ؟ فما يبكيك ؟ أجابت ، ذكرت يوم فراقك ، فانشأ أبياتـــه :

ومحزونة بالبين طال بها الجوى
علينا وشوق فى الجوانح لـــداغ

تبيت توجفناها يباريهما الحـيـا
وما تحت جنبيها من الفرش لداغ

الى أن تسخي الدهر بالوصل بيننا
ولاح ضياء للمسرات بـــــزاغ

فلما انقضى التسليم ما بيننا بكت
وفاض لها دمع من العين نساغ

فقلت ألم يان السرور ولم يـــدر
شراب للقيان الاحبـــة ســـواغ

فقالت تذكرت الفراق غدا فـــذا
لقلبى عن تلك المسرات صداغ

فيالك من حزن بيـــارى مســـرة
بسهمين كـــل فى المفاصل بـــلاغ

ويالك من نعمى ببؤسى مشوبـــة
كما شاب محضا بالدم الدر نساغ

بل الشر فى الدنيا على المرء صائل
يموج عليه الدهر والخير رواغ

على أن لطف الـــه للعسر دامـــغ
كما الحق منه للاباطـــل دمـــاغ

فهذه الابيات ، على لوعتها الحارة ، ولهجتها الصادقة ، قد تسلط عليها التصنع والتكلف فى قافيتها الغريبة بين القـــوافى الفاركة لحرف الغين وأسلوب القطعة لا بأس به عموما وان لم يخل من القلق بنحو « غدا فذا » و « الدم الدر » ، ومـــن الفتور فى البيت الاخير ، بدامغ مع دماغ .

بعد هذا نتوجه الى تلك العيون لنقتبس منها أوننهل منها ــ ان جعلناها جارية ــ بعض الابيات ، فمن داليته :

وطن عهدت به الشبيبة والصبا   الفين ليس أخوهما بمنكـــد
ورفلت فى أثواب عيش باســق   عذباته أنق المحيــا أرغـــد
وقطفت منزهر السرور نواضرا   وهصرت منه بالغصون الميــد
أيام كنت رخى بــال فى ذرى   حدب على موســن وموســد
ألهو بأحداث الزمان مرغمـــا   لانوفها عبث الوليــد المستدى
مرخى العنان بروض كل لبانة   سرحا بها سرح الفاو المخضد
لا أختشى ظفرا ولا نابــا ولا   أشجى لبين مغــور أو منجــد
والدهر سلم والخطوب غوافل   والعيش غض والامانى حفدى
ما دوحة فيانـــة أو روضـــة   بخميلــة أو فى يفــاع أنجــد
سحبت عليه ذيولها مزن الحيا   وسخت عليه بكف واكفها الندى
يسقى من الوسمى مترع كأسه   ويصان من نسج الولى ببرجد
من كل سابغة الذيول كأنهـــا   عكر تسام على الربى بالمرعــد
نثر الجنوب جمانها فتقلــدت   لبب الرياض بحليها المتبـــدد
فتدفقت أنهارهــا وتفتقـــت   أزهارها فى روضها المستأســد
وتساجلت أطيارها وتمايلـــت   أشجارها كالمثمـل المتميـــد
وجرى لطيف نسيمها برياضها   جرى الزلال بغصنهــا المتــأود
ما شئت من ثمر يلذ ومنظــر   أنق وصوت فى الغصون مجسد
وحباب جريــال يخلخــل ساق أمـــلود بها فحم الذوائب مماد

أو أمن ذي فرق خليع لبــــه   أو غفوة الاصباح للمتهجـــد
أو عذب شارعة الفرات على ظما   أو وصل حب بعد هجر مبعــد
بألذ من تلك الليالى لو محـــا   ما خطه الدبران سعد الاسعد

وهى أبيات كما نرى جميلة ، لا ينال من جمالهـــا الا كلمات نادرة غير معهــودة ، مثل « موسن » من الوسن أو غريبة اضطرت القافية الى استعمالهـــا ، كما حصل فى الغينيـــة قبلها . والبيت الاخير من هذه يشير الى طبيعة نجم الدبـــران فى القطيعـــة ، وطبيعة سعد السعود فى الوصيلة .

والقصيدة فى طولها نحو خمسين وخمس مائة بيت ، تناول فيها جل الاغراض ، فبدأها بالنسيب ، وأطال حتى اتصل بهــذه الابيات ، وبعدها صار يذكر ما جادت به الايام عليه مـــن ابتسام بعد عبوس واربداد ، ثم صار يدعو لايامه الغابــــرة بالسقيـــا ولاخوانه الذين مضوا وخلفـــوه ، بعدما كانت تجمعه بهم المنازل والمحاضر ، وهم فى أهنأ حال وأهدأ بال ، ويأسف لان الزمـــان لن يعـــود بهم ، وقد طوتهم اللحـــاد ، عليهم شآبيب الرحمة والرضوان . فما المنون الا سبيـــل يسلكه البشـــر جميعا ، ثم صار يمثل للدهـــر وصروفه بعدة صور ، لقد أخنى على بنى ساسان والاقيال وبنى مروان والعباس ، واستؤصلوا جميعهم ، فالمرء ما هو الا ابن الثرى ، فالجسم نزوع الى أصله، والروح نشأتها من العالم العلوي ، فهى بذلك تحن دائما الى الملأ الأعلى . والمرء بينهما فى المقيم المقعد من الهمـــوم

والمخاوف ، ثم صار ينعت مختلف البشر بعديد من الاخلاق ومختلف اسوك ، ونعى على الغافلين منهم اللاهين عن دينهم، فكم خليفة أقيم فيها ليسير سر المستخلفين ، فكانت له الجنود المجندة والكائنات له رعية تجبى اليه جباياتها ، ولكن البغاة تكنفوا ملكه ، فخيضت الحروب ثم كتب التوفيق لمن استنصر بالله فنصره ، فها هو يمرح بالمراح ثم يصير ترابا بعد برهة وجيزة من الزمان ، فلم ينفعه الا ما قدمت يداه من خير . وهنا يمعن اليوسى فى وحشة القبر وظلمة اللحاد ويستفظع هذا الفراق الأبدي ، فنحن ان كنا نراع لفرقة أيام فكيف بهذه الفرقة السرمدية . ثم يأتى بحوار يجريه بينه وبين صاحبته « هند » وهى تراع من الفراق وتوصى بتجنبه ولزوم العطن ، وتبالغ فى عذله ، وتلومه على استمرار ترحاله ، فينهرها فى رفق بعد الاصغاء اليها مليا . . . وتظاهر بالاصرار على صنيعه المعهود منه فى ركوب الفيافى والقفار وامتطاء المطايا ، مودعا الاصدقاء والخلان ، حتى صار بذلك معروفا للركائب والقيعان . ومع هذا فهو لا يضيع حق الصداقة ويحافظ على العهود والمواثق ، شنشنة عرفت منه ، وقد خان الصديق صديقه والخل خليله ، وقد حلب الشاعر أشطر الزمان وعرك الايام وعركته ، فوجدته صليبا لا تزحزحه النوائب . انه قد أدرك العز فى النقل من مكان لمكان ، والاغتراب عن الاوطان ، وضرب لذلك أمثلة حسية ، حققت الغرض من دعواه . وبعد ذلك تعرض للناقة التى تحمله وأتى على وصفها وشدة سيرها ،

شأن الأعـراب فى جاهليتهم واسلامهم ، كطرفة وذي الرمـة . ثم عاد الى ذكر فوائد السفر وضرب لها أمثلة أخرى من العيان . ومن هنا انتقل فاتصل بالنبى عليه الصلاة والسلام ، لمناسبة زيـارة الشخص المعنى لروضته وتربته المطهرة ، ثم يحض على حث المطى وعلى السير السريع ، فى أبيـات عديدة ، وبعدهـا عاد الى التحدث عن نفسـه ، بأنه لبس من الدهـر مـلاءة فأبلاها ، وأنه قطع الفلوات يرعى النجـوم والكواكب فى سيره، ويتوسـد ذراعه فى الفيافى والقفار مشرد النـوم لا تغمض عينـاه الا فى حذر ، يحسـب الظلام فتخاء تهم أن تصطلمـه بمخالبهـا ، وقد أعـوزه من يؤنسه واستأسدت عليـه الهمـوم . ثم متوجه الى وصف النجوم التى كان يراهـا ، كما فعل امرؤ القيس وبعده ابن هانى الاندلسى ، ولكنـه اقتصر على الثريا والجوزاء ، بعد ذكره لكوكب القمر . وانتهى الـى الصبـاح ، فشبه ثغره بوخط المشيـب أو ثغر زنجى تبسـم عن أسنان ناصعة ، واستمر يصف رفاقه وركائبهـم والصحاري التى يقطعونهـا أو الرياح التى تهب عليـهم ، ولكنها ريـح الصبابة لا الصبا . وينتقـل من هـذا الى ذكر الحمام الـذي يسجيه بتغريده فيبكيه بتذكيره أفراخه الصغار ، وقد علا عويلهم عند فراقه لهم ، ويتخلص من هذا الى أبى عبد الله بالذكـر الطيب والثناء العاطر وهو محمد ابن ناصر المعنـى بالقصيدة ويفيض فى أو صافه ، وأخصهـا العلم بالشريعـة والحقيقة وهدى الناس بهما فى الاقطار ، ثم توجه بنصائحه وحكمه لـمن ينصت اليـه ، واهتم فى هذا أيضا بالعلـم أكثر من غيـره ،

وسبل تحصيلـــه العديدة ، وعاد الى تهنئة ابن ناصر بالقدوم من الحـــج ، وأطال فى هذا كذلك ، اطالة انتهت بها القصيدة تخاطبه بأن الليالى سعدت بغرتـــه . . .

أما المرثية الرامية ، فهى فى طولها أحد وستون ومائة بيت، افتتحها بالدمـــوع والنحيب ، والتحسر على مـــا مضى فى ربوع الزاوية التى تلقـــى بها العلـــم مع زملاء كانوا لـــه نعـــم الصديـــق والرفيق ، يفتنادمون على احتساء كؤس العلـــم :

وكانـــت مواتـــاة الوصـــال مدامـــة
على القوم صرفا لا مزيجا ولا نزرا
تجاذب اخـــوان الصفاء كؤوسهـــــا
فلا تختشـــى منها خمارا ولا سكرا
فبينـــا ليالى الوصل بيض وروضـــه
بفيض النـــدا كانـــت مرابعه خضرا
عدت غدوة أيدي الحوَادث فاختلت
خلاهـــا فعادت بعد نضرتها غبـــرا
وأبدلن مانـــوس الديار وأهلهــــــا
بوحـــش وحولن الأهيل به قفـــــرا
وبينـــا جموع الحى كالراح شبتهـــا
بمـــاء فما تختشى جفاء ولا نعـــــرا

وكالفرقدين الطالعين تألفا
وصاحبى الملك الذي نادم الشعرى

أصابتهم عين الكمال فغادرت
أكفهم من كل ما جمعت صفرا

فيلاحظ على هذه الأبيات فقر بسبب بالتشبيه المكرر فى احتساء الخمر التى جعلها صرفا أولا ومزيجا ثانيا ، وكلتاهما لا صداع بهما ولا عربدة ، وهذا وصف قرآنى لخمور الجنة ، والمشبه ليالى الوصل أولا ، وجموع الحى ثانيا ، والمقصود واحد ، فهذا تكرار كذلك ، كما أن المآل واحد كذلك ، فتلك عادت بعد نضرتها غبرا ، وهذه صارت أكفهم صفرا ، وكذلك التعبير « فما تختشى » و « فما تخشى » حكمه التكرار ، وفى البيت قبل الاخير اشارة الى اسطورة عربية معروفة ، وهى لصاحبى جذيمة الأبرش الذي كان ينادم الشعرى وقد افتقد عمرا ابن أخته التى قتل زوجها وكان له منادما ، فامتنع بعد ذلك من منادمة غيره ، الى أن أتى رجلان اليه بذلك الولد ، فكانت المكافأة اتخاذهما نديمين له ، فلم يفترقا ، وضرب المثل بهما فى الاجتماع الدائم .

وبعد ذلك البيت جاء آخر فيه تورية بالثريا وسهيل فى القطيعة كما أن فيه تورية بواصل والراء . وفى الاولى قيل :

أيها المنكح الثريا سهيلا عمرك الله كيف يلتقيان

هى شامية اذا ما استقلت وسهيل اذا استقل يمان

وقضية لثغ « واصل » المعتزلى وعجزه عن نطق الراء ، ثم هجره للكلمات التى تحتويها ، حتى لا يظهر عجزه عنها ، معروفة للناس وذكرها تلميذه الجاحظ . وبعد بيت جاء تضمين من بيت قديم معروف قائله فى الاساطير ، وأشار اليه قبلا ، والتضمين هو « كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا أنيس . . . » وفى تلك الربوع التى خلت من أهلها ، قال :

بلاد اذا ذقنا رضاب معينها
فما لرضاب العين نلتمس الثغرا

وان نحن رحنا بالشذا من رياضها
ربحنا فما نرجو على العنبر التجرا

رياض اذا أبصرتها ونشقتها
فلا تذكرن نجداً ولا تذكرن شحرا

وأزر على من كان حن صبابة
اليها قديما اذ على مثله يزرا

فمن لى بواديها اذا فاح رنده
ومن لى بمرعاها اذا طلع المشرا

ومن لى بروضات يفوق ضياؤها
على الشمس حسنا كلما ابتهجت زهرا

وهيهات روض ينبت الرند أيكه
وهيهات روض يطلع الشمس والبدرا

وهى أبيات جميلة لا تؤخذ بعيب ولو ضئيلا ، استمــرت هكذا ، وجاء بعد فى أولئك الرفاق الذين خلا منهم الحى :

فمنــا اليهــم صبــوة ابــن ملوح
ومنهمشجا الخنساء اذ فقدتصخرا

وهى تورية أخرى واشارة ، من اشاراته العديدة فــى القصيدة ، فابن الملوح هو قيس المجنون ، وقصته معروفــة ، وكذلك قصة الخنساء مع أخيها صخر . وبعد ذلك تعرض للخمــر الالــهــيــة فقــال :

ومشمولــة صهبــاء مــا قط شابهــا
براووقه الحانــى ولا حلت العــــذرا

بها هامــت الارواح من قبل خلقنــا
ومــن بعد مــا كنا واذ نبلــغ الحشرا

فكم ولهت فكر ابن عيسى ومالـــك
وكــم أطربت سهلا وكم أشغلت بشرا

اذا ما تحساها الفتى لم يخف بهــا
جناحا ولكن يرتجى عندهــا أجـــرا

تحملــه الاوزار غيـــر مذمــــم
بأعبائها العظمــى ولم يكســب الوزرا

وتبــرد غــلات الحشــى وتشبهـــا
أوارا وتعطى الرشد والسفــه الحجرا

فلولا رجاء الفوز منها بشربة
تداوى عقابيل الهوى والجوى المضرى

لكانت أكف البين تصدع بالجوى
زجاجة أحشائى فلا أملك الجبرا

وهى أبيات مشرقة حقا ، انبثقت عن تلك الصوفية التى كان عليها اليوسى ، وجعلته ينساب فى غمارها ويصدح بألحانها ، وقد أخذته نشوة الحضرة ، فغاب عن حضور الوعى المتكلف ، والحس المتبلد ، فتبددت غياهبه بأشعة النورانية، وتبدت عرائس الشفوف فى جلواتها ، وهى ترفل فى حلل البهاء والسناء ، ساحرة للالباب آسرة لنهى الاصحاب ، وقد ولهوا بها وحسرت أبصارهم بجمالها فهاموا فى ذهول على وجوههم ساهمين سامرين تعصف بهم رياح الروعة والالتياع وتتلقفهم متاهات العجز عن الادراك ، والعجز عن الادراك ادراك . . . ثم صحا الشاعر من سكرته هذه فعاد الى الدهر ، يعدد عليه كوارثه ، ويجعله مرة سيفا فاتكا ، وريحا سموما آونة ، وسيلا جارفا ، وليثا مفترسا ، وطاغية غشوما ، ياتى على كل شىء فيقتلعه ، ويلوى بكل انسان فيصرعه ، وهنا يتعرض لعظماء وملوك أبادهم ، كان له عليهم ترة يأخذهم بها ، ويفرط فى التنكيل بهم ، فبنو ساسان بادوا وخربت مدائنهم ، وأولاد جفنة من ملوك الشام كأنهم ما كانوا ، وبنو لخم عفى على ربوعهم ، كما عفى على بنى بدر ، ثم بنو مروان وبنو العباس ، كلهم دخل فى خبر كان ، ورام ابن عباد

بخسفه ، فصيره باغمات أسيرا ، وهكذا لا يحزن الانسان مما يجره الدهر ، من ابدال الوصل بالقطيعة والانس بالوحشة :

فلا تبتهل للحادثات ولا تثق
بما وهبت يوما فموهوبها معرى

مقربها مقصى ومرفوعها لقى
ومنهلها مطمى ومكسوها معرى

ولا تركنن للدهر ان نعيمه
ظلال سحاب يمسح السهل والوعرا

فبينا تراه قد كستك بروده
تجافى فالبسك بأميل الحرا

ملول فما يبقى على عقد خلة
ولا مستديم فيك عسرا ولا يسرا

فان سر فلتظفر وان ساء فاصطبر
لعودته فالدهر ما يألف الصبرا

وبعد الدهر انتقل الى أبنائه فقال :

ولا تامنن أبناءه ان تحببوا
اليك فمن يشبه آباه فقد برا

وكل بنى دهر فأشباه دهرهم
على ما قضى الله الحكيم وما أجرى

متى ما ارتجـوا رغباء منك تقربـــوا
اليك وأبـدوا خالص الود والبـــرا

وأخفـوا ذميما كان منـك وأظهـــروا
جميـلا وقالوا ذو محاســن لا تمرى

وأخيرا نصح باللجوء الى الله والعيـاذ به ، وعـــدم الاعتمـاد على الخلق ، مع مدارتهم فيمـا يخوضـون ، كمـا نصح بأخلاق شريفة كالكـرم وغيره ، وصـار ياتى بالحكـم على طريقـة زهيـر ، ومن لم يكن كذا يكن كذا ، وذلك فـى اثنين وعشرين بيتـا ، ختم بها القصيـدة

وأما الرائية الاخرى فصح أن تعد ضمن تلك العيـون لطولها فهى تناهز المائة بيت فى اباء الضيـم والتحلى بمكارم الاخـلاق ، يقول فيها :

واذا رأيـت المـرء محتسيـا	كأس الهـوان فليـس بالحـر
والحـر ليس حياتـه بسـوى	عـز الجناب ورفعـة القـدر
لا بالطعام ولا الشراب ولا اسـ	ـتلقائـه بأرائـك وثـر
واذا تزايلـك الحيـاة فمـا	مـن عيشـة تبقى ولا عمـر
وسؤال ذي لؤم وذي بخـل	ورجـاؤه لنوائـب تجـري
أنكى لقلب أخى المـرءة مـن	نقـل الجبـال ومحمل الصخر
وأضـر من كـل المصائب ان	عظمـت عليـك وكل ما شـر

وتقلـد للمـن مـن يـده غل علـى هاديـك فى الاسـر
بل وخـزة فى القلـب ناكئـة بـل طعنـة فى لبـة النحـر
وغنـاك عنـه بالقناعة فـى حاليـك فى عسـر وفى يسـر
أجدى من الملك الـذى جمعت أبنـاء هرمـز غابر الدهـر
ولباس صونـك عن تملقـه أبهى مـن الاستبراق والخضر
وصبابة من مـاء وجـهك أنـ ـفس من رحيق سلسل غمـر
واذا تحـاول نيـل مكرمـة فانهض اليهـا نهضـة الشمر
وتسـنمن ذرى الامـور ولا تخلد الى سفاسفهـا الخضـر
والناس كالغوغـاء هائمـة لو كان يبلو الناس ذو خيـر
والمـرء كـل المـرء بينهـم ذو الملبس الزاهى وذ الوفـر
لا ينظـرون الى الوفـاء ولا فضل الذكـاء وثاقب الفكـر
فتوخ فى النـاس الوفـى اذا عاشرتهم وحـذار ذا الغـدر
واسبرهـم قبـل الاخاء ولا تغتـر فى الاخـوان بالسبـر
كم من أخ مذق الوداد علـى مـا فيـه من أمن ومن سبـر
ان تلقـه فالشـهـد مقولـه واذا تغيـب يكـون كالصبـر
واذا تصادق ذا الصفاء فكـن منـه ولو صافاك ذا حـذر
فصداقـة النبهاء معجـزة وكذا نوؤهـم مـن الفخـر
وصداقـة اللؤمـاء معقبـة لؤمـا كمثل حكاك ذي العـر

فأعد لليـوم الذي خضعـــت فيـه الطـلا لرواجـف الذعر
وتحولت فيـه الذين هـــم قنن الذرى شمما الى الـــذر
وتدوسهم أقـدام طائفـــة كانت لديهـم موقـع السخـر

فهذه نصيحة تلتها صيحة كان مبعثها العصر الذي عاشه أبو على ، وشد ما كان له فى نفسـه أعمق الاثـر وأوجـع الجراح ، ينـم عنها شعره أحيانا ، وقد جعلنا القصيدة ملحقة بتلك العيون لطولها ، كما قلنا ، والا فانها فى مستواها الفنـى لا تصل الى تلك غالبا ، كما نجد مثلا فى البيت :

وصبابة مـن مـاء وجهك أنـ ـغس من رحيق سلسل غمـر

فان هذا البيت تتبرأ كلماته بعضها من بعض ، فالرحيـق كان مناسبا له « ألذ » ولكن هذا لا يناسب « صبابة من مـاء الوجـه » فان تركنا التعبير على حده ، فان الفتور يتسرب الى « أنفس » من هذا الرحيق السلسل الغمـر .

وهكذا دواليك بعض تعبيرات هذه القصيدة فى قلقها وعدم انسيابها فى مضمونهـا وأجراسها وألوان بيانها خصوصـا المتكررة منهـا .

أما النونية التى أشرنا اليها فهى فى طولها نحو خمسـين ومائة بيت ، مجيبا بها أديبا ، يدعى أحمد المباركى ، عن غيرها فاتحه بها وصفها اليوسى فقال :

ند أتتنى أبياتك الغر تســـري سريـــان الزلال فى القضبـــان
وتحاكى أزهار روض أريـــض جـــاده كـــل مسبـــل هتـــــان
أو برودا ململمات مـــن الخال ودرا مفصـــــلا بالجمـــــان
أو نسيم الاسحار أو نغمات الـ ـــورق فى الأيك أو هدير المثانى
أو مغيب الرقيب أو طلعة الحـــ ـــب وروض الصبا ورجع القيان
أو منال المرغوب بعد انتظـــار أو زوال المرهوب بعد اكتئاب
فتعـــاطيتهـــا كأنـــى تعاطيــ ـــت كؤوس الصهباء عند الحان
من سلاف مشمولة تتـــــراءى فى النواجيـــد كالنجيع القانـــى
واذا شبتهـــا تناثـــر منهـــا درر فى صحائـــف المرجـــان
ظلت من نشوتى بها وسروري مستطير الفؤاد ذا ميــــــلان
وتصفحتهـــا كـــأنـــى تصفحـــ ـــت لعمري سبيكة العقيـــــان
ووردت منهـــا زلالا نميـــــرا وخليجـــا مـــن بحرك الطفحان
وتفهمت مـــا تبث مـــن الوجـــ ـــد وتشكو منَ الزمان المعانـــى

وبهذا البيت انتقل الى موضوع الرسالة الشعرية التـــى أجاب عنها ، وقد حاول الشاعر فى قصيدته النونية أن يكـــون رقيق الحاشية فى أسلوبه ، فوفق فى الابيات الستة الاولى ، ولكنه سرعان ما تهلهـــل فيها ، فصار يرقع بنحـــو « عند الحان » و « ذا ميـــلان » و « خليجا من بحرك الطفحان » .

أما التشبيهات بالخمور واحتسائها ، فقد أكثر منها اليوسى فى جل قصائده ، ويبدو أن العصر كان مسامحا فى هذا حتى رجال العلم والفقهاء من شاكلته ، ثم اختفى ذلك فيما بعد ، فلم نعد نجد من أدبائنا مثل أبى الطيب العلمى وابن زاكور الفاسى من معاصريه .

وفى تعرضه لما شكاه صديقه توسع فى ضرب الامثال بالأمم الخالية والدول العاتية ، شأنه فى ذلك شأنه فى مراثيه ، وبعدها صار ينصح بالصبر واحتمال ما يأتى من كوارث الدهر ، فقال فى غضون ذلك :

انما الحلم والحجا أن تلاقى نوب الدهر ضاحك الاسنان

مطمئنا أخا سكون على ما فى الحشا من لواعج الاحزان

فكأن الخطوب ريح جنوب صرصرت ساعة على صفوان

وكأن الذي رزيت سفى فوقها أو غسالة الهطلان

وبعد نصائح عديدة ، انعطف الى نفسه فيما يواجه به النوائب وما يقاسى بها ، أو يسهر من أجلها ، ولكن ذلك كله لا ينال منه اذ قال :

ثم أصبحت غبها ضاحك السن على ما فى الصدر من نيران

وصار يعدد مواقفه الثابتة ، كأنه جعل نفسه القدوة فى احتمال المصائب ومواجهة المصاعب ، وعاد الى النصح وضرب الامثال بالمرئيات ، وأفاض فى السلوك الواجب اتباعه ازاء

الاخوان ومعاملة الاصحاب ، والاغضاء عما يصدر عنهم من هفوات :

واذا تبتغي صديقا بلا ذنـ ـب فعش مفردا عن الخلان
صاحبي اخبرا الزمان فان لم تعرفا كنه أمره فسلان
ان عندي من الزمان وأهليـ ـه لعلما ينير جو الغسان
ليس شيء من الصروف بسلم لمصاب ولا عليه بجان
لا ولا بالحجا تنال الأماني لا ولا الجهل رائد الحرمان
كم لبيب ذي نجدة مات هزلا وغبي تحفه ألف هان
وكريم أذيل بعد اعتزاز ووضيع يسمو على كيوان

واستمر على هذا المنوال ، ثم نصح باساءة الظن بالاقارب والاخوان ، وأنهى القصيدة بهذه الابيات :

لا ترج امرأ ولا تلف يوما حائما حول رحله في ايوان
وتثبت ولا يغرنك منه بارقات الاقبال والاحسان
ان ذل القنوع ليس بشافيـ ـه على الحر قبل أقصا الامان
ومن اعتز بالقناعة أمسى في نعيم وعزة وأمان

هذه نماذج غالبة على شعره المتواضع ، وقليلا ما نجده يسمو عن هذا المستوى ، كما نجد في قوله :

ان بين الغمـــام والزهر الغـــ ـــض لرحما قديمة واخـــــاء
بان الف عن الفـــه فتـــوارى في الثـــرى ذا وذاك حل السماء
فاذا ما الغمام زارت جنابـــا آذنت فيه بالحبيب اللقـــــاء
ذكرت عهده القديـــم فحنـــت عنده لقياه فـــاستلهت بكـــاء
فترى الزهر بارزا من خبايـــا ه يحيـــى الوفـــود والاصقـــاء
بادي البشر والبشاشة جـــذلا ن لبوسا مـــن كل لـــون رداء
ثملا منشمولشمس الضحىوه ـــو على بسط سندس خضراء
راقصا والصبا تهنيـــــه والور ق غواني القيان تشدو غنـــاء

فهذه أبيات تروق بجمالها وحسن رصفها وتنسيق صورها ، قبل أن تسحر بفنون من زخارف البديـــع وحسن التصنيـــع الا ما كان من نحـــو التشبيه والاستعارة ، وكان ذلك كله مـــن قبيل البديع فيما قبل ولكنه فيما بعد عد من فنـــون البيـــان ، وانفصل عن فنون البديع ، منذ قرون خلت قبل عصر اليوسى ، لدرجة أن أصبحت الاستعارة لوحدها فنا قائما بذاته عندنا .

ويلحق بهذا وصفه للمدن مثل قوله فى مدينة شفشاون :

بلـــد بحسبـــك منظـــر منـــه ومخبـــره أتـــم
مسرى الهموم ومسرح الـ ـــأبصار مسلاة الغمـــــم
متـــرفـــلا فى حلــــــة من حسنه جنـــب العلـــم

كالحـرة الحسنـــاء فى … كنـف الهمـام المحتـرم
وتـراه مــن جناتــه … متلألئـا بيـن الاجـم
كالـدر بيـن زمـــرد … فى قـرط ماريـة انتظـم
وكوجـه خـود حفـه … شعـر السوالف فى دلـم
وكغـرة فـى أدهـم … والصبح فى جنح الاحـم
والثغر مـــن زنجيـــة … ترنـو اليـه وقـد بسم
والبـدر مـا بيـن الدجا … والشيب فى سـود اللمم
يعلو فويـــق جبينـه … علـم تدلى مـن أمـم

الى آخر الابيات الجميلة على بساطتها وخفـة وقعهـا ، فكأنها صدرت عنه عفو الخاطر ، وهو يمدح أهلهـا أو يشيـد بهـم فيقـول :

للـه اخـوان بهـا … شـم المعاطس والهمـم
طهر السرائر والحبـا … غر الصنائع والشيـم
أبنـاء مجـد فى الألـى … كانوا يراعـون الذمـم

وكذا قوله فى تطـوان :

تطـاون شفت الفؤاد المسقما … وجلت من الاحزان ليلا مظلمـا
وأطار منظرها المرونق بهجـة … عن قلبى المضنى هموما جثمـا

بلد تقاسمت البهاء جهاتـــــه فتناسقت حسنا وفاقت مبسما
مترفعا فى مرقب يطــري بــه أنسا ويطرب من رآه تبسمــا
فحكى عروسا جليت اذ جليت أعلا منصتها الرفيعة مسنمــا
ما شئت من عين يكسرها الحيا بحذاء ثغر تشتفى فيه الظمــا
لولا الجبال الساميات بجوهــا لحسبت منظرها الثريا فى السما
فلقد غدت عدنا ألم تر تحتها الا أنهار تجري فى بساط أدهمــــا
وزرت على عدن ألـــم تر فوقها غرفا زهت حسنا على تلك الدما
للـــه در أحبــــة غادرتهــــم فيها يعدون الصداقة مغنمــــا
أرزوا الى الخيرات ظمئا شرعا وراوا سبيل البر دينا قيمــــا
وأود لو كانت مجالس بينهــم يضحين فى سبل الهداية معلمــا

وهكذا يذكر تطوان ، ولكنه ينعى عليها ، كما ينعى علـــى غيرها من جل مدائن المغرب ، قلة العلوم بها ، فيقول :

وشجا الحشا ان لم أجد من عالم يهدي الورى فيها ولا متعلمــا
الا يسير صبابة من ذي حجى لصبابة بالعلم أضحى مغرمــا

ويبدو أن شفشاون كانت لذلك العهد أوفر حظا فى الثقافة من تطـــوان . ولا عجب من هذا فقد كان من رجال شفشاون آنذاك ، بل حتى فيما قبل ذاك ، من عرفوا بآدابهم ونالوا من الدولة حظوة بوأتهم كراسى الوزارة أو أرائكها ، مثل الحراق

الذي هو من رجال الانيس ، وقبله كان ابن عسكر بالعهد السعدي على حظوة لم ينلها الكراسى بالعهد الوطاسى قبله .

وعلى هذا فاننا لا نغفل عامل الظهور والتجلى على مسرح السياسة والخوض فى معامعها ، وما يكون لذلك كله فى تخليد أعيان الناس ونقش أسئامهم على هياكل الشهرة ونصب الاذكار ، والا فان الرافعى وبركة ــ رحمهما الله ــ لم يكونا أقل حظا فى أدبهما وعلمهما ، خصوصا الاخير ، من الحراق ، الذي كان يحطب فى حبل لم يحطب فيه بركة ، ونأى عنه بعد واقعة النقسيس التى تورط فيها فورط غيرها بها . . . واكتفى الرافعى بتلك القصائد الوطنية أو الجهادية ، والأمداح الاسماعيلية المخلصة ، التى لم يرد بها لا جزاء ولا شكورا .

وبعد تطوان نجد اليوسى يقول فى سلا :

سلا القلب فى موسى سلا وتحملت
ركائب هم كن خيمن فى الصدر

وأطلع فى النفس السرور شموسه
ببيض مبانيها وأمواهها الخضر

بلاد بكلتا ضفتيها كأنها
وشاحان أو جفن على ذلك النهر

على نهر يلقاك يبرق مصلتا
وان حل ذاك الجفن أغضى على الكسر

بها أثـر الحسـن القديـم كأنـه
رقـوم على سحـن من الحبـر الحمر

فيا لـك من مراى صحيـح ومتجـر
ربيـح وسلوان مريـح مـن الهجر

ولكنهـا شـن الخـراب اغـارة
عليهـا فأقوت مـذ سنين ومذ دهـر

وأصبـح فى أربابها الجهـل حاكمـا
مطاعا فما تلقى بها من أخى فكـر

وأكثر مـن فيها بقايـا كأنـهم
نفاضـة زاد حـل فى سفـرة السفـر

وما كانت سلا ، التى عرفت بعلمها وأدبها الذي كـان يتجاوب مع القيروان وصقلية والاندلس فى القـرن الخامس ، بذلـك الجهل المطبـق الا أن تكون تعرضت لنكسة ألفاهـا عليها اليوسى ، شأنها شأن ثغورنا فى القديم والحديث مثـل طنجـة وأصيـلا اللتين شاهدتنا فطاحل العلماء ، وفرسانا من الخطباء ، والكتاب والشعراء . . . أما الدمار الذي تعرضت له فلم يقتصر على الثغور بل نال غيرها من المدن من جراء الحروب التى لم تنقطع طيلة القرن الحادي عشر . ومنها القصر الكبير الذي قـال فيـه :

لما سلكت القصر فى سلك الندى وحللت حول ربيعه المستمطـر

ألفيته محت الصروف محاسنا منه كخط فى الزبور مسطـر

وتركن قائمه الربيــع مقطــرا سفلا بأيدي الدهر أي مقطــر
جزرا بأنياب النوائب موشكــا أن يرتمى بدم اليــك مفطــر
كالبيضة الحسناء أبدل وجهــا جهما وأبدل رخصهــا بمفطــر

الى آخر الابيات التى وردت فى هذه المدن ، بالاضافة الى ما ورد فى مراكش ومكناسة الزيتون وفازاز وغيرها ، مما يصح أن يعد فى أدب الرحلات ، ووصف المدن والبقاع . وما كـــان يضطرب بها أو تتصف به من علم وجهل وكرم وبخل وغيـــر ذلـــك . ومن الانصاف أن يذكر اليوسى بقدرته على الوصـــف وبراعته فى جوانب منه كما رأينا . ويكاد أن يكون هذا صفـــة خاصة به لذلك العهد ، ولا يضاهيه الا ابن زاكور . وبهذا تثبت له صفة الشاعر عن جدارة واستحقاق .

وكذلك تجلى فى شعره الروح الوطنى والدعوة الى الاصلاح والجهاد ، كما نجد نموذجا من هذا فى قصيدة يخاطب بهـــا سكان تطوان ، الذين كان غالبهم من الأندلس آنذاك ، فيقول ، يحرضهم على جهاد الاسبان المحتلين لسبتة والطاعنـــين فى تخومهـــا :

يا أهل هذا الفحص كيف معاشكــم
وحيالكــم تلــك النواقــس تضرب
بل لــم يزالوا يعتــدون بغـــارة
شعنبواء تقتــل فيكـــم وتسلــب

يا أهل أندلس ألم تستخرجوا
من أرضكم ودياركم وتنكبوا

هلا انتصرتم مثل ما انتصر العدا
هلا تحزبتم غداة تحزبوا

هلا جعلتم فى نحورهم القنا
ودعوتم رب العباد لتغلبوا

أين الشجاعة والحفاظ وأنتم
عرب وللعرب الحفائظ تنسب

وهكذا فان اليوسى ، المعتز بعروبته ، مسلما مثقفا بها ، والمعتز بمغربيته ، لا ينسى نفسه بربريا ، وطبيعى أن لا ينسى ذلك ، فنراه يمتعض منهذين البيتين اللذين قالهما شاعر لعله من فاس :

فلو كنت فى الفردوس جار البرابر
لحولت رحلى من نعيم الى سقر

يقولون للرحمن « بابا » بجهلهم
ومن قال للرحمن « بابا » فقد كفر

فيرد عليه اليوسى بقوله :

كفى بك جهلا أن تحن الى سقر
بديلا من الفردوس فى غير مستقر

وتجهـل معنى مستبينا مجـــازه
لدى كل ذي فهم سليـم وذي نظر

فإن أبـا الانســان يدعـوه أنـه
كفيـل وقيـوم رحيـم بـه وبر

ومن قال للرحمن « بابا » فقد عنى
به ذلك المعنى المجـاز وما كفــر

وقد قــال عيسى انني ذاهب الى
أبي وأبيكـم جاء ذلك في الأثــر

عليه صلاة اللــه ثـم سلامـــه
على المصطفى المختار من سائر البشر

فهذا رد منه يعتمد على مرمى اللغة والبلاغة ومجازها ثم الأثر النبوي الوارد فيما قاله المسيح قبيل أن يرفعه اللـه اليه . احتكم اليوسى الى ذلك وقد غضب لقومه غضبة كل منا لحظيرته الاولى التى احتوته أو احتوت آباءه وأجداده ، فـلا يعد ذلك منه تعصبا للبربرية بل حفاظا لكرامة ضئضئه الـذي نشأ هو منه ، وليس بلازم ضرورة اذا ما أحب الانسـان أسرته الصغيرة أن يكره أسرته الكبيرة ، فاليوسى مغربـي بربري عربي ، في آن واحد ، ولا لوم عليه أن يرفع عقيرتـه بالامتعاض لآصرته ، بل اللوم كل اللوم على من أنشد البيتين ، ولا شك أنه عناه ــ شخصيا ــ بهما ، والغالب أنهما صادران

عن منافس من أهل فاس ، التى لم ترحب به عند قدمته عليهــا ، أو نقلــه اليهــا . وشد ما جأر بالشكوى من ذلك كقوله :

ما أنصفت فاس ولا أعلامهــا علمي ولا عرفوا جلالة منصبى
لو أنصفوا لصبوا الى كما صبا راعى سنين الى الغمام الصيب

وقولـــــــه :

على رسلكــم يا أهــل فاس فانني
فتى لست بالفدم الغبى ولا الغمــر
أنا الصارم الماضى ويا رب نافــث
يخرق فى البحث الأديــم ولا يفــرى

لقد عانى اليوسى ــ رحمه الله ــ عنتا عظيما من أولئك المنافسين الذين كان بيدهــم مقاليــد المعرفة ، ويديرون بهــا دواليب العلــم ، ويقلبون بأصابعهم صولجان التفوق والتنوق ، فعــز عليهم أن يحل بين ظهرانهم هذا الــذى ركن اليه المولــى الرشيــد ، وأكبر فيه علمه واستنشد شعــره ، فصـــاروا يتربصون بـ ه الدوائــر ، ويناوئونه فى كــل مناسبة :

سمعت من الوالد ــ رحمه الله ــ أن اليــوسى لمــا حــل بفاس ، وتطلعت اليه الانظار ، طلب منه ــ على سبيل الامتحان ــ أن يلقى درسا فى التفسير ،فاستجاب لذلك ، بادىء ذي بدء ، ودون أن يعرف المسألة التى سيتناولها بالدرس عند الاقتراح ،

وكان هذا معروفا فى المغرب ، واستمر العمل به الى وقت قريب، فلما اقتعد اليوسى كرسيه للالقاء ، قرأ السارد الآية : « فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث » وكان القصد التعريض به . فبدأ الشيخ يفسر الآية ، ووقف وقفة طويلة عند الكلب وخصاله الحميدة ، التى استهلها بانه يانس بالزائرين والضيوف ، كما قال الشاعر :

وكلبك آنس بالزائرين من الأم بالابنة الزائرة

وقال آخر :

يكاد اذا ما أبصر الضيف مقبلا يكلمه من حبه وهو أعجم

تطوان **محمد ابن تاويت**

اليوسي
فكر قوي وراء شخصية قوية

د. محمد زنيبر

لماذا الحديث عن اليوسى ، اليوم ؟

اعتقد انه بقدر ما هو مطروح علينا الاهتمام بمشاكل الحاضر والمستقبل ، نحن مطالبون أيضا ان نهتم بتراثنا . والاهتمام بالتراث لا يعنى آهات الاعجاب والتصفيق والتنويه الجزافى والاطناب فى المدح والتغزل بآثار الاجداد . وانما يعنى ، اولا ، صيانة ذلك الآثار من الضياع بتخصيص اعتمادات ومؤسسات واجهزة كافية لذلك . ويعنى اعادة دراسة ذلك التراث على ضوء العلم الحديث ، وتقييمه تقييما نقديا ، بابراز ايجابياته وسلبياته .

والاهتمام بالتراث لا يعنى ، من جهة اخرى ، اننا سنجد فيه العلاج لمشاكلنا الوقتية . فاجدادنا لم يعيشوا فى

نفس الاطـــار ولا فى نفس العالم ، ولـم يشاهدو الخطـوات الكبيرة التى سارت بها الحضارة فى عصرنا ، دافعة بعجلة التطور الى الاسراع فى الدوران . فمشاكلنا جديدة تحتـاج الى حلول جديدة . وهذا يرجع الى مسؤولية جيلنا الذي عليه أن يتحملها كاملة فيبحث لنفسه عن الحلول الملائمة .

لكن التراث يبقى له ، مع ذلك ، دور روحى ومعنوي . انه يربطنا بوطن ، ويكون أساسا من اسس شخصيتنا القومية، ومنفذا الى التيارات الحقيقية التى كانت تسري فى بواطـن الحياة الاجتماعية ببلادنا والتى قد نجد معها نقط التقاء . وهو بالاضافة الـى ذلك ، مستودع قيم وتجارب منها مـا تجاوزه الزمان ، ومنها ما زال محتفظا بجدته وحـيـويته ، دالا على عبقرية شعب وحصافته .

وليس كل الناس الذين عملوا فى بناء هذا التراث يقعون فى نفس الدرجة من الاستحقاق . فنحن لا نستطيع ، مثلا ، أن نضع مالك بن المرحل فى صف ابن خلدون ، ولا ابن الونان فى جنب اليوسـى . فكل من شاعر سبتة وشاعر الصحراء لم يبق لنا معهما الا لقاء التحية والمجاملة مع التفاتة سريعة الى آثارهما التى فتر اليوم التحمس للاقبال عليها لسبب بسيط وهو أنها ألفت لتستهلك فى حينها ولم تطمح الى مجاورة الاجيال المتلاحقـة . فى حين أن هاته الملاحظـة لا تنطبق لا علـى ابن

خلدون ولا على اليوسى (1) .

ولنترك ابن خلدون لنقف قليلا عند اليوسى حتى نفسر هذه الميزة بالتحليل والمثال الملموس . ليس من شك فى أن اليوسى أخذ دوره كعالم بجد . فهو لم ينظر الى العلم بتلك النظرة النفعية الانانية التى كانت تحد أفق كثير من العلماء فى البحث عن المنصب والجاه ، وتجعلهم يقلمون أظافرهم ، ويتخلون عن الصراحة فى الحق ، وينساقون فى سبيل التملق والمداراة .

وهذا يعنى ان اليوسى ادرك من اول وهلة انه اذا اراد أن يقوم بدوره على الوجه الاكمل ، كعالم بالمعنى الاسلامى الصحيح ، فعليه ان يبقى رجلا حرا حتى يستطيع أن يصدح بالحق فى كل المواقف ، فلا يدارى ولا يماري ولا ينافق . فمهمه الاولى تفرض عليه ، قبل كل شىء ، أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر . وهذا هو المبدأ الذي سار اليوسى على هديه فى المواقف الحاسمة التى طبعت حياته .

وهو، فى الواقع ، اختيار صعب لانه يوجه العالم فى وجهة نكران الذات والايثار ويحرمه من أطاييب الحياة التى ينعم بها اصحاب المناصب والمراتب ، ويدفع به فى طريق ليس فيها الا تحمل المسؤوليات والتقيد بواجبات . ونستطيع أن نقول ان اليوسى كان رجل واجب وانه كان يتصور واجبه

---

1 — انظر بحثنا المنشور فى « دراسات فلسفية وادبية » مجلة جمعية الفلسفة بالمغرب عدد 2 — 1977 بعنوان « من مظاهر ازمة المثقف فى المغرب » .

على الصورة التى حدد بها الفيلسوف « كانت » مفهوم الواجب فى فلسفته الاخلاقية ، هذا مع العلم بان « كانت » جاء بعـــد اليوسى بقرن من الزمان (2) .

فهو يقول فى احدى رسائله الى المولى اسماعيل ، متحدثا عن العلم : « ان طلب العلم والاشتغال بالتعليم نوع من الجهاد، بل هو الجهاد الثانــــى ، بل هو أهم الجهادين ، وذلك ان جهاد العدو مطلوب للدفاع عن بيضة الاسلام ، والعلم المطلوب لدفع الجهل عنهم . ثم اذا نظرنا وجدنا العدو تســـلـــط على الاموال والرقاب وهى امــــور دنيويـــــة لا بد من فراقهـــا اما بذلك او بغيره ، والموعد الآخرة . ولو تسلط الجهل ، عياذا بالله لم تبق عقيدة صحيحة ولا ايمان ، ولا عمل صالح . وهذا هو الهـــلاك الابدي الذي يستمر الى الآخرة » (3) .

وهذا الاستشهاد ينطلب ، فى الحقيقة شرحا طويـــلا ، نظرا لاهميته . ولكننا سنقتصر منه على ما تدعو اليه حاجتنا هـــا هنـــا .

1) ــ يوضح لنا اليوسى هنا فكرتــــه فى كون مهمة العالم تتلخص فى واجب . وهذا الواجب ليس من الواجبات العادية ، بل هو واجب يجعل العالم مجندا باستمرار ومقبلا على عمله

---

2 ــ من المعلوم ان الواجب له صبغة الاولوية فى فلسفة كانت ، بحيث تتلاشى امامه كل الاعتبارات الشخصية والعاطفية . فالانسان يقوم بالواجب لانه واجب يدركه عن طريق العقل العملى .

3ــ رسالة الى السلطان اسماعيل مخطوطة بالخزانة العامة .

بجد ونشاط . ذلك ان العلم ليس مجرد اكتساب للمعارف او قدرة على بثها ، بل هو نوع من الجهاد . فهنالك عدو خطير يترصد المؤمنين ليبعدهم عن العقيدة الصحيحة : الجهل . فالعالم ، بهذه المثابة ، خير مجاهد لانه يمس بما هو جوهري فى حياة المجتمع الاسلامى ، وفى قيام الاسلام كعقيدة ودين .

2 ــ ادراك اليوسى فى عصره للتفوق الذي بدأ يظهر للدول الاوربية على الدول الاسلامية من حيث القوة العسكرية والسياسية والتحكم فى مصير العالم . ويفهم من كلامه أن الهزيمة التى كان يتخوف منها على مصير الامة ليست هى الهزيمة العسكرية فى حد ذاتها ، وانما الهزيمة التى تصيب الجماعة فى معنويتها ، فى ارادتها ، فى شخصيتها . ولذلك فهو يمنح الاولوية للقوة الروحية التى تظل قائمة فى الامة بفضل محاربة الجهل .

3) ــ اقتناع اليوسى بان العلم لا يخص طبقة محدودة او نخبة محظوظة داخل المجتمع . بل انه يرى ان الجهل داء يمس بالامة كلها عامتها وخاصتها . ولذلك ، فالعلم مطلب للجميع دون تمييز . وعلى العالم ان يسعى لنشر العلم بين كافة الناس حتى يتحرروا من الجهل وتتقوى عقيدتهم .

حقا ، ان الغاية التى يهدف اليها اليوسى كرجل صوفى تتعلق بالآخرة أكثر من الدنيا . ومع ذلك فهو يرى الطريق تبدأ من الدنيا . ومن ثم جاء اهتمامه بشؤون الدنيا ، وكان هذا الاهتمام اهتمام رجل يدرك الواقع فى كثافته وتعقيداته . بما

جعله يلتقـــى مع التفكير المعاصر ومع تجاربنا المغربية المعاصرة.

وهكذا فهو يربأ بالعالم وبالمثقف ان يـــنـــحط الى منزلة الطفيلى الذي يأكل من فتات الموائد ، ويرد له الاعتبار ويضعه فى الصدارة ومن رجال المسؤولية الكبيرة . فكأنـــى به يشير بذلك الى الفكرة التى ظهرت فى عصرنا وكان لـــهـــا شأن فى اوساط **المثقفين الطلائعيين باروبـــا ، واعنى بهـــا فكرة الالتـــزام ،** التى تحول الاديب ، مثلا ، من رجل أنس وفكاهة وتسلية ، الى رجل يسخر قلمه فى الدفاع عن قضايا يومن بعدالتها (4) .

كما أنه تنبأ بأساس القوة التى يمكن أن يعتمد عليهـــا المغاربة يوم يحط المستعمر قدمه فى بلادهم . فأمام القوة المادية التى تسلحت بها اروبا والتى اكتسبتها من تطور علمى وتقنى تطلب مجهودات ومراحل ، رأى اليوسى ان خير سلاح للدفاع الفوري يكمن فى تقوية العقيدة . وهذا ما حدث ، بالفعـــل ، فى تاريخنا القريب ، حيث ان الاستعمار ادرك ما لهاته الظاهـــرة من خطورة ، فاتجهت خطته لاضعاف العقيـــدة ، اولا ، حتـــى يتسنـــى له ان يحل تلك الاواصر القوية والعريقة التى كانـــت تربط بين المغاربة . وهذا ما ادركه الوطنيون بدورهم فى حينه ،

---

4 ــ ادب الالتزام ظهرت فكرته وشاعت غداة الحرب العالمية الثانية ونادى به كتاب وفلاسفة كبار من نوع مالرو وساوتر وكامو الخ ... وهو فى الواقع يجعـــل من المثقف رجلا ملتزمـــا بالافكار التـــى يرددها فى اقـــواله وكتاباتـــه .

فانطلقت دعوتهم من تقوية العقيدة (5) .

وأخيرا ، نجده يلتقـي معنـا فى فكرة تعميم التلعيـم . حقا ، ان فكرته كانت متجهة للناحية الدينية ، قبل كل شـيء ، ولكن التعليم فى عصره ، كما نعلم ، كان مرتبطـا بالـديـن فى مختلف مراحله ، بحيث ان العالم هو رجل الدين . واذا كانت هنالك علوم دنيوية او ذات موضوع خاص كالحساب والنحـو واللغة والعروض والبلاغة وغيرها فانها تدخل فى نطاق التعليم الدينى كاضافات لا بد منها لتكوين العالم والمثقف فى تلك الازمنة الغابرة . فاليوسى يرى ، على أي حال ، ان الجهل معرة كبيرة من واجب العالم ان يحاول محاربتها فى مجتمعه (6) .

كما انه ادرك ان القيام بمثل هاته المهمة التى تعنى الامة بكاملها لا يمكن أن يتم عن طريق التطوع المجانـي ، بل لا بد من ان تفكر فيها الدولة وتنفق عليها او تخصص لها ميزانيـة كما نقول فى لغة اليوم . وهذا ما يوضحه اليوسى فى رسالته ، الكبيرة الى المولـى اسماعيل . فبعد أن يستعرض ما فعلـه الملوك السابقون فى المغرب من أجل العلم يخاطبه بقولـه : « ثم قد انتهت النوبة اليوم الى سيدنا ومصباح زماننا وشمس غربنا ، فأي شيء يمنعه وهمته أعلا ، وخزائنه آملا ، وقريحتـه

5 ــ كل تاريخ الحركة الوطنية دليل على هاته الفكرة ، ولكن يمكننا ان نركز النظر ، مثلا ، فى قضية الظهير البربرى ، فى دور التعليم الحر ايام الحماية ، فى العمل التوجيهى الذي كانت تقوم به الحركة الوطنية .

6 ــ فكرة تعميم التعليم هى ، ايضا ، من مطالب الحركـة الوطنية قبل الاستقـلال .

أقوى وبصيرته أضوى من أن ينتهض الى بناء هذه المكارم وتأسيس هذه الدعائم وتجديد هذه المعالم واحياء هذه المواسم فيملأ مساجد فاس ومكناسة وسلا وتطوان ومراكش ودرعة وسجلماسة بمجالس العلم ، وفرسان البحث والفهم ..؟ فان بيوت الاموال بالحواضر وافرة ، وأمناؤها بأبوابها حاضرة ، ولم يبق الا الامر السلطانى بالاعطاء ، فاذا الدنيا زاهرة ، وأهل العلم متظافرة ... » (7)

من هذه الفقرة يتبين لنا أن اليوسى كان يحمل نفس الغيرة على التعليم التى نجدها اليوم لدى عدد من المواطنين الواعين . ولكن اليوسى يتميز بكونه سبق الى ذلك منذ أكثر من ثلاثة قرون وأنه اهتدى لتلك الافكار بدافع من اجتهاده الشخصى ومن شجاعته الادبية التي جعلته يلتزم الامر بالمعروف . وما كان ليستوحى ذلك من عصره الذي كان عصر أزمات وفتن ، ولا من بيئته التى غلب عليها الجمود ، وخاصة فى أوساط العلماء .

فهو يعتبر أن المال المودع بخزائن الدولة يجب أن يخصص قدر منه لانعاش الحركة العلمية لا بمدينة واحدة ، ولكن بمختلف الحواضر والبوادي ، سيما وأن هنالك أمناء محليين يقومون بجمع الضرائب والمكوس . ومن كلامه يفهم ، أيضا ، أن هذا الانفاق يجب ألا يقتصر على التعليم وحده ، بل ينبغى أن يوجه الى البحث اذ له « فرسان » لابد من تشجيعهم فى عملهم .

---

7 — رسالة الى السلطان اسماعيل مخطوطة بالخزانة العامة .

ويؤكد فكرته ويوضحها حينما يقارن العالم بالمجاهد ، كما رأينا ، فيقول ، والضمير يعود على المجاهدين : « ثم ان اللـــه تعالى أباح لهم الغنائم ، مكانوا يتقوون بها على الجهاد كله ، وكانت تدفع لكل ممن حضر المعركة حكما شرعيا . فاذا فهم هذا فى المجاهدين وما يأخذون من الغنائم ، فليفهم مثله فى المجاهدين فى العلم حرفا بحرف ، فالمشتغلون بالعلم ، أيضا ، تعلما وتعليما محتاجون الى مؤونة وكفاية يتقوون بها على ما هم بصدده » (8)

يتجلى من كل ما تقدم أن اليوسى كان يحمل آفكارا عــن الاصلاح ذات صبغة ثورية بالنسبة للتفكير الذي كان سائدا فى عصره ، وأنه كان ينظر بعيدا حتى اننا نشعر اليوم بأنه يرنو الينا ويخاطبنا ويلتقى معنا فى جملة من الآراء . ونحاول أن نفسر هاته الميزة التى جعلته يتفوق على كثير من معاصريه . فيميل بنا الظن ، أولا ، الى الدرجة التى أدركها من العلم . ولكن سرعان ما ندرك أن تفسيرا من هذا النوع يتخلى عن الجوهر . فقد كان هنالك علماء آخرون متضلعون فى الثقافة الاسلامية ، موصوفون بالاحاطة وكثرة التحصيل ، ومع ذلك ، فلم يغدهــم علمهم فى النظر الى شؤون الحاضر والمستقبل بنفس التبصر الذي أظهره اليوسى . وهذا طبيعى لان العلم كان عند الكثير هو الحفــظ والاستناد الى المحفوظات لمواجهة كل الملمات ، دون الرجوع الى الواقع وتحليله وادراك ما يتجدد فيه باستمرار وما يتطلب علاجا مبنيا على الرأي والاجتهاد . أضف الى هذا أن استعمــال

---

8 ـــ نفس المصـــدر .

الرأي فى شؤون الدنيا من اصلاح سياسى واجتماعى وثقافى يتطلب قدرا كبيرا من الجرأة والشجاعة الادبية . فاذا نظرنا الى الوسط العلمى فى ذلك العصر نجد أنه فى الغالب لم يكن يدفع الى مثل هاته الجرأة ، ولذا فان الكثير من العلماء يبقون رجال متون وكتب يتبارون فى حفظها وشرحها ولا يخرجون عن دائرتها (9).

اذن ، كان هنالك شىء آخر أضافه اليوسى الى العلم التقليدي ليستطيع أن يكون رجلا ألمعيا يقدم الآراء السديدة فى كل الميادين التى تهم الاصلاح . وهذا الشىء نلمسه حينما نقرأ اليوسى ونقارنه بمعاصريه ، فندرك فى الحين أنه رجل حافظ للتفكير الشخصى على أولويته عند دراسة أي موضوع من الموضوعات ، ولم يعتبر أن التدين الحقيقى يكمن فى التخلى عن فطرة التفكير التى منحت للانسان ليضبط بها حياته فى كل المستويات . فهو ، أيضا ، يعرف المتون والكتب قديمها وحديثها ، ولكنه يتناولها بمهارة المفكر الذي يعرف كيف يستفيد وكيف يستنتج وكيف يبتكر وكيف يميز الصحيح من الزائف . وهذا ما استطاع أن يبهر به معاصريه لان الناس فى كل عصر وفى كل مكان يفضلون العالم الذي يأتى بشىء جديد من عنده على العالم الذي يكتفى بترديد ما حصله من الكتب والمجالس العلمية .

ولذلك فان معاصريه لم يترددوا بأن ينعتوه بنعت لا يناله

---

9 ــ هاته نقطة مهمة يمكن التوسع فيها بالرجوع الى :
محمد حجى :
م . زنيبر : « من مظاهر ازمة المثقف فى المغرب » .

الا القليل من العلماء حيث قالوا عنه انه « المجدد على رأس هذه المائة لما اجتمع فيه من العلم والعمل بحيث صار امام وقتــه وعابد زمانه » (10) ، وكان شاعرا بهاته الميزة التى يتميز بها اذ نجده يجيب أحد السائلين أثناء درس من دروسه : « اسمع ما لم نسمعه من انسان ، ولا تجده محررا فى ديوان ، ولا مسطــرا ببنان ، وانما هو من مواهب الرحمن » (11) وهذا كافليين لنــا نزعته الى التجديد والاجتهاد الشخصى فى ميدان العلم والعمل معــا .

وشخصيته القوية هى التى جعلته ، من دون شــك ، شديد الوعى ، مرهف الاحساس بكل ما كان يجري حواليه ، فلم يكن من العلماء الذين يوصدون أبوابهم لينعزلوا مع كتبهم ، غير مبالين بمجتمعهم ، بل اننا نشعر ونحن نقرأه بأنه فى المغــرب وأن المغرب داخل فى نفسه . فهو يعيش مع معاصريه ويتحدث عنهم كلما سنحت له الفرصة . وهنا لا ننسى الازمات الخطيرة التى اجتاز منها المغرب طيلة القرن السابع عشر أي طيلة المدة التى عاشها اليوسى اذ شاهد انهيار دولة متداعية وقيام دولــة جديدة مع ما رافق هاته التحولات من صراعات وحركات اقليمية وتمزق كان يهدد كيان البلاد . نعم ، لقد استطاعت الدولة المغربية أن تسترجع سلطتها ووحدتها فى الثلث الاخير من القرن ، ولكن

10 ــ العباس بن ابراهيم : الاعلام (ط ملكية) 3 / 158 وكذلك : الناصرى: الاستقصــا 7 / 109 .

11 ــ نفس المصدرين السابقين .

اليوسى لم يكن مقتنعا بأن الدواء الناجع يكمن فى استعمال السلطة وحدها ، دون التفكير بجد فى القضاء على العوامل السلبية التى ظهرت وقت الازمة ، وذلك بالسير فى خطة اصلاحية . ومن ثم جاءت رسائله الى المولى اسماعيل .

والواقع أن اليوسى استفاد كثيرا من ملابسة الحياة الواقعية بمغرب القرن 17 وما جد فيه من أحداث سياسية واجتماعية . ومعرفته بالمغرب لم تكن نظرية أو نقلا عن الغير ، بل انه كون نفسه علميا وفكريا ، بجولات طويلة فى المغرب . فكان بسجلماسة ودرعة وسوس ومراكش ودكالة والزاوية الدلائية وفاس وغيرها ، واستطاع أن يلمس عن كثب الى أي حد وصل الضرر بوطنه ، وقد شاهد الغزو الاستعماري يتحرش بالبلاد فى جهات متعددة ، والدولة السعدية القائمة مبدئيا بشؤون الوطن تنقسم على نفسها ، وتتخلى عن مهمتها ، وتستهين بسيادتها ، فى حين كان هنالك طائفة من المجاهدين والصوفية والعلماء يحاولون أن يرد واالفعل ويتداركوا الخطر . ومع ذلك فلم يزدد الا تعلقا ببلاده التى ، وان طما فوقها شر البشر ، فما زالت ينابيع الحياة العذبة الصافية تفيض بها فى كل الجهات . ولننصت اليه يعبر عن ذلك ، وقد اهتزت نفسه بالحنين وهو بمراكش سنة 1090 هـ .

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة
بسهب الثنين أو بسهب بنى ورا

وهل تعبرن نهر العبيد ركائبى
وهل تتركن دايا وادواءها ورا

وهـــل أردن عسلــــوج يوما فأشربن
مياهـــا بـــه تحكـــى رحيقـــا وكوثرا

وهـــل تمرحـــن خيلـــى بـــذروة امنـــا
وبطنانهـــا مـــن قبل أن يحضر الثري

وهل أكحلن يومـــا جفونـــى بنظـــرة
الـــى الارزات الفارعـــات فتبصـــرا

وهل أدغمـــن جيش الهموم ببسطـــة
مع الحى فى تلك الديار فتنتصـــرا (12)

وهذا الحنين الذي ينبع به شعر اليوسى متجه كما نرى الى الجبال والبراري ، الى مواطن القبائل . فهو ابن الباديـــة وسيظل الى آخر حياته ابن البادية ، برغم سكناه فى الحواضر واختلاطه بأهلها . واتصاله بالبادية منشأ وشعورا جعله أكثـــر ادراكا لبواطن المجتمع المغربى الذي كانت تسعه أعشاره تعيش آنـــذاك فى البـــوادي .

وقد بدأنا ندرك اليوم شيئا فشيئا أن البادية ساهمـــت مساهمة فعالة فى الحياة الثقافية بمغرب الامس ، بعد أن ازداد اطلاعنا على تاريخ الادب المغربى من خلال المصادر والدراسات المتعددة التى نشرت فى السنوات الاخيرة . والواقع أن هاتـــه المساهمة عريقة يمكن ارجاعها الى عهد البداية من استقـــرار

---

12 ــ اليوسى : المحاضرات (دار المغرب للتاليف والترجمة والنشر) ص 142 .

الاسلام بالمغرب . ونحن ، على أي حال ، نتأكد مع ابن الزيات من وجود حياة روحية مع رجال يرعونها بالبوادي المغربية منذ القرن السادس الهجـري .

لكن تلك المساهمة تزداد توسعا ولمعانا منذ القـــرن السادس عشر أي منذ أن تجندت البوادي تحت قيادة عدد من الزوايا للدفاع عن المغرب . ويكفي أن نحيل القارىء هنا ، دون تطويل ، على كتاب « الحركة الفكرية بالمغرب فى عهد السعديين » للاستاذ محمد حجى . فقد خصص ما يقارب مائتى صفحـــة لدراسة ما سماه المراكز الثقافية القروية ، بمقابل المراكـــز الحضرية . ولنذكر منجملة هؤلاء الذين نبغوا فى الجبال والسهول المغربية أعلاما مثل الزياتى وابن عرضون الزجلى والهبطـى والياصلوتى وطائفة من الدلائيين وأبا سالم العياشى ممن سبقوا اليوسى أو عاصـــروه .

وتدخل هؤلاء العلماء المتأصلين من البادية ليس مجرد اضافة كمية لهيئة العلماء بالبلاد ، بل انه اضافة نوعية وكيفية أيضا ، لانهم تناولوا العلم من وضعية خاصة بهم وحاولـوا أن أن يطبقوه على بيئتهم المحلية . ثم انهم وجدوا نفسهم فى موقع منافسة مع علماء المدينة الذين كانوا يشكلون طائفة مغلقة معتدة بعراقتها فى التمدن وبنفوذها فى دواوين الدولة وكواليسهـا . الشىء الذي دفع بهم الى أن يبرهنوا عن وجودهم والاعتـزاز بأصالتهم وذلك عن طريق اظهار براعتهم وتبحرهم فى العلـم .

وهذا ما عبر عنه اليوسى حين شعر وهو يلقى دروسه بالقرويين أن جماعة من أعيان طلبتها يتعمدون مقاطعتها (13) :

ما أنصفت فاس ولا أعلامها
علمى ولا عرفوا جلالة منصبى

لو أنصفوا لصبوا الى كما صبا
راعى السنين الى الغمام الصيب

ونشعر باليوسى يعتز بالبادية ويظهر ميله اليها فى كم فصل من فصوله ، وهو ينطلق من مبدا المساواة بين كل بقاع الارض ، حاضرة كانت أم بادية ، ويستشهد باستاذه أبى بكر التطافى الذي كان يردد :

وما عرف الارجاء الا رجالها
والا فلا فضل لترب على ترب

ويوضح ذلك قائلا :

« واعلم أن بقاع الارض كأفراد الانسان . وهى كلها مشتركة فى كونها أرضا وتربة . ثم تتفاوت فى المزايا الاختصاصية اما من ذاتها بأن يجعلها الله تعالى منبتا للعشب ، وهى أفضل من السبخة ، أو مزرعة وهى أفضل من الكنود ، أو سهلة وهى أفضل

---

13 — ع. بن ابراهيم : الاعلام 3 / 157 .

من الحزن ، وقد ينعكس الامر ، أو معدنا وتتفاوت بحسب الجواهر المودعة فيها ، أو منبعا للماء ، وتتفاوت بحسب المياه، الى غير ذلك من مختلفات الفواكه والاشجار والازهار وسائر المنافع ، أو من عارض كان يختصها الله تعالى بكونها محلا لخير » (14) .

وفى رسالته المطولة الى المولى اسماعيل يفسر أسباب مغادرته لمدينة فاس وتفضيله السكنى بالبادية فيذكر أنه . بحكم أصله ونشأته لابد وأن يكون له ميل خاص الى البادية . وهذا يتجلى حتى فى عادات الحياة اليومية التى درج عليها . فالسكنى بفاس تظهر له ضيقة فى البيوت ، فهو يفضل الهواء الطلق وامتداد الآفاق فى أبعد مداها والفجاج الواسعة ، حسب تعبيرة . « فمن دخل دارا لم تكفه هو وعياله وأولاده ... ووجب أن يرى من لايجوز أن يراه . » ثم انه يرى نوعا من الغضاضة فى الاضطرار الى شراء الماء بالمال « فما بالك بما فوق الماء من الحطب والقوت ! (15) .

وهنالك أسباب أخلاقية تؤدى برجل البادية الذي ألف أن يعيش على سجيته دون تكلف الى أن يفتن بشهوات الحاضرة ويوضح ذلك اليوسى قائلا :

« ومنها فساد طبع الاهل والأولاد والاصحاب ، ونخشى ذلك ، أيضا نحن فى أنفسنا وذلك من جهات : أحدهما تطم

14 — اليوسى :المحاضرات ص 49 .
15 — اليوسى : رسالة مخطوطة .

الشهوات والاتساع فيها ، وان كنا فى البادية لانعرفها . فلما دخلنا الحاضرة ، ظهرت الشهوات ونظر النساء الى النساء ، والصبيات الى الصبيات ، والرجال الى الرجال ، فطلبوا الاتساع كما اتسعوا وابتلينا كما ابتلوا . ثانيهما الوقاحة فى ذلك وقلة الحياء . ثالثهما : أن يتعلم الصبيان اللؤم والبخل وقلة السماحة كما هو دأب أهل الحاضرة ، وما فسدت طبائع العرب الا فى الحواضر » (16)

ولعل اليوسى يقسو فى حكمه على سكان الحاضرة ، لكن الظاهر أنه يعبر عن شعور صادق ناشىء عن معاناة وتجربة . على أنه ، فى هذا الصدد ، ربما كان يردد أصداء لابن خلدون حين يقارن بين طبائع البدو والحضر ويقول :

« وأهل الحضر لكثرة ما يعانون من فنون الملاذ وعوائد الترف والاقبال على الدنيا والعكوف على شهواتهم منها ، قد تلونت أنفسهم بكثير من مذمومات الخلق والشر ، وبعدت عليهم طرق الخير ومسالكه بقدر ما حصل لهم من ذلك . حتى لقد ذهبت عنهم مذاهب الحشمة فى أحوالهم ، فتجد الكثير منهم يقذعون فى أقوال الفحشاء فى مجالسهم وبين كبرائهم وأهل محارمهم لا يصدهم عنه وازع الحشمة ، لما أخذتهم به عوائد السوء فى التظاهر بالفواحش قولا وعملا . وأهل البدو ، وان كانوا مقبلين على الدنيا مثلهم ، الا أنه فى المقدار الضروري لا فى الترف ولا فى شىء من أسباب الشهوات واللذات ودواعيها . فعوائدهم فى

16 ـــ نفس المصدر .

معاملاتهم على نسبتها ، وما يحصل فيهم من مذاهب السوء ومذمومات الخلق بالنسبة الى أهل الحضر أقل بكثير . فهم أقرب الى الفطرة الاولى وأبعد عما ينطبع فى النفس من سوء الملكات بكثرة العوائد المذمومة وقبحها ، فيسهل علاجهم عن علاج الحضر ، وهو ظاهر » (17) .

ويواصل اليوسى تحليله للاسباب التى نفرته من البقاء بالمدينة من خلال التجربة التى عاشها بفاس ، فيذكر الحسد الذي تعرض له فى قصة يقدمها بكل صراحة وبساطة :

« ولقد طلبنى السلطان مولاي الرشيد بالرحيل الى فاس ، وقال تصيب الظل والماء البارد وتأكل الخالص وينتفع بك المسلمون . ولم أكن رأيت فاسا قبل ذلك ، ولا كان لى علم بحاله ولا حال أهله . فقلت : هذا والله خير . وقبلت قول السلطان ورحلت بنية صالحة فبت خارج فاس نحو ليلتين ، والطلبة يترددون الى . فلم أدخل المدينة حتى لم تبق لى تية من كثرة القيل والقال . ثم بدأنا القراءة ، فاطبقت علينا الطلبة أهل البلد والغرباء . وكان المجلس حافلا ، وذلك فى غيبة السلطان الى سوس ، فتحرك الحسد والوسواس وكثرة القيل والقال . وجعل كل من يحبنى يحذرنى من الناس ومن أكل طعامهم ، فما يمكننى أن أشرب ماء ولا آكل طعاما من يد أحد ، ولا أجلس على سليخة الكرسى حتى يقلبها أصحابى . وصرنا فى فتنة وبلاء . ثم لم ألبث قليلا حتى مرضت ، فبقيت حتى نقهت . واسترحت فذهبت للقراءة

17 ــ ابن خلدون : مقدمة (ط بيروت) : ص 215 .

فلم أكن الا أن طلعت على الكرسى أصابنى ذلك فنزلت وجئت الدار ، فرقدت أيضا حتى نقهت ، فرجعت فكان الامر كالاول . فعند ذلك قام الى أصحابى ، وقالوا : هذا أمر واضح وبين . هذا عمل عمل لك على مجلس القراءة لئلا تشتغل به . فانك ميلت على الناس تلاميذهم ، وأخليت مجالسهم .. ثم لما رجع السلطان من سوس ، وخرجت العطايا للفقهاء وطلبة العلم .. فعند ذلك جعل الطلبة يتسللون من مجلسى ، ويذهبون الى حيث كانت العطايا حتى لم يبق ، بحمد الله ، الا من همته العلم لا الدنيا وأكثرهم من الغرباء وقليل من أهل البلد . وأكثر أهل البلد انما همتهم فى جائزة يقبضونها أو محراب أو كرسى أو شهادة يقولونها » (18) .

لاشك أن اليوسى داخله بعض الوهم ، ولكن المهم فى القصة التى يسوق لنا هو ما تتضمنه من تصوير للمجتمع الثقافى الذي كان بفاس فى عصره ، وهو تصوير يمكننا أن نجد فى مجتمعنا الحالى ما يذكرنا به ويحاكيه . فليس كل المتعاطين للعلم همهم العلم ، بل هناك كثير لا تحركهم الا المغريات المادية ومظاهر التشريف والمناصب والالقاب . ومع ذلك ، فليس من الانصاف أن نساير اليوسى فى حكمه القاسى . فلا ننس أن العلماء ، وبخاصة فى فاس ، تعرضوا لمحن كثيرة فى الفترة الاخيرة من الدولة السعدية . ويكفى أن نذكر ، على سبيل المثال ما حدث لمحمد القصار لانه أراد أن يحسم الخلاف القائم على

---

18 ـــ اليوسى : رسالة مخطوطة .

ولاية العهد ويتلافى الانقسام الخطير الذي سيتعرض له المغرب بسبب النزاع بين أبناء المنصور على العرش (19) . وشـاءت الاقدار أن يسير المغرب فى طريق الانقسام والحرب المدنية . وأن يلجأ المامون السعدي الى الاسبان كي يساعدوه فى حربه مع أخيه راضيا بأن يتنازل لهم عن ميناء العرائش ، فما كان من علماء فاس الا أن استنكروا هذا الموقف الذي لا يمكن أن ينعت الا بأنه خيانة للوطن ، بل ان البعض منهم قام مناديا بالجهاد « لاغاثة المسلمين بالعرائش » (20)

ولا ننس كذلك الاتجاه الوطنى الصريح الذي اتجه اليه أولئك العلماء حينما ظهرت حركة الجهاد على يد محمد العياشى لمواجهة الحملة الاسبانية الجديدة على المغرب .

واذن ، فاليوسى يغمط هؤلاء العلماء حقهم ويتجاهل تضحيتهم ومواقفهم ؟ لا يحق لنا أن نشتط فى محاسبة اليوسى ، وكل ما نستطيع أن نقول هو أنه كان ذا حساسية قوية ممزوجة بحدة المزاج . ولم يكن من الميسور عليه أن يساير أبناء حاضرة كفاس فى تقاليدهم وعادتهم وأذواقهم .. فكان اصطدامه معهم شيئا متوقعا ، وليس من السهل أن نقف موقف الحكم فى تلك الخصومة ، لان كل فريق له حجته ووجهة نظره . والحقيقة أن السبب الرئيسى فيها لا يرجع لشخصية الافراد ومزاجهم بقدر ما يرجع للبيئة التى ينتمون اليها . فالتفاوت الكبير بين البادية

19 — الاستقصا (دار الكتاب) ج 6 ص 6 .

20 — نفس المصر ص 21 ، 22 .

والحاضرة الذي تحول الى صراع مزمن هو الذي يمكن أن نرجع اليه لتفسير بعض المواقف التى تظهر عند الفرد ، ولكنها تتجاوزه وفضل اليوسى كسليل البادية هو أنه ، من وراء الحجج والكلام الذى يستعمل فى الدفاع عن موقفه ، يجعلنا نلمس هاته المشكلة الاجتماعية كما كانت موضوعة فى المغرب . فكان لابد من وجود شخصية قوية مثله لاثارة الموضوع بكامل الصراحة والوضوح(21)

ولعل هذين العنصرين اللذين لمسنا فى اليوسى ، البدوية وقوة الشخصية هما اللذان قاداه الى الثورة على التلقيد، فالأولى تجعله أقل تحرجا فى رؤية الاشياء كما هى ، بعيدا عن الاوهام والخيالات . فينطلق من مجتمع البادية الذي يقدم المشاكل الانسانية المختلفة فى أوضح صورها وأشدها وقعا ، بما فيها من مصائب ومآس ومظاهر الخير والتفاؤل ، أيضا . والملاحظ أن الكثير من المؤلفين المغاربة يتجاهلون البادية فلا يتحدثون عنها بالمرة . ولكنها شيء موجود بالنسبة لليوسى ، يتحدث عنها باستمرار ويلمس آثارها فى نفسه وذوقه وسلوكه. ومن دون شك أنه يستمد منها ذلك الاعتزاز بالحرية الذي يشع من كلامه ، حرية ابن الطبيعة الذي يتقلب بين ربوعها دون رقيب ولا محاسب .

والثانية تجعله أكثر جرأة على ولوج ميادين الصراع والجدال والمخاطرة بنفسه فى المواقف التى قد لا يخرج منها المرء سالما . ومن ثم فقد حدد لنفسه كمثقف هدفا أسمى وأعظم

من أن ينال الحظوة لدى الكبراء والشهرة فى المحافل العلمية ولدى العامة . لقد أراد ، قبل كل شىء ، أن يكون قوالا للحق ، دوون أن يخشى فى الله لومة لائم . ومن ثم فقد شنع على المقلدين تقليدهم ، وبين أنهم لا يخدمون بموقفهم العقيدة الصحيحة . وتفكيره فى هذا الباب جدير ببحث خاص . ولكننا نكتفى هنا باثارة ثلاثة جوانب منه :

أ و لا : انه يطالب العالم بأن يكون متفرغا لعلمه وأن يعمل على نشره بين الناس ، وأن يتحرر من أن تأثير فى مزاولة عمله هذا فلا يكون آلة مسخرة ، ولا يخلط رجال الدنيا وأصحاب المناصب ، ويفسر لجوء العالم الى مثل تلك المخالطة بأنها قد تكون « لالجاء الوقت له أو لطلب التوسع فى الدنيا أو طلب الجاه أو لمجرد التمتع فى الوقت مأكلا ملبسا ومنظرا ، أو ليتمكن من الظفر بخصمه ... وكل هذا يصرفه عن مهمته الاساسية التى تفرض عليه باستمرار أن يكون رهن اشارة الطلبة والعامة .. فى داره أو فى بيت من بيوت الله . فحيث ما جاء متعلم أو سائل وجده . ويصل اليه المسكين والعجوز ، ويباحثه الطلبة حتى يقف على التحقيق ولا يرهبونه ولا يستنكرونه ولا يتهمونه » . وبالجملة ، فاليوسى يطالب العالم أن يكون مثل القاضى الذي يزاول مهمته باستقلال تام عن كل سلطة أخرى ، وبذلك تتوفر له حرية الضمير التى تجعل منه عالما بكل معنى الكلمة (22) .

---

21 — من المفيد الرجوع الى كتاب بيرك .

22 — رسالة اليوسى المخطوطة والمشار اليها سابقا فيها توضيح كبير لهاته النقطة .

ثالثـــا : انه يرى ما فى التقليد من آفات على العقيـــدة والدين ، سواء لدى العامة أو لدى المتعلمين . فالتقليد معنـــاه الاستغناء عن العقل . ومن ثم ينفسح المجال لانواع مختلفة من الانحرافات والشعوذة والتضليل واستغلال جهل العامة وغفلتها. ويتعرض للموضوع فى صفحة طريفة من محاضراته مبتدئـــا بالحديث عن « الشجرة الخضراء فى المدينة الخالية سجلماسة » التى أمر أحد العلماء بقطعها . ويفسر سبب ذلك بقوله :

« وكان أهل سجلماسة لما استغربوا أمرها يزورونهـــا ، ولاسيما النساء ، فيكثرون عليها من تعليق الخيوط ، ويطرحون الفلوس أسفلها ، وربما تعالت النساء فى تعظيمها والتنويـــه بشأنها حتى يسمينها باسم امرأة صالحة كالسيدة فاطمة ونحو ذلك . فلهذا أمر الاستاذ المذكور بقطعها وكأنه يرى أنها صارت ذات أنواط كما قال الشيخ أبو العباس المرسى ، رضى الله عنه. فذكرناها نحن للتنبيه على ذلك ، فان عوام الناس أكثروا عليها منذ عقلنا حتى كانوا ينسبون اليها من تراهات الاراجيف نحو قولهم : قالت الشجرة الخضراء : هذا زمان السكوت ، من قال الحق يموت . فليعلم الناظر أنها انما هى شجرة لا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع . ومثلها أحق أن يقطع ».

وويضرب أمثلة أخرى عن هذا النوع من الشعوذة الـــذي ينبنى على فكرة التقليد والاستسلام ، دون الرجوع الى العقل . ومن هذا الباب تسرب الانحطاط الفكري والمعنوي الى العالم

الاسلامى ، واكتسى الباطل ثوب الحق ، وعاد الحق محل النكران والجحود (23) .

ثالثا : كان من الطبيعي أن يرد اليوسى للعقل منزلته ودوره كأداة أساسية فى ميدان المعرفة والعمل معا . فهو يحذر القارىء لكتبه من أن يعتبره من المؤلفين الذين يتصدون « لحكاية أقوال الناس وتلفيق كلامهم » ، بل انه يعيد النظر فى كل القضايا التى يتناولها ، ويقبل من كلام العلماء ويرد ، ويستنكف من التقليد باللفظ القوي الذي لا يترك مجالا للتردد ، اذ يقول :

« وانما نعوذ بالله أن ننسخ وجوه القراطيس ، ونكثر هذه الدفاتر بمجرد ما للناس لفظا ومعنى على نهج التقليد ، صنع كل بليد . ولم يكن أحد من علماء العقلاء وعقلاء العلماء يقيم للمقلد التابع كل ناعق أو يثبت له فضلا أو يعده عالما أو فقيها . وانما كان يعد فى نحو نوادر القصاص وأصحاب الخرافات . فانه لا فرق بين مقلد ينقاد وبهيمة تنقاد . فليكن فى علمك ، أيها الناظر ، أننا ما أودعنا هذا أو غيره من الموضوعات الا ما اعتقدنا صحته تصورا أو تصديقا عن ضرورة أو بينة وصحة » (24) .

لكنه ، وهو يدافع عن العقل ، ويرجع للاستدلال والبرهان مقامه الجوهري فى ميدان العلم ، يستنكف من التعصب وضيق الفكر ، ويطالب العالم باعتبار القوم الذين يخاطبهم ، من حيث

---

23 ــ اليوسى : المحاضرات : ص 43 .

24 ــ ع. بن ابراهيم الاعلام 3 / 162 .

مستواهم الثقافى والعقلى حتى لا يفرض عليهم ما هم عاجزون عن ادراكه . ومن ثم جاء انتقاده لبعض علماء تافيلالت الذين دفعهم التعصب الى اتهام العامة بالكفر لانهم لا يستطيعون أن يفهموا كلمة الاخلاص بفهم الامام السنوسى صاحب العقيدة المشهورة . فها هو يقص بنفسه ما شاهد من ذلك أثناء سفر قام الى تافيلالت :

« ثم رجعت فى زورة أخرى بعد هذه ، فمررت ، أيضا ، بسجلماسة فوجدت فتنة أبشع من هذه وأشنع ، وقعت لهؤلاء مع عوام المسلمين ، ثم مع المسلمين كافة ، عامة وخاصة . وذلك ؤنهم نظروا فى كلام من حرص من الائمة على النظر فى علم التوحيد ، وحذر من الجهل فيه ومن التقليد . فجعلوا يسألون الناس كما يعتقدون ، ويكلفونهم الجواب ، والابانة عن الصواب. فربما عثروا على قاصر العبارة عما فى قلبه ، أو متلجلج اللسان لدهش ناله ، أو جاهل بشىء مما يقدح فى العقيدة أو يظنونه قادحا ، وان لم يقدح ، فيشنعون عليه الجهل والكفر ، ثم أشاعوا أن الفساد قد ظهر فى عقائد الناس ، وجعلوا يقررون العقائد للعوام . فشاع عند الناس أن من لم يشتغل بالتوحيد على النمط الذي يقررون فهو كافر . وشاع عندهم أن من لم يعرف معنى لا اله الا الله ، أي النفى والاثبات على التقرير الذي يقرره العلماء فهو كافر . فدخل من ذلك على عوام المسلمين أمر عظيم وهول كبير » .

هاته مشكلة علمية كانت لها انعكاسات مجتمعية حولتها

الى فتنة والى صراع داخلي في جماعة كانت تعيش قبل ذلك في تفاهم ووئام . وهي مثال عما قد يؤدي اليه سوء استغلال العلم والتفكير . وانظر الى اليوسي كيف يعالجها بسعة أفقه وبعد نظره :

« فلما دخلت البلد ، جاءني الناس أفواجا يشتكون من هذا الامر ، وأن ليس كل أحد يبلغ الى فهم تقارير العلماء ، فأقول لهم : ان الله تعالى انما تعبدكم باعتقاد الحق في نفوسكم ، أفلا تشهدون أن الله تعالى حق موجود ؟ فيقولون : بلى . — أفلا تعلمون أنه واحد في ملكه لا شريك له ولا اله معه ، وكل معبود سواه باطل ؟ فيقولون : بلى . هذا كله يقين عندنا لا نشك فيه ولا نرتاب . فأقول لهم : هذا هو معنى كلمة الاخلاص المطلوب منكم اعتقاده ، سواء عرفتموه من لفظها أو لا . فان الكلمة عربية ، والاعجمي لاحظ له في دلالتها . وانما حسبه أن يترجم له مضمونها فيعتقده » (25) .

بهذه الصورة ، يستنكر اليوسي التقليد ، ويدعو الى الاجتهاد دون تزمت ولا تعصب . ولا يسعنا ، هنا ، الا أن نلاحظ أنه سبق عصره بعدة أجيال . فالموقف الذي آمن به ودافع عنه في أواخر القرن السابع عشر لم يدرك العلماء المغاربة كل أهميته الا في النصف الاول من القرن العشرين حينما تربعت الحركة السلفية في المجالس والمنابر كأقوى تيار فكري يتماشى مع

---

25 — اليوسي : المحاضرات ص 92 .

تطلعــات الشباب الوطنى الذي بدأ يتأهب لخوض معركـــة التحرير الوطنى .

من خلال هاته الامثلة والاقتباسات المحدودة استطعنا أن ناخذ صورة ولو مصغرة وناقصة عن اليوسى كمفكر . وحسبها أن تكون حافزا للباحثين فى تاريخ الفكر المغربى لبذل جهـــود كبيرة فى سبيل التعرف على هاته الشخصية التى ما زلنا نجهل عنها الكثيــر .

ســـلا . د. محمد زنيبــــر

بطاقة في منتهى الطاقة

يرفعها أبو الحسن اليوسي إلى السلطان مولاي إسماعيل

دوافعها - تاريخها - أصداؤها - دلالاتها الاجتماعية وأبعادها السياسية

د. عبد الهادي التازي .

... وهل حفظ تاريخ فرنسا مثلا وجود شخصية كاليوسى تستطيع ان تصدع بآرائها وأفكارها فى وجه لويس الرابع عشر دون ما أن تتعرض لشتى انواع المتابعات والمطاردات المعروفة على ذلك العهد .

عبد الهادي التازي

اذا كان على الجيش أن يقوم بحماية الشخصية المادية للدولة ، فان الذين وكل اليهم حماية الشخصية المعنوية للدولة هم العلماء ، ومن هنا كان مركز هؤلاء مرموقا لدى الشعب وقادة البلاد على السواء ، فهم فى الأمة عيونها وشهودها يحضرون محافلها ومئآتمها أفراحها وأتراحها ، ومن حق أبسط رجل فى

الناس أن يستوقفهم فى الشارع ويطلب فتواهم . ومن واجبهم أن يفتحوا بيوتهم وقلوبهم لكل راغب . . . وهـــم لا جل هذا ينعمون لدى الملوك والامراء بمرتبة سامية لايصـــل اليها أحد بالرغم من أنهم أحيانا لا يفهون أولئك الملوك أو بالحرى لايريدون ان « يفهموا » المقاصد البعيدة لقادة البلاد . . .

وكما كان الأطباء بالامس واليوم يتخذون من الوخز بالابر وسيلة للعلاج وطريقة لاحيـــاء الانسجة المهددة بالتموت فى الجسم ، فان الملوك كانوا يرون فى الكلمة العادلة من العالم العامل وخزا محببا ينعش شعورهم ويغذى ارواحهم ، ويشدهم دائما الى جانب الحق والانصاف . . . وكانوا يجدون فى تلك الأصوات المرتفعة هنا وهناك جرسا محببا اليهم يذكر بمواقيت العظة ويفرض عليهم فترات للتأمل والتذكر . . .

ومن ثمة تحدثت كتب الأخلاق عن الاجـــر والثواب الذي يناله الكبار وهم يتحملون النقد اللاذع . . . فليس لأحد أن يكبر عن التدليل على طريق الله ولا أن يصغر دون ذلك على ما قاله زيد بن على زين العابدين لهشام بن عبد الملك . . . ومن ثمت ايضا استمعنا الى القادة وهم يشجعون مرشد يهم بهذه الكلمة الرائدة : لا خير فيكم اذا لم تقولوها ولا خيـــر فينـــا اذا لم نسمعها . . .

لقد كتب أمير المسلمين على بن يوسف بـــن تاشفين الى القاضى أبى عبد الله محمد بن يحيى ابن عبد الله المعروف بابن الفراء يأمره بفرض معونة استثنائية على أهل ألمرية ليتقوى

على الجهاد فاجابه القاضى بأن ذلك لا يجوز ، ولما عقب أمير المسلمين بأن الخليفة عمر بن الخطاب كان فرضها فى زمانه راجعه القاضى بخطاب يظل شاهدا تاريخيا للحوار الشريف المتبادل بين الملوك المغاربة وبين علماء الأمـــة .

وقد ظل هذا شعار الدولة سواء فى العهد الموحدى أو العهد المرينى أو العهـــد الوطاسى أو السعدى . . . نجد لذلك أمثلة متعددة فى التاريخ تصل احيانا الى حد الاطراف واحيانا أخرى الى حد الاسفاف (1) .

وقد كان مما يزيد فى ثقة العلماء بانفسهم أنهم ـــ الى جانب تقديرهم من لدن رئيس الدولة ـــ فقد عرفوا احتراما سابقا من السلف الصالح الذى جعل لهم فى بيت المال وريع الأوقاف نصيبا حتى لا يضطروا الى طرق أبواب قد توصد فى وجوهم غدا متى أصبح لهم موقف مغاير للذين يتولون أمر البلاد ...

ذكرت كل هذا وأنا أعيش حياة الشيخ ابى علـــى الحسن اليوسى واستعرض رسائله وحواره مع ملك يعتبر من أعظم الملوك شأنا واقواهم مركزا سواء علـــى الصعيد الداخلى أو الصعيد الخارجى ... ونعنى به السلطان مولاى اسماعيل الذى دوخت مراسلاته ملوك أروبا وأصبح الوزراء لدى تلك الدول يخشون تبليغ محتواها لا ولئك الملوك حتـــى لا يغضبوهـــم ويزعجوهـــم ...

---

(1) الصلة طبعة 11/1955 رقم 1261 ـــ الاستقصا 2 ، 53 ـــ 54 ـــ جامع القرويين : المسجد الجامعة 1 ، 131 ـــ 148 .

ومن الطريف أن نجد السلطان مولاى اسماعيل وهو يضيق صدرا فى بعض الأحيان بمحاجة لويس الرابع عشر ملك فرنسا ومراجعة كارلوص الثانــى ملك اسبانيــا ... ينشرح صدره لمراجعة علماء من أمثال الشيخ عبد القادر الفاسى والشيخ الحسن اليوسى بل نرى العاهل المغربى يتعمد استمزاج رأى هؤلاء الشيوخ ليسمع منهم المزيد ويكتشف عن طريقهم المفيد ... وقد كان هذا فى نظرنا مؤشــرا أول على أن ما أثــر فى بعض المصادر الأجنبية من أن العهد الاسماعيلى كان معروفا بالزجر والقمع ... كان كلاما ملقى على عواهنه ولا يستهدف الحقيقة بقدر مايرمى الى المس بشخصية كانت ــ كما يعرف الجميع ــ شجى فى حلــق المحتلين والطامعين والمتربصين والا فبماذا نفسرا ستطاعة فقيه كالشيخ اليوسى أن يتناول بالنقد واقعا كان يرى ــ لسبب أواخر ــ أن فى الامكان التخلص منه الى وضع اخر احسن ، دون ما أن يتعرض الشيــخ لمتابعة ولا مطاردة ولا جزر ولا قمع ... الواقع أن حالة كحالة الشيخ اليوسى تعطينا فكرة صادقة دالة على أن حرية التعبير التى كان ينعم بها رجال الفكر كانت مثلا وحيدا فى بابه اذا ما قارناه بالحالة فى الجهات الاخرى بما فيها الديار الاجنبية وهل حفظ تاريخ فرنسا مثلا وجود شخصية كاليوسى تستطيع ان تصدع بأرائها وافكارها فى وجه لويس الرابع عشر دون ما أن تتعــرض لشتى انواع المتابعات والمطاردات المعروفة على ذلك العهد ... وهل ننسى «منطق

الشاقور » الذى استعمل مع رجال المعارضة فى مطلع الدولة السعدية ؟ (1)

* * *

لقد وجدت الدولة العلوية نفسها وهى تتسلم الحكم فى المغرب ـ وجدت نفسها أمام مغارب وليس مغربا واحدا ! أى انها كانت امام خريطة سياسية تحمل عشرة الوان وليس لونا واحـــــدا :

1) بقايا السعديين
2) امارة الدلائيين
3) امارة مراكش
4) امارة ايليغ
5) امارة الهبط
6) امارة الريــف
7) منطقة النفوذ التركى شرق المغرب ، هذا علاوة على

---

1) يذكر التاريخ انه لما استولى السلطان ابو عبد الله (الشيخ) على فاس شوال 961 ـ 20 شتنبر 1554 امر بقتل شيخ الجماعة ابى محمد عبد الوهاب بن محمد الزقاق لاتهامه بالميل الى ابى حسون الوطاسى ، ويحكى انه لما مثل بين يديه قال له : اختر باى طريقة تموت ، فاجابه الفقيه : اختر انت لنفسك ، فان المرا مقتول بما قتل به ، فقال لهم السلطان : اقطعــوا راسه بشـــاقور ... وكانت نهايتــه كذلك ... الاستقصا 5 ، 29 .

الوجود الاسبانى والبرتغالى والانجليزى فى عدد من الثغور المغربيـــة ..!

وقد كان فى صدر مهام الدولة العلوية توحيد تلك المغارب من جهة ، وتحرير سواحله من جهة أخــرى ...

ومن هذا المنطلق رأينا السلطان مولاى رشيد يدشن نضاله بتعطيل مرسى حجرنكور (الحسيمـــة) منذ الأيـــام الاولى لمملكته 1076 — 1666 عند ما شعر بأن المطامــع الأروبية وفرنسا على الخصوص اتجهت نحو المرسى المذكور لتحصل من العاهل المغربى على اذن باستغلاله ...

وقد كانت تلك المبادرة من السلطان مولاى رشيد مشجعا قويا لتحريك المواطنين المغاربة على أبواب سبتة فى محاولة لتحرير المدينة الأسيرة وهكذا سجلنا أول انتفاضة على عهد العلويين ضد الوجود الاسبانى فى سبتة ...

ومن ذلك المنطق ايضا رأينا السلطان مولاى رشيد يتوجه الى زاوية لاهل الدلاء فى قلب الاطلس المتوسط 8 محرم 1079 18 يونيه 1668) ليستنزل « رئيسها ابا عبد الله محمد الحاج الذى ملك الغرب سنين عديدة واتســع هو وأولاده واخوته وبنوعمه فى الدنيا » على حــد تعبيــر الشيخ اليــوسى فى المحاضرات ...

ومعلوم أن الشيخ كان ضمن رجال الزاويـــة المذكورة ... ومعلوم كذلك أن السلطان مولاى رشيد طلب الى اليوسى أن

يرحل الى فاس حيث عهد اليه بالتدريس فى معاهدها وخاصة جامعة (القرويين) . وكان ذلك فى مقابلة هبات ملكية كان يتوصل بها الشيخ بصفة منتظمة ...

وقد تحدث التاريخ عن الصلات الطيبة التى ظلت تربط الشيخ اليوسى بالسلطان المولى الرشيد ... ولابد أن كل واحد يقدر ما يمكن أن تتركه تلك الصلات من أثر على أصدقائه فى المهنة من الذين كانوا ينافسونه من مشايخ فاس ، وهو الأثر الذى ظهر بصفة واضحة اثناء تغيب السلطان فى حملته المعروفة نحو ايليغ فى السوس فى الشهور الاولى من سنة 1081 – مايه – يليه 1670 ...

لقد أمسى الشيخ اليوسى غير متحمل اطلاقا للمقام بالعاصمة العلمية بل انه بات يشكو من المرض الذى كان «يلم» به كلما صعد على كرسى العلم حتى لاعتقد ان هناك «طلاسم سحرية» ركبت ضده الامر الذى جعله يقررا ستئذ ان السلطان فى مغادرة المدينة عودته من حركته بالسوس ... غير أن العاهل تعرض المدينة بمجرد عودته من حركته بالسوس ... غير أن العاهل تعرض سنة 1082 – 1671 لحادثة إصطدام فى روض المسرة بقصر البديع من مراكش اللحمراء اثناء ركضه على فرسه ...

*

وقد كان الشيخ اليوسى فى صدر الذين وقعوا على عقد البيعة الذى حرره العلماء بفاس لصالح السلطان مولاى اسماعيل وكان بالامس خليفة اخيه بمكناسة الزيتون ...

وقد كان مخطط العاهل الجديد هو نفسه المخطط الذى دشنه الرشيد بالأمس : توحيد البلاد من جهة وتحرير الثغور من ناحية أخـــرى .

ولشد ما كان ألمه وهو يواجه حدثين اثنين معـــا فى سنة واحدة 1083 — 1673 ، وكأنهما وقتا توقيتا ، اغتنمت اسبانيا فرصة ظروف وفاة الرشيد واعتلاء اسماعيل لتداهم مرسى جزر نكور (1) واحتلالهـــا بواسطة قطـــع عسكريـــة بقيادة مونط صاكرو .

ومن ناحية ثانية فقد شبت بفـــاس ثورة مناوئة لمولاى اسماعيل جعلته يتجه نحو العاصمة العلمية لفـــرض الحصار المحكم عليها الى ان اذعنت يوم 1084 — 28 اكتوبر 1673 وفى هذه الأثناء ... استأذن الشيخ اليوسى السلطان المولى اسماعيل فى مغادرة فاس وهو الامر الذى كان يعتزم عليه — كما أسلفنا — منذ أيام الرشيد .

وقد وجدنا العاهل يرضى طلب الشيخ الذى اخذ فى تجواله بكل حرية دون ما أن يلقى — فى بادىء الأمر — معارضة ما حول الجهة التى اليها يقصد ، ولاكذلك حول الافكار التى اليها يدعو ... والتى كان من أبرزها الحنين المستمر الى زاوية الدلأ التى قضى فيها زهرة شبابه والحملات المتوالية ضد بعض بطانة السلطان مولاى اسماعيل ...

---

1) البحث العلمى : عدد 25 يناير — يونيه 1976 .

ومن غير أن نتتبع خطوات الشيخ اليوسى سواء منها خطواته الاختيارية أو الاضطرارية ... فان الذى يهمنا فى هذا العرض أن نتعرف أولا الى الأسباب التى كانت وراء تحرير هذه البطاقة الى السلطان مولاى اسماعيل ...

لقد شاهدنا من خلال السطور الماضية كيف أن الشيخ اصطدم فى مدينة فاس بما لم يكن ينتظره من رجالها ، الأمر الذى دعاه ــ كما اسلفنا ــ لترك العاصمة العلمية ...

ولابد أن نتصور منذ الآن كيف بدأت المناورات تحاك من حوالى الشيخ ... تلك المناورات التى كان يعمل على تنشيطها بعض المواقف التى يتخذها الشيخ ازاء بعض الاختيارات الحكومية ... ويعمل على تغذيتها واذ كائها والهابها تذمر الشيخ من الظروف القاسية التى أمسى يعيشها بعد مغادرته فاس ... لقد تأخرت عنه الصلات الملكية وحجبت عنه الوظائف السامية وظهر من خلال مراسلاته وحواره مع السلطان مولاى اسماعيل ان هناك أيادى خفية تعمل باتقان لاقصائه عن الحواضر المغربية والمجالس الملكية بل لجعله هو يتحمل مسؤولية تهربه من تلك الحواضر ..! « متى أعطانا السلطان ورددناه ؟ » « ومتى اقترح علينا القضاء وعرضت علينا الفتوى ... » لقد تبين فعلا أن قوما ينتقولون على الشيخ مالم يقله ، فالقضاء حسب قولهم أمر لا يرضاه الشيخ والفتوى بدورها لا تليق ... والمال مادة يستغنى عنها ... لنرجع الى سائر مكاتباته وخطاباته فسنجدها

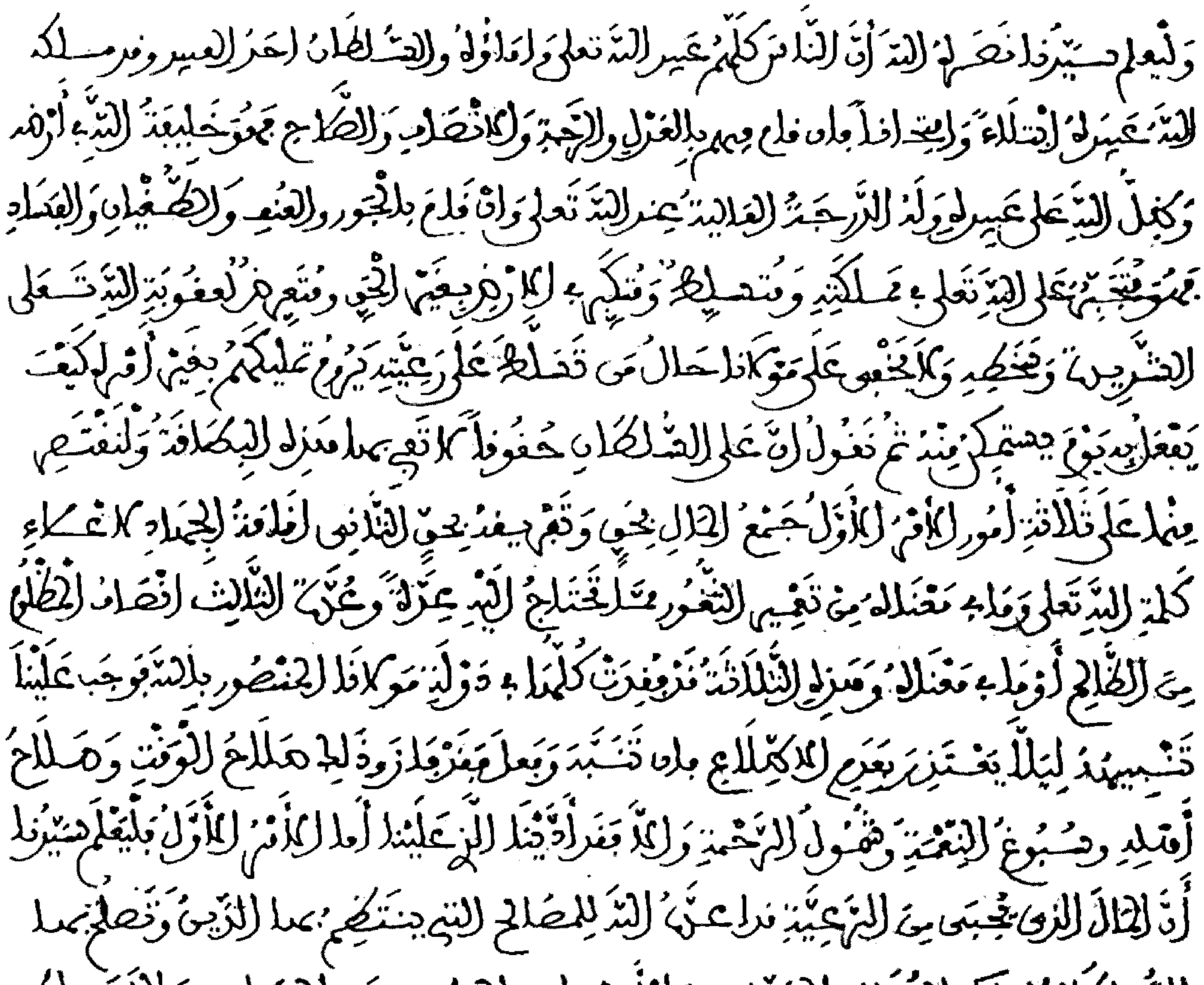
وليعلم سيدنا نصره الله أن الناس كلهم عبيد الله تعالى وإماؤه والسلطان أحد العبيد وقد ملكه
الله عبيده ابتلاء وامتحانا فإن قام فيهم بالعدل والرحمة والإنصاف والإصلاح فهو خليفة الله في أرضه
وظل الله على عبيده وله الدرجة العالية عند الله تعالى وإن قام بالجور والعنف والطغيان والفساد
فهو متجاسر على الله تعالى في مملكته ومتسلط ومتكبر في الأرض بغير الحق ومتعرض لعقوبة الله تعالى
الشديدة وسخطه ولا يخفى على مولانا حال من تسلط على رعيته يروم عليكم بغير إذنه كيف
يفعل به يوم يتمكن منه ثم نقول إن على السلطان حقوقا لا تفي بها منزلة الكفاية ولنقتصر
منها على ثلاثة أمور الأمهات الأول جمع المال بحق وتفرقته بحق الثاني إقامة الجهاد لإعلاء
كلمة الله تعالى وما به مغناله من تحصين الثغور بما تحتاج إليه عدة وعدة الثالث انصاف المظلوم
من الظالم أو ما به مغناله ومنزلة الثلاثة قد وقعت كلها في دولة مولانا المنصور بالله فوجب علينا
تنبيهه لئلا يغتر بعدم الاطلاع فإذا تنبه وجعل همه ولا زوال لها صلاح الوقت وصلاح
أهله وسبوغ النعمة وشمول الرحمة وإلا فقد أدينا الذي علينا أما الأمر الأول فليعلم سيدنا
أن المال الذي يجبى من الرعية مما عينه الله للمصالح التي ينتظم بها الدين وتصلح بها
الدنيا كالعلماء والفضلاء والمؤذنين والأجناد والمجاهدين والتجار والغفلاء

جانب من بطاقة اليوسي الى السلطان مولاي اسماعيل ... وهي تحمل في المكتبة العامة رقم 1611 / د ...

جميعا تلوح للدائرين بمجلس الملك من طلاب الدنيا الذين لا يتقون الله ولا يتحفظون من المداهنة والنفاق والكذب »...

ولنراجع بصفة خاصة الرسالة التى رفعها الـى السلطان المولى اسماعيل جوابا على استفسارات هذا الا خير حول بعض مواقف الشيخ وكانت بتاريخ 1 دى الحجة 1096 — 29 اكتوبر 1685 (مخطوطة بالخزانة العامة رقم /849 ورقم د /1348).

وهكذا فهناك حالة نفسية مزعجة نشأت عن تشتته وتمزقه ، فقد كانت بعض دفاتره فى جهة وبعضها الآخـر فى جهة ثانية بينما وجدت طائفة من اغراضه فى جهة ثالثة .

تشتت قلبى فى البلاد فقسمة بمراكش منه على رجل طائر

واخرى بخلفون وأخرى مقيمة بمكناسة الزيتون حول الدفاتر

وأخرى بفازاز واخرى تجزأت بملوية الأنهار بين العشائر ...

كما نشأت عن احكام الحصار على الشيخ بالرغم مما يبدو من خلال بعض المراسلات من لقاءات معدودة بل وقصيرة الامد مع مولاى اسماعيل بحيث انها اى اللقاءات لم تمكن من معرفة احدهما لقصد الآخر على مايفهم من الحوار الشفوى الذي تم فى لقاء (تكموست) والذى يتعلق بمقام الشيخ فى زاوية الدلأ ... فقد ظل القصد من ذلك العرض ، وظل موقف الشيخ فيه سرا غير معروف المعنى بالنسبة الى ، بحيث لا يعرف هل كان السلطان مولاى اسماعيل يريد أن يعيد الحياة الى زاوية الدلأ بتنصيب

الشيخ واليا عليها ولا يعرف ايضا ماذا يقصد من جواب اليوسى على عرض مولاى اسماعيل ..؟

تضاف الى تلك الحالة النفسية كما قلنا ، بعض المبادىء التى كانت فى صدر اختيارات السلطان مولاى اسماعيل .

لقد عرفنا أن الدولة العلوية صرفت اهتمامها الـــى هدفين اثنين توحيد البلاد وتحرير الثغور ... وهكذا كانت الخطوات نحو تحقيق هذا الهدف تسير فى طريق متوازية ...

فمن جهة وجدنا العاهل يتصدى لاجلاء الاسبان عن المهدية فى ربيع الثانى 1092 ــ مايــة 1681 ويجهز علــى الوجود الانجليزى بطنجة فى ربيع الأول 1095 ــ مــارس 1684 فى حديث طويل ، كان مما رفع اسم السلطان مولاى اسماعيل عاليا فى الساحة الاروبية ... فان التغلب على جيوش الاسبان وجيوش الانجليز لم يمردون أن يترك له صدى عميقــا فى شتى جهات المعمور ...

وسنرى ان هذا الملك العظيم هو الذى قدم لشعبه هدية ثمينة رفيعة بمناسبة مطلع القرن الثانى عشر الهجرى ... تلك تخليصه لثغر العرائش الذى وقع فى قبضة الاسبان فى اسطورة كئيبة جعلت المغاربة يعلنون عن بكرة أبيهم الحداد يلبس الأحذية السود ... الى أن تخلصت المدينة فى محرم 1101 ــ 1689 ، واستعاد الشعب بهجته وسروره بالعودة الى اللاحذية الصفراء الزاهيــة .

لقد هزا سترجاع العرائش ارجاء العالم الاسلامى عندما طير السلطان مولاى اسماعيل اخبار الفتح الى ركب الحاج المغربى وهو مقيم بالحرمين الشريفين .

وفى ثغر العرائش قد تبدى ✻ لقد ركم على الشعرى الظهور

والى جانب هذه الحركات ظل السلطان مولاى اسماعيل يقظا أتم اليقظة لكل حركات التطلع والتسلق التى يمكن أن تضرب من خلف أهدافه على السواحل المغربية .

ومن هنا كانت حملته سنة 1088 — 1677 على شيعة الدلائيين الملتفين على أحمد بن عبد الله بن محمد بن الحاج (1) عند ما كان الشيخ اليوسى مقيما بمدينة مراكش يعطى دروسه بجامع الشرفاء ...

ولاشك أن السلطان مولاى اسماعيل اتخذ قراره الحاسم منذ هذه الحملة 1088 — 1677 ، بأن يشترط لاستسلام القبائل دفعها للخيل والسلاح ... فان طرد الأجنبى عن البلاد لايتم اطلاقا بوجود مخزنين للسلاح ورباطين اثنين للخيل ... ولكن بمخزن واحد ورباط واحد يخضع لقيادة واحدة ...

وقد تبعت هذه الحملة 1088 — 1677 حملات أخرى على جهات مماثلة حيث شيد المولى اسماعيل فيها عددا من القلاع

1) الاستقصا 7 ، 53

على نفس المواقع التى كان المرابطون اتخذوا لهم فيها الحصون والبروج على نحوما نرى بالنسبة لقلعة عين أصرو القريبة من ايفران (2) حيث تم الاستسلام على شرط دفع الخيل والسلاح .. بل وجمع المال كذلك على نحو ما تصرف به القائد بايشى القبلى مع بنى حكم .

وهكذا رأينا السياسة الداخلية للسلطان مولاى اسماعيل تقوم على تركيز القوة بيد السلطة وعلى تجريد القبائل من السلاح « فقام بكل واجب وكفاهم كل مؤنة واراحهم من كلف القيام بالخيل والسلاح » على حد قول أكنسوس ...

وقد ورد فى ارجوزة ابى القاسم الزيانى متحدثا عن مولاى اسماعيل .

وقال للسلاح والخيل : اغربى   من كل حى عجمى أو عربى

وطهر الثغور من أهل الصليب   وعمر الحصون وفق ما يجب

لكن هل ان تجريد المواطنين من الخيل والسلاح الذى مارس السلطان استعماله منذ 1088 — 1677 عند ما هاجم شيعة الدلائيين كان مما يرضى الشيخ اليوسى ؟

سنرى أن الشيخ ينتقد فى بطاقته :

اولا : طريقة جمع الأموال وتوزيعها «فان جباة المملكة قد جروا ذيول الظلم على الرعية فاكلوا اللحم وشربوا الدم وامتشوا

---

2) الاستقصا 7 ، 66 — 67 — 68 — 70 .

العظم وامتصوا المخ ... » وقد دأب اليوسى على الاهتمام بالسياسة الاقتصادية للدولة على نحو ما نرى فى الدعوة التى صدع بها فى الرسالة المخطوطة التى تحمل فى الخزانة العامة رقم (6477) عندما يقول : « واعلم ان الاموال اذا اكتنزت واد خرت فى الخزائن لا تنمو واذا كانت فى صلاح الرعية واعطاء حقوقهم وكف الاذية عنهم نمت وزكت وصلحت بها العامة وترتبت بها الولاية وطاب بها الزمان واعتقد فيها العز والمنفعة فليكن كنز خزائنك تفريق الاموال فى عمارة الاسلام واهله ... »

ثانيا : قلة تعمير الثغور وحمايتها ... وفى هذا الصدد نرى الشيخ ينتقد تجريد العامة من الخيل والسلاح مذكرا بانه عند ما كان فى تطوان ايام السلطان مولاى رشيد صادف أن حضر استصراخا ضد العدو فاهتزت الارض خيلا ورماة ... لكن الناس اليوم ـ وقد تجدد الاستصراخ ـ خرجوا جميعا راجلين وبايديهم فقط العصى والمقاليع ... ويغتنمها الشيخ اليوسى فرصة ليدعو الى تفقد الثغور ابتداء من شبه جزيرة قلعية (1) الى ثغر ماسة

---

1) قلعية تحرفت عند بعض الكتاب الى قليعة بتقديم الياء على العين لكنها كما هو معلوم قلعية ، تنطق بالكاف المعقودة ... وهى شبه جزيرة تقع على مقربة من مليلية ، تمتد زهاء اربعين كيلو ميترا غربي المدينة المحتلة ، ونعتقد انها مرسى غساسة الشهيرة فى التاريخ القديم ـ البحث العلمي : عدد 24 ـ سنة 1975 .

الذى يقع جنوبا على المحيط الاطلسى (2) ... وليدعو الى ترك الخيل والسلاح للمرابطين على تلك المواقع .

ثالثا : نرى الشيخ يدعو الى الانتصاف للمظلومين مؤكدا أن المنتصبين للانصاف بين الناس ــ وهم العمال وخدامهم ــ هم نفسهم الذين يمارسون الظلم ضد العباد ...

وقد حرص الشيخ اليوسى على التصريح بأن الثلاثة كلها اختلت فى دولة سيدنا فوجب علينا تنبيهه ... » ولم يكتف الشيخ بالاستدال على وصيته الخاصة بظلم العمال بما نقله من آيات كريمة ولكنه اردف ذلك بما قالته الفلاسفة اليونان وبخاصة بما وعظ به ارسطوطا ليس الملك الاسكندر ... ثم بما ورد فى الاثر الشريف عن النبى صلى الله عليه وسلم وصحابته حول الحيف والظلم » مستدلا بما ورد عن الخليفة ابن الخطاب فى شأن مانسميه اليوم (تعويضات التقاعد) فلقد مر الخليفة بشيخ يهودى يسأل الناس على الأبواب أن يطعموه فقال : ما أنصفناك ، أخذنا منك الجزية وأنت شاب ثم ضيعناك لما أمسيت شيخا ، وأمر أن يجرى عليه قوته من بيت المال ... وتختم هذه البطاقة بالاشارة الى شخصيتين بارزتين تستحقان فى نظر الشيخ اليوسى أن تؤديا الاستشارة للسلطان نظرا لما تتميزان به من كفاءة وجرأة وصراحة ... هما الشيخ ابو عبد اللــه محمد بن

---

2) تقع ماسة جنوب اكادير ... ومعلوم انها لم تكن نهاية المملكة .

الحسن المجاصى (1) والشيخ ابو العباس أحمد بن سعيد المجيليدى (2) ...

لقد قصدت بايراد مضمون هذه «البطاقة» التى تجاوزت حقا ... حجم البطاقات وتعدته الى حجم الخطابات المطولة ، قصدت بذلك أن أعطى فكرة عن محتوها الذى كان فى منتهى الطاقة حتى نتخلص الى معرفة نقاط الخلاف — ان كانت هناك نقاط خلاف — بين نظرية اليوسى ومنهاج السلطان ...

---

1) ترجم غير ما مصدر للشيخ المجاصى الغياثى الاصل ، المكناسى الوفاة ، وقد وصفه مؤرخ مكناس ابن زيدان بالفقيه الناقد المشارك ولاه السلطان مولاى الرشيد قضاء فاس وذلك آخر جمادى الاولى عام 1079 وخطبة جامع القرويين بها فى 22 رجب عام 1084 فى عهد السلطان مولاى اسماعيل ، فجمع بين قضاء فاس وخطبته مسجدها الاعظم ... ولكنه لم يلبث أن صرف عن القضاء بفاس والخطبة بجامعها فى رابع ذى القعدة عام 1088 اى فى نفس السنة التى نصح فيها اليوسى باستشارة المجاصى ، حيث عوضه السلطان مولاى اسماعيل بالقاضى بردلة ... وحينئذ انصرف المجاصى الى التدريس ، قبل أن يلتحق بمكناس قاضيا بها . من مؤلفاته تقيد حول الاشراف الجوطيين ... وقد توفى بمكناس يوم السبت 4 ربيع الاول عام 1103 ودفن بروضة الشيخ الكامل ... الاتحاف 4 ، 47 .

2) كان المجيلدى شيخا للجماعة كثير الممارسة لكتب الفقه مستحضرآ للنوازل عارفا بادراج الجزئيات تحت الكليات ولى قضاء فاس الجديد اكثر من اربعين سنة فحمدت سيرته وولى قضاء مكناسة الزيتون اواسط شوال عام 1088 فى نفس السنة التى نصح فيها اليوسى باعتماده فى المشورة ، كان اليوسى من تلامذته اخذ عنه رسالة الاسطرلاب — وقد توفى بفاس يوم 25 صفر 1094 ودفن خارج باب المحروق . الاتحاف 1 ، 324 .

لقد كانت نظرية الأول أن تترك للناس حرية التسلح او تملك المواد الستراتيجية بالتعبير الجارى اليوم ... وأن يقوم السلطان الى جانب اعطاء هذه الحرية فى الداخل ـ بمطاردة الاجنبى الجاثم على الساحل ... لكن خطة السلطان مولاى اسماعيل ـ كما عرفنا ـ **كانت ترى أن لاطريق للتغلب على الخارج الا بايجاد داخل قوى متلاحم يقف وقفة رجل واحد ويجلس جلسة رجل واحد** ... فمنطلق الخلاف اذن كان « من أين نبدأ » ؟

سنرى انه اذا كان اليوسى ينتظر من السلطان مولاى اسماعيل ان يبلغ فى جولتـــه التفقدية حدود ماسة فانـــه اى اسماعيل تجاوزها سنة 1089 ـ 1678 الى أندر (سان لوى) وتنبكتو أى فى اثر الايقاع بشيعة الدلائيين الملتفين حول أبى العباس كما سلف القول ... حيث نرى السلطان مولاى اسماعيل يتزوج من المغافرة ـ الحرة خناثة بنتبكار التى كان لها ذكر عطر فى التاريخ ـ ، وقد شهدت هذه السنة ايضا تحرك اسماعيل نحو المغرب الشرقى لتسوية قضية الحدود مع العثمانيين الأتراك الذين كانوا يحكمون الجزائر ... والذين كانوا يغدون ثورة الأمير ابن محرز فى محاولة يائسة للتوسع فى التراب المغربى .

كما عرفت هذه الظروف مفاتحة السلطان لانجلترا فى شأن طنجة حيث نجد له سفارة فى لندن برئاسة عمر بن حدو ... ونجده يواجه فى نفس الوقت ضغط فرنسا عليه ليوقع على الاتفاقية المغربية الفرنسية التى حضر مشروعها فى سان جيرمان ... كما

نجده يتابع اسبانيا فى شان استخلاص ما تحت يديها من أسرى ومخطوطات ...

*

لقد كان يخيل الى وأنا أتتبع حوار الفقية الحسن اليوسى مع السلطان مولاى اسماعيل أننى اتتبع حوار الفقية أحمد بابا السودانى مع السلطان مولاى احمد المنصور السعدى ... كان ابن خلدون على صدق عندما ميز بين حاسة الرجل كعالم وحاسة الرجل كسياسى ، فالعالم مهما بلغ ادراكه للاشياء ، يظل تفكيره تفكيرا اكاديميا اى أنه أقرب الى النظريات منه الى الواقع ...

فعند ما كان احمد بابا يعاتب المنصور على تحركه فى تنبكتو كان لا يعلم بكل تأكيد مشاغل المنصور آنئذ ولايعرف شيئا عن مراسلاته واتصالاته مع ملوك أروبا من أجل ضرب مصالح اسبانيا فى الهند وتطويق نشاطها فى أفريقيا ونسف اطماع اتراك الجزائر فى الاطلالة على المحيط الاطلسى .

وهكذا وعلى قياس ذلك ظهر الشيخ اليوسى وكأنه يريد أن يرشد السلطان مولاى اسماعيل الى الطريق التى ينبغى له أن يسلكها للحفاظ على المغرب ... نحن لانشك أبدا فى النيات الصادقة التى كان كل من الرجلين الجليلين يتوفر عليها ولكن مقام الفقهاء مقام ومقام السياسيين مقام آخر على كل حال ...

واذا كان جواب اليوسى على رسالة السلطان حول مواخذة الأول على تهربه من سكنى الحواضر قد حملت تاريخا ، فان (البطاقة) كانت خلوا من كل تاريخ فى سائر النسخ التى بين ايدينا. وبذلك وضعت عددا من الافتراضات ...

واعتقد ان (البطاقة) أقحم ترتيبها فى كتاب الاستقصا عندما وضعت نقلا عن الشيخ اكنسوس فى اعقاب تصفية تمرد فازاز الاخير الذى تم سنة 1104 فقد كان الشيخ اليوسى التحق بربه قبل هذا التاريخ بسنتين اثنتين ، وقد احسنت الاستاذة فاطمة خليل عندما رتبتها بعد تاريخ 1083 فى رسالتها المفيـــدة لنيل دبلوم الدراسات العليا (1) ...

وقد كنت أريد من الاستاذة ان تبذل جهدا اكثر لتجد تاريخا اكثر اقترابا ولعل فى اشارة البطاقة الى القـــرار الاسماعيلى بالتجريد من الخيل والسلاح دلالة كافية للتدليل على ان الامر يتعلق بفترة ما بعد الايقاع بشيعة الدلاء عام 1088 ... على ان نص البطاقة ايضا على لفت النظـــر لتعمير الثغور يدل على انها رفعت للسلطان قبل مبادرتـــه لتحريـــر المعمورة سنة 1092 – 1681 ، ومعنى هذا ان تاريـــخ البطاقة يوجـــد بين سنة 1088 وسنة 1092 عندما كان الشيخ مقيما بمراكش وقبل أن يقوم بحجته الأولى ...

---

1) اشرف على الاطروحة د . عبـــاس الجرارى ونوقشت بكلية الآداب والعلوم الانسانية بفاس (جامعة محمد بن عبد اللـــه) بعد ظهر السبت 18 ابريل 1978 .

وقد عرفت رسائل الشيخ اليوسى على العموم شهرة بين رجال العلم والفكر ، وخاصة منها هذه «البطاقة» التى وجدنا لها تداولا واسعا بين مختلف الطبقات على ما يردده سائر الذين كتبوا عن السلطان مولاى اسماعيل أو تناولوا حديث الشيخ اليوسى اوربما كذلك الذين كان يهمهم أن ياخذوا صورة عن الحياة الاجتماعية والسياسة للبلاد ، وقد عثرت شخصيا على أصداء هذه البطاقة فى كل من مكتبة ليدن (هولاندا) والمكتبة الوطنية بباريز ومكتبة البودليان بجامعة اكسفورد .

وما من شك فى أن سبب شهرة (البطاقة) يرجع أولا لما تضمنته من نصائح صريحة مرفوعة من أحد الرعايا الى شخصية تعتبر أعلى شخصية فى الدولة ، ولاشك أن هذا وحده كاف ليكون باعثا على الرغبة فى التطلع والاستطلاع ، فهل يجرؤ فقيه من الفقهاء أن يخاطب ملكا من الملوك على هذا النحو ؟ وما سيكون مصير ذلك الفقيه وقد سمح لنفسه أن يواجه ذلك الملك بما واجهه به ؟ هذه عناصر كلها تفسر مدى اقبال الناس على التوفر على مثل هذه المخاطبات .

لكن الشىء الذى كان يثير الانتباه حقا أن ذلك الملك القوى بجيشه ، العظيم بعدته كان يصيخ بسمعه الى الشيخ معطيا بذلك الفرصة لكل من أراد أن يقول ما عنده فى باب النصح والارشاد ، وذلك بالرغم من الصياغة التى كانت تتحرى المبالغة والمصاولة ...

ولقد كان من دواعي التأمل والاستغراب بالنسبة للمتتبعين للظروف التى حفت بحوار السلطان مع علماء المملكة أن السلطان كان على العكس مما كانوا ينتظرون ــ يضفى على الشيخ من دلائل عطفه وتقديره ما كان يحير الخصوم ويبهت المترصدين ، فقد كان السلطان مولاى اسماعيل يستدعى الشيخ لحضور الدروس الدينية التى كان يعرفها مجلسه حيث وجدناه ضمن العلماء الذين لبوا الدعوة لاستماع درس التفسير الذى ألقاه القاضى المجاصى بحضرة فاس .

وقد وقع اختيار السلطان على الشيخ اليوسى ليبعثه على رأس ركب الحاج لعام 1101 ــ 1689 وهو مطلع القرن الثانى عشر حيث ارسله صحبة ركب الامير الشاب مولاى المعتصم نجل السلطان مولاى اسماعيل والاميرة ست الملك ، وقد رحلت القافلة عبر أقطار الشمال الافريقى صحبة الامام المذكور ... ونجله الذى سجل هذه الرحلة وقدم لنا معلومات قيمة عن بعض المواقع التى مر منها الوفد حيث استمعنا عن رباط طرابلس أواخر العهد العثمانى الأول ، وعن أجنة وحدائق وحقول منطقة المنشية والمدينة القديمة ... وعن سائر المراحل التى سلكها الركب واحدة واحدة الى البطنان (1) .

---

1) المخطوط محفوظ بالمكتبة تحت رقم 2343 كما توجد منه نسخة بالخزانة العامة فى مجموع رقم 1418 د ــ التازى : ليبيا من خلال رحلة الوزير الاسحاقى ، مطبعة فضالة ص 37 .

وانى على مثل اليقين من أن حجته الأولى التى أشار اليها الاستاذ بروفنصال (1) كانت أيضا بتكليف من السلطان مولاى اسماعيل الذى ما انفك يقدر فى الشيخ حسن نيته وصدق طويته بل وتفانيه فى حب الملوك الأشراف ... « ولوقلت : ان ما عندى من محبة السلطان فى قلبى أقوى مما يكون عنـــد كثير ممن يتملقون بين يديه ، ويدعون المحبة والحفاوة بالسنتهم ماليس فى قلوبهم لم أكذب » ..

ومن ثمت فان القول بأن وفاته لم تكن طبيعية وأنها كانت بتدبير من ولى القبيلة قولة فى عهدة الذين نقلوها ممن تستهويهم الاغرابات والاشاعات ...

لقد كان مولاى اسماعيل يسمع وشايات كثيرة عن اليوسى ، ولكن دأبه — وهذا ما يجب أن يكون عليه خلق الملوك — أن يزن الأمور على نحو ما يقتضيه تفويض الله وتفويض النيابة عن الله ، فلو أن الملك أصاخ بسمعه الى هذا حول ما يقوله عن ذلك ، واستمع الى ذاك حول ما يقول عن هـــذا ... وتصرف حسبما يتمناه الأول للثانى ، وما يدس الثالث للرابع لما بقى من الرعية أحد على ظهر البلاد ..! ألم نحفظ الحكمة القائلة : « لو أطاع الله الناس فى الناس لما بقى الناس » !

وبعد فان الامـــام اليوسى مايزال فى حاجة الى دراسة ممعنة ذلك لأنه لا يمثل شخصية فذة فى تاريخ المغرب فحسب ،

(1 Levi Provençal :
Les Historiens des Chorfa, Paris 1922 P. 271

ولكنه يرسم لنا صورة جد مطرفة عن حرية الفكر التى كانت تسود فى العهد الاسماعيلى ، وعن مــدى شعور المعارضين بالحدود التى ينبغى أن يقفوا عندها ، ثم ان الحدث فى ذاته يؤكد عن مثالية رائعة فى الحكم تجلت فى موضوعية الحوار أولا . كما تجلت فى تجاوز المواقف الهامشية وافساح المجال لنشر الحقائق والتماس العذر للغائب الذى تبقى معه حجته دائما ...

الربــاط　　　　　　　　　　عبد الهادى التازى

جانبٌ من شخصيّة الشيخ اليوسي ورسالته

د. عبد السلام الهراس

ان من خصائص المجتمع الاسلامى شيوع العلم بين جميع فئاته وطبقاته وفى جميع بقاعه ونواحيه لان رسالة الاسلام هى القراءة والاقراء والتعلم والتعليم لذلك كان طلب العلم فرضا وتعليمه واجبا والانفاق فى سبيله من أنفع الصدقات والرحلة اليه من أعظم القربات حتى أن الملائكة لتفرش لطالب العلم أجنحتها، وليس ثمة طريق أجمل من ذلك الذي تفرشه الملائكة بأجنحتها وليكن الطالب ابن من شاء !! ولذلك أيضا كان التعليم فى المجتمع الاسلامى ينتشر بانتشار الاسلام ويسكن حيث يستقر المسلمون لا فرق بين خيمة وكوخ وبيت عادي وقصر فالعلم الاسلامى كالشمس والهواء والحياة ، جعله الله من نصيب الجميع ، بل ان التعليم كان يزاول على ظهر السفن وأثناء السفر فى البحار والفيافى والقفار وفى قعور السجون وفى المنافى والملاجىء

والرباطات وقد كانت البادية تعج بالعلماء والادباء ورجال الفكر يشد طلاب العلم اليهم الرحال يأخذون عنهم ويلزمونهم حتى ينالوا من معارفهم ليعودوا بعد ذلك باجازاتهم ، وظلت الرحلة العلمية الى البوادي الى أيامنا نحن ولكنها انقطعت حتى اندثرت أو كادت خلال العشرين عاما الماضية . وقد أعطت البادية عطاء عظيما فى ميدان العلم وان كبار علمائنا بالمغرب والاندلس ينتسبون الى البادية والقرى الصغيرة التى نجهل الكثير منها ونسدد لها ديونها بجحود وانكار وعدم اكتراث ، لكن بعض الباحثين الافاضل مثل الاخ البحاثة المحقق الاستاذ سعيد أعراب شعروا بالمسؤولية وأحسوا بخطورة ذلك التجاهل لدور البادية وخشوا ضياع ما أسهمت به البادية من نشاط علمى فهبوا للتأليف والكتابة والنشر ، وهكذا نرى الاستاذ أعراب ينشر عدة أبحاث عن علمائنا بالبادية كما أن الاخ الاستاذ عمر الجيدي هيأ رسالة قيمة عن ابن عرضون الزجلى ويقوم الاستاذ عبد القادر العافية باعداد أبحاث ذات مستوى جيد عن شخصيات وأسر علمية كانت البادية منبتها ومستقرها ولعله من القرن العاشر الى منتصف هذا القرن كانت بادية أقصى الشمال ومدنها الصغيرة من أقوى المراكز الثقافية بالمغرب نشاطا وعطاء اذ استطاعت أن تزود بلادنا بكبار الشخصيات فى الميدان الفقهى والقضائى والادبى والصوفى والنحوى وعلم القراءات والتجويد وقد أدركنا وأدرك اساتذتنا علماء أجلاء اصلهم من البادية بعضهم يقل نظراؤهم حتى بالمشرق مثل الشيخ شعيب الدكالى والحافظ الشيخ أحمد بن الصديق الغمارى الذي يعتبره بعض كبار

علمائنا حافظ عصره ونادر جيله . أما عطاء الصحراء المغربية وقبائلها فمجال الحديث عنه ممتد الآفاق عميق الاغوار . وجل علمائنا يعرفون بنسبتهم للقبائل والقرى كالدكالى والشنقيطى والزرويلى والتسولى والتوجكانى والزيانى والغماري والزروالى والجامعى والحمداوي والترغى والعبدلاوي والزيانى والتسوكى والسوسى والهلالى والزرهونـى والفيلالـى والصنهاجـى والغزاوي والشركى وهلم جرا ...

وكانت فاس العالمة أعلى مرحلة دراسية بالنسبة لكثير من علماء البادية وطلابها يقصدها جلهم لتتويج دراساتهم فيهـا والبحث عن الجديد لدى علمائها وجهابذتها ومنهم مـن كـان يؤمها فقط للتبرك ببعض شيوخ العلم واستجازته . وبعـد الانتهاء واستيفاء المقاصد العلمية كان بعضهم ينجذب لاغراءات فاس الحضارية فيقيم فيها مندمجا فى حياتها متزوجا من نسائها وقد أصبح كثير من هؤلاء من أهم رجالاتها ولكن البعض الآخر يأبى عليه حنينه لبلده وشعوره بالواجب نحوه الا أن يغـادر مدينة فاس ليرجع الى قومه ينشر بينهم علمه ويؤسس مدرسة فى منطقة نائية هى فى أمس الحاجة اليه أو يواصل رسالـة شيوخه الاولين .

وبهذا التلاقح بين الحاضرة والبادية كانت العلوم تزدهـر والمعارف تنشط وأواصر الامة تتماسك وتشتد ، وقد كـان لشيوخ العلم بالعاصمة تاثير كبير فى توجيه بعض طلابهم الى القرى الكبيرة أو المدن الصغيرة النائية ليتحملوا مسؤوليـة

القضاء أو الامامة أو أي منصب من مناصب الدولةينيطه بهم السلطان باشارة من بعض علماء الحاشية المقربة .

وكان كثير من العلماء يعزفون عن حياة الحاضرة والبعد عن سكناها والزهد فى المناصب لاسيما عندما تكون الاحوال السياسية مضطربة ، وقد قدم هؤلاء أعمالا جليلة فى تعليم البوادي ،وتثقيفها وحل الكثير من مشاكلها وقيادتها فى ميدان الجهاد المقدس ، وان أكثر الاضرحة والزوايا يرقد فيها هؤلاء العلماء الاجلاء الذين كانوا قادة شعوب وأبطال جماهير قدس العوام آثارهم ناسين رسالتهم الحقيقية .

والامام الحسن اليوسى أحد هؤلاء الافذاذ الذين ارتبطوا بالبادية ارتباطا شديدا منذ النشأة الى آخر رمق من حياته ، فقد آثر الحياة بالبادية وامتنع ـ باصرار ـ عن الحياة فىالمدينة رغم الحاح السلطان عليه ، وقد أثار عليه موقفه هذا انتقادات شديدة وأثيرت حوله شكوك كما امتدت التقولات والتشكيكات الى مكانته العلمية فاشيعت شبهاتحولها لانه لم يدرس بفاس، وكما يبدو ، فان الرجل كان نابغة منذ صباه سريع التحصيل ، حاد الذكاء . وقد استغنى بشيوخه الذين أخذ عنهم فى الجبال والصحراء وفى زاوية الدلاء عن الاتجاه الى فاس . وقد أهله نبوعه المبكر ليتولى الافتاء والتدريس وهو بعد شاب يافع لم يتعد العشرين من عمره . وعرفه من اتصل به على حقيقه . لذلك كانت اللمزات فى علمه تثير فيه الضحك والسخرية وتزيده اعتزازا بنفسه ، فالعلم لم يقصره الله على الحاضرة دون البادية فهو

كما يكون هناك يكون هنا لان فى ذلك حكمة الله البالغة ومشيئته الباهرة . يقول اليوسى ردا على أولئك المتهمين له فى علمه :

« فأنا بحمد الله كان كل هؤلاء وغيرهم يسألونني وأنا ابن عشرين سنة أفبعد ما لاح الشيب فى عارضي ينفون العلم عنى بكونى لم أكن فى الحاضرة ولقد كنا نضحك أيام كنا بفاس مما يبلغنا عنهم وذلك أنهم بحمد الله ــ والتحدث بنعم الله شكر ــ رأوا ما بهر عقولهم علما وفهما وفصاحة فكانوا يقولون نرى الرجل بربريا ثم اذا تكلم تكلم بلسان أهل الحاضرة وكان يبلغنا عن بعض الحمقى منهم أنهم يقولون ما فاته شيء الا أنه لم يقرأ بفاس » (1) .

ويتهم هؤلاء بضعف فى عقولهم وجهل فى مداركهم وبعدهم عن معرفة حكمة الله ومشيئته بل أكثر من ذلك يشتط به الغضب والغيظ فيشبه موقفهم بموقف اليهود الذين أنكروا نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم اذ لم يكن من الشام او من بني اسرائيل (2) .

ومعنى ذلك بصريح عباراته اعتزازه بعلمه البدوي وقدرة البادية على منافسة الحاضرة بدليل اعجاب علماء فاس بعلمه وفصاحته وفهمه رغم أنه لم يقرأ بها .

---

1 ــ الرسائل 151/1
2 ــ نفسه 131/1

وقد اختار الاقامة فى القرية بدوافع متعددة يفصح عن بعضها فى رسائله ومحاضراته ومن هذه الدوافع : (3)

1) ان البادية منشؤه ومسقط رأسه ففيها ولد وفيها نشأ ، والانسان مفطور على حب أصله ووطنه الذي درج فيه ، يقول : « انى ولدت فى الفجاج الواسعة بين الريح والشيح والجنوب والشمال » والمرء بفطرته متعلق بوطنه ويستدل بكلام الحكماء والشعراء على هذا التعلق الفطري وان ذلك لدليل الوفاء ...

2) وان أهل القري فى مسيس الحاجة الى أمثاله كما تحتاج الحاضرة الى علمائها ويجب أن يتساوى الجميع أمام الاستجابة للمطالب والحاجات يقول : (4)

« وكما أن أهل الحاضرة محتاجون فأهل القرى وأهل البادية محتاجون أكثر وكلهم عباد الله المومنون والبلاد بلاد الله والعباد عباد الله »

ويقول فى مكان آخر ان الاعراب أحوج الى العالم من الحاضرة لانهم أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله فالاعتناء بهم أجدر وتعليمهم شؤون دينهم كانه تبليغ للدعوة من جديد . وهو لا يعنى هنا بادية معينة . لذلك يجب على العالم الالتزام بالاقامة مع من يتعين عليه أن

---

3 ــ نفسه 118/1
4 ــ نفسه 161/1

يرشدهم . وقد اختار من البادية سكنى القرية لامتيازهـــا بفضائل لا تتمتع بها المدينة ولا العمود ، فالمدينة مجال للخديعة والملق ، كما أن العمود بيته للجفاء والغلظة . أما القرية فهى وسط . وخير الامور أوساطها ؛ كما أن البادية تحافظ على النسب.

3) ان سكنى الحاضرة تفسد نساءه وأسرته بما فيها من بذخ ومدنية واتساع حياة مما لم تألفه البادية ، فقد تعـــودت أسرته كما تعود آباؤه على حياة الشظف والخشونة فى المأكل والملبس والمبيت قانعين بذلك « يلبسون الصوف الخشـــن ويأكلون البر تارة أخرى والدخن أخرى والتمر أخرى والبلوط وحب العر عار أخرى حامدين شاكرين ما رأوا قط لباب البـــر ولا ابزارا ولا عطرا ولا كتابا ولا ملفا ... » (6)

4) ثم ان الحياة فى المدينة مدعاة الى البخل والبخل صنو اللؤم ويعيب علـــى من يقول بأن « ليس على الفقيه من ضيافة» وهو ليس من أولئك الذين يبغون أن يحط عن ظهره ثقل مـــا يحمله الكرام من القيام بواجبات الضيف لأن ذلك يؤدي به الى التخلق باللؤم ، وقد استغرب من تخلق أهل الحاضرة بخلـــق البخل وسأل بعض أهلها عن سبب ذلك فأجابه متكئا على تعلات لم تقنعه ، لان ضيق المنازل يمنع من التكرم بالطعام والمبيت ولكنه لا يمنع التكرم بالمال (7) وهو يخشى على صبيانه من أن

5 ــ المحاضرات ص 19
6 ــ الرسائـــل 121/1
7 ــ نفســـه 121/1 ، 153

يسرى اليهم هذا الخلق الذي يؤدي بهم الى اللؤم وقلة السماحة كما هو دأب أهل الحاضرة ويستدل بذلك بما وقع للعرب الذين فسدت طبائعهم عندما سكنوا الحواضر .

5) ان المدينة تلزم المرء أن يسكن فيجحر كجحر الضب(8) لضيق المسالك والدروب والطرق « فاذا دخلت تدافعت أنا والنساء الاجنبيات بالاكتاف » ولكثرة الازدحام وضيق الطرق والدروب ما لا يستطيع معه أن يجيب طالب علم أو مستفتيا يصادفه فى الطريق لان الاجابة تقتضيه الجلوس معه فى قارعة الطريق المتزاحم فان فعل لا يلبث أن يسمع « بالكم بالكم » فيهرب فيلتجأ الى مسجد من المساجد لكنه يجدها مغلقة لانها لا تفتح الا فى أوقات مخصوصة مما يضطره « اما للسفر لخارج البلدة واما دفعته عنى بلا قضاء حاجته » (9) .

6) وهو قد طلب العلم لله وتربى على الالتزام بهذا الخلق أخذا وعطاء تعلما وتعليما . والبادية وحدها تستطيع أن تهىء له المناخ الملائم والوسط الذي يستجيب لرغبته ويحقق مقصده ويرضى مقصده أما المدينة فتفتن العالم وتصرفه عن ذلك الالتزام بما فيها من حياة الضيق والحرج والفتن وما تقتضيه من مطالب ماديةوعلاقات مع ذوي المناصب والمراتب والتنافس

---

8 ـ نفسه 153/1
9 ـ نفسه 153/1
9) مكرر « بالكم » خذوا حذركم وانتبهوا

على الدنيا والجاه والتعرض للحسد والحزازات . وهو يتهم عالم المدينة بأن هدفه من العلم مادي ، يقول (10) :

« فان الذي يتقرب من أبواب الملوك بل ومن الحواضر كلها التى هى محل المرتبات هو الذي يمكن أن يقال فيه انه يطلب الدنيا فان تلك الجهة منها يكون للعلم نفق ويكون له ثمن وأما البادية فلا ويقل أن يوجد فى تلك الجهة علم يتعاطى لله تعالى . ورب عالم فى القرى يعلم ويفتى لله تعالى ويطعم طلبته وربما كساهم ولا يترقب على ذلك جزاء ولا شكورا الا من الله تعالى ويحرث أرضه كما يحرث الناس ويعيش كما يعيشون فهذه التجارة الرابحة » .

7) ويشتط به القلم فيرمى أهل الحاضرة بكونهم لا يشتغلون بالعلم وانما همهم الاشتغال بالحظوظ الدنيوية (11) لذلك كان خروجه الى البادية راجحا ولان طلاب البادية أكثر اقبالا على العلم واخلاصا فى طلبه والدليل على ذلك أنهم يرتحلون الى أقصى البلاد للاخذ عن العلماء ، يقول « وطلب العلم اذا لم تكن معه قريحة وقادة لاينتج ، وصاحب القريحة لا تتركه قريحته ينتظر من يأتيه . فمن كان بالقيسارية مكبا على فلوسه حتى اذا سمع بعالم دخل أرخى غلق الحانوت وجاء يستمع وقلبه باق فى الحانوت يحسب . فمتى يحصل له العلم ؟ هيهات هيهات !

10 — نفسه 152/1

11 — نفسه 124/1

انما يرجو العلم من انبعثت جمرة العلم فى قلبه تذكره ضياع أيامه وتنسيه جميع أولاده وأمواله » (12) .

وهو يحمل على أهل فاس وعلى طلابها الذين رغب جلهم عن علمه وتركوا مجلسه واندفعوا نحو من يسدي اليهم الدراهم والمساعدة المادية وما أظن أنه كان يعتقد فى قرارة نفسه أن الحاضرة كانت شرا كلها وأنها لم تكن بيئة علم وفضل وولاية ، وأنها كانت فقط مشتغلة بالحظوظ الدنيوية والاغراض المادية ، ولكن الرجل ووجه بما أثاره وأحيط به من نواحى شتى وأحكمت المؤامرات والدسائس حوله للايقاع به لذلك اضطر أن يدافع عن نفسه هذا الدفاع الذي يشوبه هجوم وتهجم . فوصف المدينة — وهو يقصد مدينة فاس — بذاك الوصف مع أن بالمدينة علما كثيرا ولا سيما مدينة فاس التى كانت مزدهرة بالعلوم بصورة شاملة وعميقة . والعواصم كالبحر تمد باقى البلاد بالغيث ليعود اليها النفع منها بما يكون بين الحاضرة والبادية من تبادل وعطاء كما أشرنا الى ذلك أول الكلام .

انه رجل بدوي قح متحرر من القيود عاش فى جو علمى خاص وفى ظل دولة تقدر مواهبه وكفاءته وتتيح له المجال للعمل والممارسة وتبذل له من الود والمساعدة ما جعله متعلقا بها معظما لرجالها فلما تغيرت الاحوال ظل فى الحقيقة على

---

12 — نفسه 126/1

ولائه القديم وان مال بعض الميل نحو المولى رشيد الذي كان يقدر فيه بعض الخلال الحميدة والخصال العلمية النبيلة .

ثم ان الرجل معتز بنفسه وعلمه وأدبه ، وكما يبدو من كلامه — ابان الفتنة والصراع — لم يكن بفاس من يستحق أن يكون شيخا له الا الشيخ عبد القادر الفاسى الذي كان يحظى باحترامه ولعل للعلاقة الصوفية أثرا فى هذا الاحترام لان اليوسى كان يقرن بين الفقيه وأرباب القلوب متأثرا بالغزالى فلما دخل مدينة فاس أول الامر ووجد من أهلها ما وجد ازداد نفورا من سكنى الحاضرة وتملص من الضغوط وادفع عن نفسه دفاعا مستميتا . ولو أن فاسا أكرمته فلربما أقام فيها ينشر علمه ولكن الامر كان كما يقول (13) :

دخلت مدينة فاس — حرسها الله تعالى — سنة 1079 اذ خربت الزاوية البكرية فأقبلت طلبة العلم للاخذ عنى وتخلفت جماعة من المشاهير وهم أو جلهم محتاجون الى المجلس وكأنهم غلبهم ما هو المألوف من الطبع الاولى فى أمثالهم وكنت آنست ذلك فيهم » ويظهر من الاعتزاز بنفسه وعلمه ما يثير عليه حفيظة أولئك الذين الذين لم يقدروا علمه وربما تجاوبوا مع الجو السياسى الرسمى الذي لم يكن مطمئنا الى اليوسى . يقول :

---

13 — نفسه 89/1

ما أنصفت فاس ولا أعلامهــا علمي ولا عرفوا جلالة منصبى
لو أنصفوا لصبوا الى كما صبا راعى سنين الىالغمام الصيب

ان رفض أولئك المشاهير أن يأخذوا عنه أو يحضروا مجلسه كان موقفا ذا أثر سيء فى نفس اليوسى مما زاده زهدا فى سكنى المدينة والحياة فيها وانعكس ذلك الالم على انتاجه وأدبه ، فقد أنشأ قصائــد فى الحنين الى وطنــه الصغير ومسقط رأســه كما أورد أقوال الشعراء والادباء والحكماء فى حبهم لوطنهم . ومما قال فى ذلك : (14)

تشتت قلبى فى البــلاد فقسمــــة
بمــراكش منــه على رجل طائـــر

وأخرى «بخلفــون» وأخــرى مقيمة
بمكناســة الزيتــون حول الدفاتــر

وأخرى بفازاز وأخـــرى تجـــزأت
بملويــة الانهــار بــين العشــائــر

وأخرى بذاك الغرب بين أحبتــــى
باهــل البوادي منهــم والحواضــر

فيا رب فاجمعهــا فانــك قـــادر
عليهــا وما غيــر الالــه بقـــادر

---

14 ــ المحاضرات 141 وانظر ص 88

ويا رب فاجعلها بأوطانها فمــا
عبيـدك للبين المشت بصابـــر

وينحنـى الى الله بقلب خاشع سائلا منه أن يجود عليه بنعمة العودة الى وطنه الصغير اذ ليس له ملجأ سوى بابه الكريـم .

ويقول فى أخرى مشتاقا الى بلده (15) :

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلـة
بسهب الشنين أو بسهب بنى ورا

وهل تعبرن نهر العبيـد ركائبـي
وهل تتركن «دايا» وأدؤاءهـا ورا

فالدافع الفطري والرغبة فى التخلص من الاجواء السياسية الخانقة الى جانب موقف بعض علماء فاس وطلابها كل ذلك كان يكمن وراء ايثاره الحياة فى البادية وهو يسعد فيها سعـادة لا يجدها فى غيرها لانه يشعر بحريته وانطلاقه وقدرته علـى التصرف فى تنظيم حياته ، يقول فى رسالته التى أجاب بهـا السلطان اسماعيل العلوي (16) :

---

15 ــ نفسـه 142
16 ــ الرسائـل 124/1

« فخرجت باذن سيدنا ونزلت بالشعب الذي كنت فيه وبنيت دويرات بغير مؤونة واتسعت وجعلت لنفسى موضعا وبابـا لا أرى فيه قط امرأة من غير عيالى وبنيت بيتا ملتصقا بالمسجد فان رأيت خلطة لا تعجبنى نقرت لهم فأقاموا الصلاة وصليت معهم وأنا أسمع قراءة الامام وأبقى على ذلك ان شئـت الشهـــر والشهرين لا أرى أحدا ولا يرانى ، أنظر فى كتبى حتى تقـام الصلاة ولا يضيع على شىء من أوقاتى ، وساقيتان تجريان فى وسط الدار والخضرة فى وسط الدار وعلى بابها ، والحطب فى باب الدار والمؤونات مكفية وما لم يوجد يستغنى عنه اذ لا خبـــر (أو لا جار) يفتن ولا سوق يقطع العذر ، وجاءت طلبة فكنـا ندرس العلم لله لا يتشوف منا أحد لمرتب ولا يرائى أحد أحدا ولا نسمع قال فلان ولا قرأ فلان فاسترحنا وحمدنا الله تعالى ووجدنا صلاح ديننا وراحة قلوبنا وأبداننا فهذا سبب استثقالنا للنزول الى الحاضرة ومن جرب أو ذاق مرارتها ثم وجد الراحة منها كيف يحب الرجوع اليها » .

ان الشيخ اليوسى لم يكن بأقل من الشيخ عبد السلام بـــن مشيش وابن خجو والهبطى وابن عرضون وغيرهم نزوعا الى الحياة فى البادية بعيدا عن مجالات التنافس على الحظوظ الدنيوية والتزاما برسالة العالم المؤمن الداعية الذي يؤثر العمل فى الجبال مع شظف العيش على الحياة فى المدينة مع الرخاء والسعـــة والتعرض للمناصب العليا . رحم الله هؤلاء الرجال وأكرمنـــا بأمثالهم قادة فكر وأبطال جهاد .

الاحــــالات :

اعتمدت فى هذا البحث على « رسائل أبى على الحســن ابن مسعود اليوسى » جمع وتحقيق الاستاذة الفاضلة السيدة فاطمة خليل القبلى ، وهى رسالة تقدمت بها الاستاذة لنيل دبلوم الدراسات العليـــا .

كما اعتمدت على كتاب المحاضرات لليوسى ـ نشــر دار المغـــــرب

فـــاس **عبد السلام الهراس**

إني أوصي أولادي

لأبي علي الحسن اليوسي

تقديم ودراسة
د. عبد اللطيف السعداني

منذ سنة أو تزيد ، وقع فى يدى مخطوط رسالة لابى على الحسن بن مسعود اليوسى ، شد اليه نفسى عند اول قراءة . وخلف فى قلبى أثرا غامضا كان يرف له كلما تذكرت اليوسى أو جرى الحديث عنه . وتركنى المخطوط ولما امعن النظر فيه .. فارجات ذلك الى حين . فلما عرضت هذه المناسبة الطيبة التى خصصت للعالم العارف اليوسى ، سحبت يد الاعجاب كل غشاوة حجب بها النسيان امر الرسالة . واخذت الذاكرة بناصية قلبى اليها .. فاذا هو دليل اخر على معنى وقعها فى سرى .

ثم اتضحت لى أسباب ذلك الاعجاب . فالرسالة فريدة من نوعها من بين رسائل اليوسى : لانها فريدة فى موضوعها ، فريدة فى أسلوبها ، فريدة فى غاياتها .

1 ـ أما الموضوع :

فهو ما أوصى به اليوسى أولاده خصوصا وجميع الاخوان عموما ، كما ورد فى صدر الرسالة وهدف الرسالة الاول هو « الاولاد » (1) وان خاطب « الاخوان » فمن أجل أن « يراعوا فى اولادي عهد الاخوة والمحبة وان لا يواطئوهم على الهوى » . وان اشار اليهم ، وقد وقع ذلك فى اواخر الرسالة ضمن تنبيه اولاده ، فانما ذلك عودة لتأكيد ما لمح اليه « وأعود فأوصى أيضا أولادي وسائر الاخوان بمجانبة خلطاء السوء » وكأنما ينص على ما أشار اليه اولا مؤكدا أن يكون لاولاده جلساء السوء من أقرب الناس اليهم وهم الاخوان ، وان يكونوا معهم على ذلك أكثر حرصا بالنسبة لغيرهم ، وأن يكون بعضهم فى ذلك ظهيرا للبعض . ولذلك قال هنا « فليحذر اولادنا من مصاحبة العوام الذين عميت بصائرهم بحبها (الدنيا) وليحذروا كذلك من عوام الطلبة الفقراء المتعطشيين اليها .. » ويؤكد ذلك فى آخر الرسالة ، فيقول : « حذار حذار من صحبة الناقصى الهمم منهم (المنتسبين الى الجناب) والجوالين الساقطين على الحظوظ النفسانية كائنة ما كانت

* * *

وموضوع وصية الآباء للابناء موضوع أخلاقى بديع وأدبى طريف له تاريخ ومكان فى الفكر والادب الاسلاميين . (*)

---

(1) قد يكون تطلع اليوسي في الوصية الى أولاده « ما تناسلوا » كما يفيد تعبيره حول تحبيس الكتب على أولاده .

(*) انظر حول هذا الموضوع : العقد الفريد لابن عبد ربه ج 3 ص 87—96

وفى ذلك يقص القرآن الكريم موعظة لقمان الذي آتاه الله الحكمة لابنـــه (2) .

« واذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بنى لا تشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم ، ووصينا الانسان بوالديه . حملته أمه وهنا على وهن . وفصاله فى عامين أن أشكر لى ولوالديك الى المصير . وان جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطـعهـما ، وصاحبهما فى الدنيا معروفا ، واتبع سبيل من أناب الى . ثم الى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون . يا نبى ان تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة او فى السماء او فى الارض يات بها اليه . ان الله لطيف خبير . يا بنـــى اقم الصلاة وامر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ماأصابك ان ذلك من عزم الامور . ولا تصاعر خدك للناس وا تمش فى الارض مرحا ان الله لا يحب

(2) تروى عن لقمان حكم ووصايا كثيرة لابنه منها قوله : « يا بنـــي لا تحدث من تخاف تكذيبه ، ولا تسأل من تخاف منعه ، ولا تعد الا بما تقدر على انجازه ، ولا تضمن بما لا تثق القدرة عليه » .
ومن حكمه قوله لأبنائه : « يا بني تعلموا العلم قبل ان تكبروا فيفوتكم معناه . ان العلم وغيره من سائر المكارم انما يظفـــر به الانسان اذا حاوله فى صغره وعنفوان شبابه . اما اذا حاوله بعد كبره وادبـــار شبابه فانه لا يدركه ابدا » ... من كلام منسوب لابي علي اليوسي فى مخطوطة . ومن هذه الوصايا لابنه قوله : « يا بني ، لا يكونـــن الديك أكـيس منـــك ينـــادي بالاسحـــار وانـــت نائـــم » .
أيها الولد المحب . الغزالي ص 44 ــ 45 ط : دار الشروق 1975.
وانظر أيضا كتاب « لقمان الحكيم » للعلامـــة عبـــد الله كنـــون . ص 65 ــ 82 . ط. دار المعارف

كل مختال فخور ، واقصد فى مشيك واغضض من صوتك ان انكر الاصوات لصوت الحمير (3) .

كما يذكر فى آيات أخريات وصية ابراهيم ومن بعده يعقوب لبنيهم ، وصية الاســـلام :

« اذ قال له ربه اسلم ، قال اسلمت لرب العالمين . ووصى بها ابراهيم بنيه . ويعقوب يا بنى ان الله اصطفى لكم الديـــن فلا تموتن الا وانتم مسلمون . أم كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموت اذ قال ابنيه ما تعبدون من بعدي . قالوا نعبد الهك واله آبائك ابراهيم واسماعيـــل واسحـــاق الها واحدا ونـــحـــن له مسلمون » (4)

وفى القرآن الكريم غير هذا اشارات الى نوع خاص مـــن الوصايا واحكامها حدد معناه الفقهى . الا انها تدخل أيضا فى نطاق هذا الموضوع من وجه . لما قد تشتمل عليه من نـــصـــائح الموصين وهم فى الاغلب آباء للموصى لهم وهم ابناء او حفدة . ولما فيها من توجيهات فى نحو أخذ المال وطرق صرفه فى المصالح الخاصة والعامة الاجتماعية . وهو ما تهدف اليه هذه الوصايا .

ونعثر فيما جمع من كلام الامام على كرم الله وجهه فى كتاب نهج البلاغة على نصائح ووصايا من النوع الذي نتحـــدث عنه . يهمنا منها هنا وصيته لولده الحسن رضى الله عنه (5) .

(3) سورة لقمـــان رقم 13 ، الآيـــات 13 ـ 19 .
(4) سورة البقـــرة رقـــم 2 ، الآيـــات 131 ـ 133 .
(5) نهـــج البلاغـــة ج 3 ص 37 ـ 57 ، ط : بيـــروت .

وهى من روائع درر كلامه ، وخلاصة تجاربه وممارسته لاحوال النفس وتقلبات الزمان واضطراب الدنيا ومصير الانسان فيها وبعدها .. فيخاطبه بلسان ما بعد الموت « من الوالد الفانى » ويوصيه اول ما يوصيه بتقوى الله ويعرفه بخبايا اسرار الحياة وما تنطوى عليه النفس الانسانية من الخير والشر . ومن هو اجسها ، كما يوضح له معاملة الناس واختلاف أجناسهم وطباعهم خصوصا وانه مسؤول عن الامر بعده . وان الامانة ستلقى على عاتقه . وقد جمعت من الحكم غررا مما يليق ان يكون قانونا للحياة ومنارا يهتدى به السائرون فى ظلماتها

ويندرج تحت هذا الباب كل ما اوصى به الخلفاء والملوك أبناءهم عموما وولاة العهد بعدهم خصوصا . ففيه العناصر الكافية التى يكون بها جزءا من موضوع الوصية الى الابناء . اذ هو منهاج يخطه هؤلاء الآباء من اجل تنمية شخصية أبنائهم وتوفير الظروف النفسية التى يستطيعون بها أن يكونوا النموذج الانسانى الذي يصلح لتسيير شؤون الناس . وحركة دواليب الدولة . فى أحسن حال واعدله . فهذا النوع من الوصايا يهتم بالشخص الموصى له فى نفسه ، ويهتم بالاضافة الى ذلك بالامة التى ينتسب اليها ذلك الشخص ، ويهتم بالامر الذي سيتولاه هذا الشخص فى تلك الامة .

وفى هذا القالب الادبى المعبر الصادق ، صاغ الكاتب الاديب عبد الله بن المقفع فى مطلع القرن الثانى احدى روائعه فى رسالته

« الادب الوجيز للولد الصغير » (6) الذي ألفه فى تأديب ولده وتعليمه عندما بلغ اشده . وفى ذلك يقول « حتى تتعظ بآدابى وتكسب حظا تستطيع أن تنتفع وتتمتع به فيكون ذلك حجة اشفاق أبوتى عليك وقضاء لحق بنوتك الذي اوجبه الله تعالى على كأب ويكون فى المستقبل داعيا وموجبا لان تبر بى وتحسن الى جزاء لذلك .. وتساعد فى اموري » ثم بين له ان النصح والتأديب لا ينتفع به دون مساعدة التوفيق الالهى . وبدأ النصيحة برعاية التعظيم فى أداء شكر الله وبلوغ غاية الاجتهاد فى حمده وثنائه (7) .

وكتب بعد ذلك أبو حامد الغزالى (451 — 505 هـ) رسالة على هذا النهج لاحد مريديه ، والمريد فى عرف الصوفية كالولد . وذلك ما يلاحظ من عنوان رسالته هذه « أيها الولد المحب » ينصح له قائلا : « واعلم ان بعض مسائلك التى سألتنى عنها لا يستقيم جوابها بالكتابة والقول . ان تبلغ تلك الحالة تعرف

---

(6) فقد اصل هذه الرسالة باللغة العربية لعبد الله بن المقفع ، وبقيت ترجمتها الى اللغة الفارسية عن ذلك الاصل للفيلسوف نصير الدين الطوسي (597 — 673 هـ) وطبعت هذه الترجمة بطهران بتحقيق الاستاذ عباس اقبال سنة 1352 هـ . ثم ترجمها حديثا عن الترجمة الفارسية الى اللغة العربية الدكتور محمد غفراني اخرساني وطبعت بالقاهرة سنة 1962 م .

(7) الادب الوجيز للولد الصغير ص 37 — 38 .

(8) طبعت هذه الرسالة مرارا ، وآخر طبعة لها هي التي صدرت بتحقيق وتعليق عبد الله احمد ابو زينة بدار الشروق ، اكتوبر 1975 . وهي جيدة ومطبوعة .

ما هى والا فعلمها من المستحيلات لانها ذوقية .. وان البعض الذي يستقيم له الجواب فقد ذكرناه فى « أحياء علوم الدين » وغيره . ونذكر هنا نبذا منه (9) مبتدءا بالتأكيد على العمل بالعلم ثم موضحا تلك المسائل ناصحا بما يجب الاخذ به فى سلوك الطريق الى الله تعالـــى . جاعلا مسك ختامها دعاء جامع يذكر بكثير من الحقائق التى هدف الى ابلاغها اياه اوصاه أن يدعو به عقب كل صلاة . وهى من أجمل واجمع النصائح التى تستزيد القاريء تكرارها كلما عاود تلاوتها .

وقريب من هذا العهد كتب العالم العارف ابو الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي (510—597 هـ) وصيته لولده سـمـاها « لفتة الكبد الى نصيحة الولد » (10) بدأها بقوله : « الحمـد لله الذي انشأ الاكبر من تراب ..» وذكر انه ألفها لولده أبـي القاسم لما رأى منه نوع توان عن الجد فى طلب العلم . فكتبهـا يحث بها على طلب العلم (11) .

*

وصية اليوسـي الى اولاده هى من نوع هذه الوصايا . ولكنها تختص بما يميزها عنها ، وتمتاز بما اختصت به دونها . فهـي وصية تتعلق بما بعد الموت . وتنظر الى الاحوال المادية والمعنوية التـى ستترتب على ذلك . وهى تهتم بحالة الموصى نفسـه

(9) ايهـا الولـد المحـب ، ص 48 — 49 .
(10) نشرت هذه الوصية بمطبعة المنار سنة 1931 م .
(11) كشف الظنون — حاجي خليفة ، ج 2 ص 559 .

وما يجب عمله من تجهيزه وترتيب ما يتعلق بذلك . وتهتم بأحوال نسائه ، ومنزله ومن يضمه وكيفية نظام حياتـــهــم وتنظــيم شؤونهم . وهى تتطلع الى هدف سام هو الحفاظ على استمرار ذلك المدد الروحى الذي وصل الى صاحبها . وهى بعد هذا منهاج عام للتربية ، تربية الاب للابناء وتربية المرشد للمريدين . وقد اجتمعت تينك الصفتان فى الاب الموصى واجتمعت هاتين فى ابنائه موضوع الوصية . واذا اضفنا الى هذا اطلاع اليوسى الواسع ومعرفته الادبية والعلمية والذوقية الكبيرة وخبرته التربوية التى تغذت من منبع الزوايا ومعين الشيوخ ذوي القدم الراسخ ، علمنا أهمية هذه الرسالة ، ليس بالنسبة لابنـــائه فحـــسب بل بالنسبة لمناهج التربية عموما (12) .

2 ـــ أما الاسلـــوب :

الذي تكاد تتفرد به فهو ابتداء من هذه البداية، بعد الاشارة الى اسمه « العبد الفقـــير المسىء الى نفسه المرتجى عفو الله تعالى بفضله وكرمه ..» يذكر مقررا « شاهدا لله تعالى بالربوبية وحده لا شريك له ولنبيه سيدنا محمد صلى الله علـــيــه وسلم بالرسالة والاصطفائية » اذ انه يتمثل نفسه فى موعد مع الموت مما يستوجب المبادرة الى الشهادتين قبل التفكير فى أي شىء آخر . وكأنه بعد لحظات يسترجع انفاسه ويحس بالحياة تجري

(12) انظر كلام اليوسي القيم المستفيض عن العلم والعالم والمتعلـــم وما يتعلق بذلك فى كتابه « القانـــون » .

فى عروقه ، فينبسط أمام ناظريه ما سيقع بعد غيابه عن الانظار. فيأخذ بزمام شرود الافكار ليقرر مباشرة مقصوده وهدفه وهو « انــى اوصى اولادي ..» ومن هنا يـنـطلق فى عرض مؤثر للافكار والحكم والنصائح محللا ومبسطا تارة ، موجزا ومركزا أخرى . فى بيان واضح تنعكس عليه كل حالته النفسية من تأثر وهيجان ، واضطراب يكتنفه الاشفاق على المستقبل ، مستقبـل الابناء ومستقبل الزاوية بعده . فيسارع حينا الى بث الفكرة كاملة دفعة واحدة حتى لتحس فى ذلك بحركة أنفاسه المتسارعة ودقات قلبه المتلاحقة ، كما هو الامر فى بداية الوصية ، خصوصا اذا كان الامر من آكد ما يذكر به مثل « الاقتداء بكـتاب الله ظاهرا وباطنا والمحافظة على سنة رسول الله واتباع الحق حيث كان وحسن الظن بعباد الله ومصاحبة من اطاع الله . والتثبث فيمن يقلدونهم أمور الدين . ولهذا نراه هنا يكرر لفظ «واصى» أربع مرات فى سطور معدودات . ويشمله هذا التدفق السريع القوي فى امتداد هذه البداية فتظهر بعض « الاحوال » فى أقواله جهرا . اذ يقول : «فليس لنا مال وانما نحن فقراء نعيش فى فضل الله تعالى . ولولا النظر الى ظاهر الشرع لما أخرجنا زكاة ولا ماشية ولا غير ذلك ان كان لان الكل ملك لله ولا ملك لنا ، ولكن خوطبنا بحكم الحوز والله المستعان » .

وعلى كل حال فهذا مكان المقدمة من الرسالة . جدير بان يعرض فيه بايجاز الافكار الاساسية والخطوط العريضة مـن تصحيح الاعتقاد والتوجيه الى وسائل الاستفادة لاجل ذلك فى

كتاب الله على حسب ما فسره العلماء بالله واهل الفهم عن الله والفقهاء باحكام الله ورسم الطريق النموذجى لذلك بقوله : والاعتقاد كما قال امام الطائفة الجنيد

ولذلك لا يفتأ يشير الى هذا خلال الرسالة كلها ويذكر به ويعود لتفصيله بين حين وآخر بنحو مغاير كما فى اشارته الى التخلق بمكارم الاخلاق فى الكتاب والسنة وأقوال الحكماء ووصيته بالمحافظة على الشريعة والحقيقة والبحث عن العلم والاجتهاد فى العمل . وقوله « اوصيهم بمجالسة أهل الخير ومجالسة أهل الفقه والحكمة من العلماء العاملين الصالحين . »

ويقف حينا آخر وقفة متأمل يحلل الجزئيات ويقلب أوجهها ويدقق ويبسط ويمثل ويستشهد بالاقوال وهذا بالاضافة الى التقسيمات من خصوصيات أسلوبه فى جميع رسائله ويقسم كما فى تقسيم الارزاق الى طيب والمشتبه الضعيف الشبهة وقويها والحرام البين ويعود اليها من حيث انتهى . ثم يستمر فى الكلام ليعود الى تفصيل القول فيها بعد ذلك وقد تتداخل هذه التقسيمات كما فى تقسيم العبيد فى كدحهم وطلبهم الى :

1 ــ طالب لله تعالى . وهم درجات ، منهم :

أ ــ من يغيب عن الاكوان لمشاهدة المكون ،

ب ــ ومنهم من لا يغيب لمشاهدة الامرين وهم الانبياء .

2 ــ طالب للآخرة وهم اوسط الناس .

3 ـ طالب للدنيا من بابها كالحرث والتجارة .

4 ـ طالب للدنيا من غير ابوابها وذلك :

أ ـ الاشتغال والتدبير والتقصيص والبحث وهو حمق .

ب ـ بالسؤال والتكفف وهو مهانة وسخافة وسقوط همة.
وشرح حالة كل قسم ومآله . ومن ذلك فى وصيته مجانبة خلطاء السوء حيث قسمهم الى ثلاثة :

1 ـ فاسد الطبع وشرحه بأنه كل من له خلق مذموم ومن ذلك :

أ ـ حب الدنيا . ب ـ الكبر والتجبر . جـ ـ الحسد والحقد والبخـــل

2 ـ فاسد الحس وهو الضيعيف العقـــل القليل التمييز

3 ـ فاسد العمل : وهو من لا يتق الله تعالى كافـــرا او مسلما فاسقا بارتكاب المنهيات والتقصير فى المـــأمورات . وفى اضراب هؤلاء شخصان :

أ ـ المبتدع فى الدين ظاهرا او باطنا

ب ـ من لا يضبط لسانه من الوقيعة فى الناس .

وقد تنبه الكاتب الى هذا الاسترسال المستفيض فابان عن ذلك فى احالته للمزيد من التفصيل على كتب أخرى قائلا :

« ومن ذلك الحسد والحقد وسائر اخلاق السوء وآفاتها مشروحة فى كتب الائمة فلا حاجة الى التطـويل بـهـا فى هذه المجـالة » .

واكـتفـى بـالاشـارة الـى « اسبـاب فى الحكمـة الالهـيـة » لانـه « لـن يسـع الـوقـت تفصيلـيـهـا »

واحترز من ذكر الاسباب والاسرار الـتـى فى غيرة الله للمنتسبين لجنابه وان كانوا على سوء بعقابه من تعرض لهـم بمجرد الهوى . محذرا اولاده من الاحتقار والوقيعة بالشهوات، فيمن اتسم بالفقر والانتساب الى الجانب الربانـى . فقال : « ولذا كأسباب وأسرار يطول تفصيلها » .

وترك تفصيل الكلام عما تجعله « القبائـل والعشار » على رغبته فى الحديث عن هذا الموضوع الى وقت آخر قائلا : « واحكام هذا الباب لا يسع هذه الوصية استيفاؤهـا ، فان وسع الله فى العمر رجوبا ان نفرد لذلك مصنفا ينتفع به ان شاء الله تعالـى » .

وقد يعود الى الفكرة الواحدة أكثر من مرة بعد أن يكون قد تركها وانتهى من ذكرها . ولسنا نرى فى ذلك تكرارا او تطويلا. وانما هو استحضار للفكرة كلها او جانب منها مع زيادة بيان يوجبه ما يدعو لذلك والعذر على كل حال بجانبه حيث ان هدفه هو تأكيد مجموعة من المباديء الاخلاقية والحث عليها وترسيخها فى الذهـن . وذلك هو أسلوب المربـى .

واذا قارنا بين الاقتضاب وهذا التفصيل جاز ان نجعل من هذه الرسالة اجزاء مستقلة . فاذا نظرنا اليها على هذا النحو ، تضاءلت ملاحظة قلة التناسب بين التركيز والايجاز والتحليل والتبسيط . فان اضفنا الى هذا الحالة النفسية التى كان عليهـا وهو يكتب هذه الوصية تبينا حقيقة منعطفات المسار تلك التى جذبت الكاتب اليها . وهناك سبب جوهري لهذا الشكل الذي كانت عليه الوصية ، وهو أنها ليست تأليفا بما تفرضه قواعد التأليف . فلا موضوعها يوجب ذلك ولا ارادة المؤلف تقتضيه . وانما هى مجموعة نصائح مهداة الى نفوس عزيزة على صاحبهـا والى آمال عزيز عليه مستقبلها . فهى كما كان يجب أن تكون علـى فطرة الابوة وحرية سجيتها ، من دون ان يعطل انسيابها قانون او يحد طبيعتها شرط . وقد تراءت للكاتب فى خلال هذه الرحلة النفسية بعض مشاهد توقفت نفسه عندها واشتاقت همته الى تحقيقها بعد موته . فكانت على هذا النسق بعـد الافـتـتاح والتـمـهيـد :

من يتولـى :

حيث يوصى الاولاد بان يقدموا فى أمورهم الاكبر فالاكبر ما لم تظهر خصوصية من الله تعالى وفضيلة فى الاصغر توجب تقديمـه .

اقامـة الـزاوية :

وعلامة اقامتها على ايديهم .

1) انجلاب الارزاق، 2) تيسير اطعام الطعام الطعام، 3) وجوب التصرف .

التسليم :

ويوصى بالتسليم لمن قام الامر على يده منهم واعانته .

التولى لا يعنى الولاية :

ويبادر الى مخاطبة من تولى ذلك الامر حتى لا يغتر بنفسه فيعتقد ان ذلك دليلا على الولاية . موضحا الاحوال فى ذلك مبينا العلامات التى يستطيع بها معرفة حاله .

وهنا يحث على المحافظة على الشريعة والحقيقة والبحث عن العلم والاجتهاد فى العمل .

أما حول سلوكه فيوصى بـ :

ـ القصد فى التصرف

ـ تطييب اللقمة .

ويبين له :

ـ أمر ما تجعله القبائل والعشار (13)

---

(13) العشار : أو العشور كما تنطق فى اللهجة المغربية واجب الزكاة فيها لم يسق من الحبوب والغلاة .

ـ الاحوال النفسية التى قد يجد عـليـها نفسه وطرق اصلاحهـا .

الـزاويـــة :

ما يحب المبادر فللقيام به فيها : فليصرف (المتولى) جميع ما كان من الصدقات فى أيدينا من اليوم (14) ولا يمكن أن يكون ذلك ارثا لاحد .

ويختم هذا القسم بقوله : اذا لم تستقم الزاوية لهم ولا لاحد ، فالتسليم . ثم يحاول ابعاد اهتمام نفوسهم عن الزاوية فى نفسها وابعاد هممهم وخواطرهم عن التشبث بها فـيـشرح المقصود من الزاوية ، وانه ليس ذاتها وانما معناها ؟

تـحـذيـر :

وينبه الاولاد بلفظ « احذرهم » فيبين لهم طرق الـرزق السليمة عسى ان تكون الزاوية طريقهم الوحيد الى ذلك . مبينا المهاوي الخطيرة التى يقع فيها أمثالهم من ابناء المنتسبين ويعقب على هذا بتحذيرهم غاية التحذير من تكبد النـاس والطمـع فى أموالهم فانه العار لا سيما مع الطواف على المحلات والقبائل ويستطرد لبيان ما يمكن أن يقع لهم مما وقع مثله فيذكر .

(14) من اليوم : يعني بذلك من يوم توليه أمر الزاوية أي بعـد وفـاة اليوسي . ويبعد ان يعنى ذلك من يوم كتابته للوصية .

بنــي ســاســان :

حيث خرج أعقاب ملوك الساسانيين يضربون فى الارض منتسبين ويذكرون ما وقع عليهم من البلاء فترق لهم القلوب ؟

اهــل الكديــــة :

فبين أصلها اللغوي وقارن بينه وبين ما عليه أهلها ، وقال : واشتهرت الكديـــة حتى صارت حرفـــة لاقوام يعيشون بها ويتآلفون عليها .

التجافى عن ذلك :

ثم تسترجع الوصية أسلوب السرد والعرض لتبدء بكلمة «اوصى اولادي » فيأكد على التجافى عن التكدي وما شـابهــه ذلك فى اكتساب الرزق غاية التجافى مشيرا فى الاخير الى أنه من رزقه الله تعالى من اولادنا رزقا صالحا متيسرا من تسببه من علم صالح فليقبله ، ومن لم يرزقه الله ذلك فلا يقحم نفسه فى المهالك والمصائــب .

الدار الخلفونية :

وهى الدار التى بجوار الزاوية التى بناها بخلفون قريبا من مدينة خنيفرة على وادي ام الربيع فيوصيهم بالبقاة فيها ان

أبقاهم الله والا فأرض الله واسعة فيسكن فيها « المتولـــى »
ويسكن معه اخوته ان وسعتهم والا فليبن حوله كسائر التعلقات

البساتيـــن :

تنفق فى سبيل الله كذلك ويؤكل منها بقدر الحاجة .

الـــكـــتـــب :

يرد من كان منها عارية أو وديعة الا ان يؤذن فى الانتفـــاع به فى المستقبل ، ومن كان منها ملكا بشراء او عطية فهو كلـــه حبس على اولاده ، فينتفع به الاولاد ما تناسلوا ويحدد كيفية إعارتها ولمن تعار له .

النســـاء الـــحـــرائـــر :

فيؤخذ من كل واحدة ما فضل من صداقها من ما فى يدها ويجعل فى مال الله ثم من أحبت أن تصبر فى الدار فهى من جملة الاولاد ، ومن أحبت أن تتزوج فلا يتعرض لها .

التجهيز بعد الوفـــاة :

يوصى بتكفينه بازار شيخه محمد ابن ناصر الدرعى ، وردائه مع قطعة أخرى من كفنه ، ولا بأس أن يضاف الى ذلك على جهة التبرك خرقة من لباس الشيخ ســيـــدي عبد الله بن حسين وأخرى من لباس أحمد بن ابـــى القاسم الا صومعـــى .

التأكيـد على وصية الاولاد

فى مجانبة خلطاء السوء محللا ذلك ومفصلا ويكـرر الحذر فى الاخير ممن يقع فى الناس بكلمة أو رمز او تلميح .

وصـيـة :

بمعاشرة أهل الخير ومجالسة اهل الفقـه والحكمة من العلماء العاملين الصالحين والاقتباس من أنوارهم مع غايـة المحبة لهم والاكرام لهم والتأدب بين ايديـهـم . ويوضح ان النسبة لها حق فى العلم فيجب أن تراعى حرمة كل من انتسب الى الجانب الربانـى ؟ وحذار حذار من الاحـتـقار والوقيعة بالشهوات فيهـم .

حـب الجنـاب :

وحب الجناب على الجملة وتعظيمه والميل اليه لا بد منه لكـ لموفق . وكـل قلب ليس فيه تعظيم جناب الله ومن انتسب اليه على الجملة ومحبة ذلك فهو خرب .

حـذار حـذار

واردف بتحذيره الاخير من صحبة الناقـصى الهمم من المنسبين والجوالين على بطونهم . منبها فى الوقت ذاته الى أهل

الهمم العالية المتخلين على الفانى المقيمين على ما يعنيهم . فمن أظفره الله بهم فليصحب وليقر علينا .

أشـــعـــار

وختم الوصية باشعار فى حق أهل الله ووصفهم .

* * *

يلاحظ فى اسلوب الرسالـــة تقول لتأكيد الافـــكـــار ، واستشهادات لبيانها . وهى فى الاغلب خلال الرسالة كلها ، من القرآن الكريم والحديث الشريف مما يقتضيه سياق الافكـــار التى تعرض لها ، ومن أقوال الصوفية حـــيـــث اشار الى كلام للشيخ أبى العباس زروق (806—889) وذكر شعرا للغوث ابى مدين (م 549 هـ) فى حق أهل الله .

ومن أقوال الشعراء مما كان جاريا علـــى الالسن كقوله « ونحن أناس بالسلامة نفرح » او مما وعته حافظته الواسعة. وأورد فى الاخير أشعارا متابعة فى أهل الله ووصفهم . وأخـــص هنا بالذكر من بين الشعراء صالح بن عبد القدوس لاشير الى أنه طبق فى نقله لشعر له النصيحة التى قدمها لابنائه فى قوله « وان لم يوجد الا من عنده علم ولا ترضى حالته فليؤخذ منه العلم وتترك حالته » ، وان كان الامر يتعلق بالمنتسبين فهو فى غيرهم أعم ، فهذا صالح بن عبد القدوس وان عرف بالزندقة وقتـــل بسبب الاتهام بها فهو شاعر وناظم الامثال . فتمثل بشعر له فى هذا الباب ، وهو قوله :

وتتخلل أسلوب الوصية بعض الافادات والتعريفات التى تبعدها عن جوهـا وكأنها مقحمـة . ولكن الاسلوب المشرق فى الوصية يخفـي كل نفور من وجودها هناك ؟ وهى مع ذلك لا تخلو من الفائدة .

فيقول عن الزاوية : انما هى لفظـة محدثة ومعناها مركـب من أمريـن :

1 ـ التفرغ لعبادة الله والانكماش فى خلوة او ركن بيت او فى مسجد للاشتغال بذكر الله والاقبال عليه قال : وبهذا ولله أعلم سميت زاوية لان الركن يسمى الزاوية (17)

2 ـ اطعام الطعام وهو فى عادة المتأخرين ويرجع معناه الى اكرام الضيف الى الصدقة . والحقيـقـة انه انما نبه على وظيفة الزاوية . وكان ذلك هو غرضه ومقصوده وهو ابعـاد تطلع انفس اولاده اليها . حتى تتجنب خواطرهم التعلق بظاهرها وتبتعد همتهم عن التشبث بالجزئيات المتعلقة باحوالها ونسيان حقيقتها ، لا التعريف اللغوي لها الا تراه يقول : « فمن تيسر له الاكرام مع التفرغ للعبادة جهد المستطاع فهو ذو زاوية ، اي زاوية والا فنفسه انما تطلب السمعة والمباهاة والـتـوسع فى الـدنيـا » ؟

---

(17) انظـر معانـي الزاويـة والشواهـد الدالـة على ذلك فى Suplement au Dixonnaire Arabe Dozi ج 1 ص 615 ـ 616 .

ويقول عن بني ساسان (18) : « لما شل عرشهم وتضعضع ملكهم خرج من بقيتهم من خرج من بلاد المسلمين (19) فكانوا اذا رأوهم وأحسنوا اليهم . فكانوا ينتسبون وربما تشبه بهم من يريد مثل ذلك ، ويقولون نحن من بنـــي ساسان يذكرن ما وقع عليهم من البلاء . وما هم فيه من سوء الحال مع ما مضى لهم من العزة والنعمة فترق لهم القلوب فجرى الناس على ذلك حتى قيل للسائل مطلقا ساسان وربما اسقطـوا النون فقالوا ساس كما هو اليوم » .

---

(18) قوم من العيارين والشطار لهم حيل وضعوا بينهم لغة اخترعوها . ونظم فيها ابو دلف قصيدة طويلة ، وكان الصاحب يتحاور معه بذلك اللسان ويعجب بحفظه . وهي قصيدة بديعة مذكورة في اليتيمة . شفاء الغليل . شهاب الدين الخفاجي ص 109 ، ط 1 (1325 هـ) . انظر نبذة من هذه القصيدة وشرح الفاظها في يتيمة الدهر للثعالبي ج 3 ص 358 – 377 .

(19) ذكر في المصادر الفارسية ان ساسان بن بهمن بن اسفنديار جد الدولة الساسانية قد خرج اول امره سائحا بلبـــاس الدراويش . وتذكر لذلك أسباب متعددة. واجتمع حوله جمع من الدراويش لا يستقرون في مكان ولا يتخذون وطنا لهم . ولهذا سمي الدراويش عموما والمتسولون خصوصا ب الساسانيان والساســي . وفي المصادر العربية ذكر في شرح « آل ساســـان » في المقامـــة الحلوانية للحريري ان ساسان لما صرف عنه الملك الى اختـــه هماى اشترى غنما وذهب بها الى الجبال ولذلك عير ب « ساسان الراعي » ثم نسب اليه كل من تكدى او باشر امرا حقيرا من العمى والعور والمشعوذين والكلابين والقرادين وامثالهم ، وان لم يكونوا من اولاده . وهم جمع وجم غفير واجناس لا مؤتلفـــه وانـــواع مختلفة . شرح مقامات الحريـــري . ط. باريـــز 1847 ، ج 1 ص 23 – 24 .

ثم عرف الكدية تعريفا لغويا وقابل بين ذلك وبين مرجعها وهو حرفة بني ساسان فقال انها : « ما خوذة من قولهم حفر الحفار فأكدى اذا انتهى فى حفرة الى كدية تصعب (20) فقيل المسائل مكد لانه يلح فى السؤال ولا محالة ينتهى الى التكلف اما البخل والمنع واما المشقة . واشتهرت الكدية حتى صارت حرفة لا قوام يعيشون بها ويتألفون عليها ويتحزبون ويتواصلون ويتعاطون فيها اداب وحيلا ويتوارثونها » .

وتجب الاشارة فى الاخير حول أسلوب هذه الرسالة أن موضوعها جعلها تختص وتتقسم الى مقاطع تفصل بينها كلمات هى « اوصى » او « اوصيهم » او (حذار) مفردة او مكررة « حذار حذار » وذلك ما لا يوجد بهذا الترتيب ، والشكل والقصد فى غير هذه الرسالة.

---

(20) كدى : الكدية صلابة فى الارض ، يقال حفر فاكدى اذا وصل الى كدية واستعير ذلك للطالب المخفق والمعطي المقل ، قال تعالى : « اعطى قليلا واكدى مفردات الراغب الاصفهاني ص 444 ، ط. دار الفكر .

الكدية : بالضم شدة الدهر كالكادية والارض الغليظة والصفاة العظيمة الشديدة والشيء الصلب بين الحجارة والطين وما جمع من طعام وشراب فجعل كثبة كالكدية والكداة وحفر فاكدى صادفها . وساله فاكدى وجده مثلها واكدى نجل او قل خيره او قلل عطاءه ككدى كرمى . القاموس ج 4 ص 1382 .

3 ـ أمـا الغاية :

لا شك ان الغاية التى دفعت اليوسى الى كتابة رسالته هاته هى التي صرح بها فى بداية وصيته . ولكننا نلاحظ خــلال هذه الرسالة غايات أخرى تطفو حينا على سطح الكلمات وتغور حينا فى سرها . فهو ما ان بنأ بالوصية لاولاده وللتأكيد عليهم فى الرزق الحلال واللقمة الطيبة حتى يقف الوقفات الطويلــة عند بعض الاغراض التى يهمه أمرها . فمن ذلك قضية العشار التى اراد ان يخصص لها تصنيفا ، ومن ذلك قضية الكســب وأحوال الناس فيه تلك التى ظهر عليه فى تحليلها غاية الفزع ، وأسهب فى ذكر جزئياتها ، ومن ذلك امره هو بعد الموت وهى غاية فريدة ، ولكنه كان يرى من وراء كل هذا وسيلة امتداد تلك الامانة الروحية التى استمدها من شيوخه واستمرار وجودها وفعاليتها ذلك هو فى « الزاوية فان كان قد قدم الوصية للاولاد فقد بادر الى امر اقامة الزاوية واختيار المتولى وسيرته .

فلو نظرنا الى الحالة المضطربة التى عاشها فى حياتــه دائم التنقل من مدينة الى مدينة ومن قرية الى قرية متباعدة عن بعضها لا يكاد يستقر حتى يؤمر بالرحيل . الى أن خرج من فاس وهى محاصرة سنة 1083 هـ عازما على الاقامة فى خلفون حيث أسس الزاوية هناك وتعهدها ورعاها الى ان أمر من جديد بالرحيل عن خلفون سنة 1085 وظل بعيدا عن ذلك الامل الذي غرسه هناك خمس سنوات حتى اذا سمح له بالعودة سنة 1090 لم يلبث الا قليلا وغادرها مرة اخرى . وهكذا استمر

بعـــده عن خلفون رغم ما بدى من حريته فى التنقل منذ سنة 1098 واستمرت مع ذلك أسفاره وتنقلاته الى ان توفى سنـــة 1102 (21) . ويمكن ان نستنتج من هذا ان الزاوية التى أنشأها سنة 1083 كانت مزدهرة وانها بقيت قائمة الى وفاته كما يدل عليه ما وصف من احوالها فى الوصية .

ولكن يحق أن نتساءل متى كتبت هذه الرسالة لتأكيد هذا المرمى ، ونكتفى أمام فقدان دليل قوي على تحديد هذا التاريخ بالقول بأنه لم يطلع على تفاصيل هذه الوصية الا بعد وفـــاة اليوسى او على الاقل حين الوفاة كما يوجبه أمر الوصية . ولذلك فنفترض أن الاشياء والاحوال كانت ما تـــزال كما وصفهـــا فى وصـــيـــتـــه .

ان أهمية هذه الرسالة بالغة لانها تتحدث عن مرحلـــة استقرار ـــ مهما كانت قصيرة ـــ فى حياة الـــيـــوسى ، مرحلة آماله فى الحياة بل هى أمله بعد الموت وهى آخر مـــا أراد أن يكتبه وأن يؤخذ عنه . حاول ان يجمع فيها غـــايـــة ما يرجوه لنفسه ولاولاده وللزاوية بعـــده .

وأهميتها بعد هذا فى أنها عرفتنا على بعض أحواله وآرائه وأحوال الزاوية ومعناها ومبناها فى عهده

---

(21) انظر حول حياة اليوسي فى هذه المرحلة . رسائـــل ابى علـــى اليوسي ـــ فاطمة خليل القبلي وما ذكر هناك من المصادر والمراجع حـــول هـــذا الموضـــوع .

ففيها عن احواله « أنه ينحدر من أسلاف عامة كانـــوا يعيشون بما رزقهم الله تعالى قانعين به ويخوضون فى الاسباب الشرعية غير مصغين لاحد » .

وكان اليوسى كثيرا ما يتمنـــى أحوالهم هذه التى ذكر . بل كان يعتبر نفسه فقيرا لا يرى فيما بيده من مال الا انه فى سبيل الله .

وكان اليوسى يداوم تلاوة القرآن والنظر فيه والتفقه فى ديـــن الله » .

وفى حديثه عن النساء الحرائر ما يدل على أنه كان متزوجـــا باكثر من امرأة حرة وانه كانت له نساء غير حرائر .

ــ محبته الكاملة لشيوخه وتعلقه التام بهم يبدو فيما كان يعتز به ويحتفظ به لنفسه من ازار شيخه وردائه مع قطعة أخرى من كفنه وخرقة من لباس الشيخ سيدي عبد الله بن حسين واخرى من لباس سيدي أحمد بن ابـــى القاسم الصومعـــى . « وغير ذلك مما هو عندنا مخزون للبركة » .

ــ ضبطه أمور مكتبته بالتقييد عليها وحرصه الشديـــد عليها وصيانتها واختصاصها بفقرة فى وصيته .

وفيهـا عـن آرائـه

فيما يصرف فيه الرزق . قال : اما الطيب فليجعله (المتولى) لنفسه فى مطعمه وملبسه ومرافقه كلـهـا ان وسع ذلك والا فليجعله لبطنه وهو اولى فيما نرى وان كان فى ذلك اختـلاف بين الصوفية . وأما الباقى فليختر منه لعياله وما يلزمه وليجعل الباقـى فى سبيل الله فان قويت الشبهة فلا يخالطها ان اضطر الى امساكها لعارض ما فليدفعها مـن خارج فيما يليق به ولا يدخلها زاويته كان يضطر مثلا الى الاخذ من ارباب الدولة لوجود مقتض فليدفع ذلك فى أهل البيت او العلماء ان كان لهم حظا وافرا فى ذلـك .

ـ ما تجعله القبائل والعشار فهو غالبا مشتبـه لاختلاف المكاسب واختلاف النيات ولولا خوف انسداد أبواب المصالـح على الناس لما كان ينبغـى قبوله اصلا .

ويقـول عـن الزكـاة :

فليس لنا مال وانما نحن فقراء نعيش فى فضل الله تعالى ولولا النظر الى ظاهر الشرع لما أخرجنا زكاة حب ولا ماشية ولا غير ذلك ان كان لان الكل ملك الله تعـالـى ولا ملك لنا . ولكن خوطبنا بحكم الحوز .

وفيهـا عـن الزاويـة :

فهـى، فى عهده ذات مهمتين الاولى : التفرغ لعبادة الله ، الثانية اطعام الطعام ، والذي يقوم على أمور لها هو «المتولى» أما الذين يعمرونها فهم الفقراء والمنتسبون والمتدينون وأهل الله

وللزاوية متطلعات تابعة لها هى :

دار ، بساتين ، كتب . ويذكر بتفصيل كيفية الاستفادة من الكتب ، فنعلم ان منها العارية ومنها الوديعة ومنها ما هـو ملك له بالشراء او العطية ، وبعد ان يحبس الانتفاع بما هو ملك له على ابنائه ما تناسلوا ، وينتفع معهم من كان مـعـهم من طلبة العلم باعارة من الاولاد وترد . ويفصل فى ذلك بكل دقة ، فيقول ولا تخرج الكتب عن وضعها خوف التلف كمن يفتح الكتاب كثيرا عند النظر ويأخذه ويده غير نظيفة أو ينعس عند النظر فيقع الكتاب من يده او يقع عليه الزيت من المصباح أو يطرحه فى محل يناله فيه الندى أو القطر او الفار او الغبرة الكثيرة ونحو ذلك » .

* * *

هذه هى وصية اليوسى الى ابنائه كما رسمها الاعجاب فى خواطري . وأدع القاريء يتمعن فى نصها بنفسه عسى أن يكون لهذا الاعجاب ما يؤكده فى أنفس الذين يعرفون الشيخ العـارف

الاديب اليوســى والذين لا يعرفونه . وقد كنت اريد نشرهــا اعتمادا على النسخة الجيدة التى اشرت اليها فى مطلــع هــذا البحث وهى ملك للاستاذ محمد حماد الصقلى ، ولكنى وجــدت أن الاستاذة غاطمة خليل القبلى فى العمل الجامعى الجيد الذي انجزت حول رسائل اليوســى (22) قد اعتمدت فى تحقيقها لوصية اليوســى لابنائه على هذه النسخة .

* * *

وهذا هــو نص رسالة وصية اليوســى لاولاده :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنــا محمد خاتم النبيئين وعلى آله وصحبه أجمعين ، اما بعد ،

فيقول العبد الفقير ، المسيء الى نفسه المرتجى عفو الله تعالى بفضله وكرمه ، الحسن بن مسعود شاهدا لله تــعــالى بالربوبية ، وحده لا شريك له ، ولنبيه محمد صلى الله عليــه وسلم بالرسالة الاصطفائية ، انــى اوصى اولادي خصوصا وجميع الاخوان عموما بتقوى الله والتسليم لامر الله ، والاقتداء بكتاب الله ، على ما فسر العلماء بالله ، وأهل الفهم عن الله ، والفقهاء باحكام الله ، أن يحافظوا على سنة رسول الله صلــى الله عليه وسلم ويعتقدوا كما قال امام الطائفة الجنيد رحمــه الله تعالى : « ان الطرق كلها مسدودة عن الخلق الا من اقتفاء آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم » وأوصيهم ان يتبعــوا

---

(22) رســالة لنيل دبلوم الدراســات العليا من جامعة محمد بن عبد الله بكلية الآداب بفاس سنة 77 ـــ 78 . تحت عنوان « رســائـــل ابي الحســن بن مســعــود اليوسي » .

الحق حيث كان ويجانبوا الهوى ، وان لا يتبعوا كل ناعق ، وان لا يجعلوا سوء الظن بعباد الله بضاعتهم ، بل يحسنوا الظن بعباد الله ، ولا يصحبوا الا من أطاع الله تعالى ، ولا يقلدوا دينهم الا من ثبتت استقامته ، وظهر أدبه مع الله تعالى ، وليعلموا ان حكمة الله تعالى وفضله غير مختص بشخص ولا طائفة ، ولا نسبة ولا بلاد ، بل يختص برحمته من يشاء ، ومملكته واسعة ، وفضله مبذول ، والعبيد كلهم على بابه ، متعرضون لمائدته ، وهى ألوان لا نحصيها وكل قد اصاب منها بقدر القسمة . والسعيد من صادف لونا ينتفع به فى الآجال ، والتسليم جنة ، والنصيحة بآدابها عمود الدين . وأوصيهم أن يتراحموا ويتعاونوا على البر والتقوى ، وأن لا يتدابروا ولا يتباغضوا ، ولايتحاسدوا ، وأن يكونوا عباد الله اخوانا كماأمرهم، وأوصى الاخوان خصوصا أن يراعوا فى أولادي عهود الاخوة والمحبة ، فان « حسن العهد من الايمان » وأن لا يواطئوهم على الهوى ، « فان الدين النصيحة » ولا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، وأوصى اولادي أن يقدموا فى أمورهم الاكبر فالاكبر، اقامة لادب الشرع ، ما لم تظهر خصوصية من الله تعالى وفضيلة فى الاصغر توجب تقديمه ، فعند ظهور الفضيلة لا يبقى للسن اعتبار ، الا مجرد التوقير والاحترام فلا بد منه

وليجتهدوا فى طاعة الله تعالى والاحسان الى عباد الله واطعام الطعام ، وافشاءالسلام وغض الابصار عن عيوب الناس والصبر على جفاء الجفاة ، الى غير ذلك من مكارم الاخلاق التى يجدونها فى الكتاب والسنة وأقوال الحكماء . ثم لينظروا بعقولهم

فى صنع الله تعالى بهم ، فان رأوا ان الله تعالى قد أقام الزاوية على أيديهم جملة بوجود انجـلاب الارزاق ، وتيسر اطعـام الطعام ، ووجود التصرف ، فليحمدوا الله تعالى كثيرا فى تيسر ذلك ، وجعله سببا للخير لا مكرا ، وليبرأوا من الحول والقوة ، والمساكين واهل النسبة ، ليس لهم حول ولا قوة ولا ملك ، وانما وليعتقدوا أنفسهم عبيد الله تعاللى ، مسخرين فى خدمة الفقـراء الله تعالى يجمع أرزاقا فى ذلك المكان ، ويطعمـهـم اياها ، وليشكروا الله تعالى ان كان ذلك على ايديهم ، وليأكلوا من ذلك بقدر الحاجة معتقدين أنهم فى ذلك والواردين سواء ، فهم عبيد يطعمهم مولاهم ، ولا مزية لاحد على التحقيق ، بل يعتقدون أنهم فى بركة الواردين (يعيشون) . وليتحروا الحلال جهدهم ، ويجتهدوا فى اصلاح النيات فى الاخذ والعطاء مكتفين بالله تعالى مستغنين به ، فهم يأخذون عن الله ويدفعون الله تعالى . واذا نظروا بالحقيقة وجدوا أنفسهم معزولين عن الامر ، لا مدخل لهم الا بحسب المظاهر الاكتسابية التى هى مناط الاحكـام الشرعية ، والا فالله هو المتصرف قبضا ودفعا « لا اله الا هو سبحانه عما يشركون » . وان رأوا ان الله تعالى قد اقام ذلك على يد واحد منهم بخصوصه كبيرا او صغيرا ، فعلى الآخرين أن يسلموا له ولا ينازعوه بظواهرهم ولا ببواطنهم ، وليشكروا الله على أن جعل الامر فيهم ولم يخرج الخير عنهم .

وعليهم أن يجتهدوا فى خدمته واعانته قولا وفعلا . وعلى من جرى ذلك فى يده ان يعرف نفسه ، ولا يغتر بما ظهر مـن المصلحة على يده ، ويعتقدأن ذلك دليل على ولايته وقربه مـن

زاويته كان يضطر مثلا الى الاخذ من ارباب الــدولــة لوجود مقتض فليدفع ذلك فى اهل البيت او العلماء فان لهم حظا وافرا فى ذلك ، ما لم يكن ذلك عرضا معينا لشخص فلا يقربه بوجه ، وان أخذه فليرده لربه لا غير . واحكام الشرع معلومة فى هذا وغيره ، وقلما يوجد القسم الاول الا فى شخص بعــيــنه أو أشخاص يعرف مكسبهم ويعرف نياتهم فى معاملة الله لوجهه لا غير . وقليل مثل هؤلاء .

وأما ما تجعله القبائل والعشار فهــو غالــبــا لاختلاف المكاسب ، واختلاف النيات ، ولولا خوف انــســداد ابــواب المصالح على الناس لما كان ينبغى قبوله أصلا واحكام هـــذا الباب لا يسع هذه الوصية استيفاءها ، فان اوسع الله فى العمر رجونا أن نفرد لذلك مصنفا ينتفع به ان شاء الله تعالــى

وان وجد حاله على خلاف ذلك من الــركون الى متاع الدنيا وقلة الاستقامة ، فليبك على نفسه وليعلم ان حاله حال مستدرج ممكور به ، ولكن لا ييأس من رحمة الله ، بل يرجع الى الله تعالى بغاية التضرع والالتجاء أن يتوب عليه ويجبــر كسره ، ويصلح حاله ولا يختر فى ذلك العزل عن تلك المصلحة ، ولابقاءها فى يده ، فان الله تعالى قادر أن يصلح حاله ويبــدل سيئه حسنا مع بقائه فيها . وهو على كل شىء قدير لا اله الا هو. اللهم الا ان يتبين له ببصيرته أن فساد حاله بمجرى عادة الله انما هو بتلك الخلطة ، فليهرب عنها قياما بالاسباب الشرعية .

ومتى استقامت الزاوية فليصرف فيها جميع ما كان من الصدقات فى ايدينا من اليوم ، وما لم يزل فى ايدي الناس فكان ذلك فى سبيل الله ، لا يحل لاحد أن يأخذه ان شاء بتملكه لنفسه، ولا يذخره لنفسه ولا لعياله، وانما ذلك مرصد للانفاق فى سبيل الله ، وما خزن منه الى وقت ما فانما يخزن لذلك ، وليس لنا منه ولا لعيالنا واولادنا الا ان نصيب منه حاجتنا (من غير) تمول ولا تكاثر ، فليس لنا مال وانما نحن فقراء نعيش فى فضل الله تعالى . ولولا النظر الى ظاهر الشرع لما أخرجنا زكاة حب ولا ماشية ولا غير ذلك — ان كان— لان الكل ملك لله تعالى ولا ملك لنا ، ولكنا خوطبنا بحكم الحوز والله المستعان .

وان رأوا (ان) الزواية لم تستقم لهم ولا لاحد ، فليسلموا الامر الى الله تعالى ، وليعلموا أن الخير فيما اختار الله لهم ، فان العبد غدا مسؤول عن كل مال مم اكتسبه وفيم انفقه ، ومسؤول عن كل متعلق ووارد ماذا قضى فى حقه ، ومن أنجاه الله تعالى وليثق بحسن اختيار الله تعالى .

وليعلموا ان الزاوية لا حقيقة لها شرعا ولا ذكر لها ، وانما لفظة محدثة ، ومعناها مركب من أمرين أحدهما : التفرغ لعبادة الله ، ويكون ذلك بالهرب من التشاغل بالدنيا واسباب المعاش ، والانكماش فى خلوة او فى ركن بيت او فى مسجد للاشتغال بذكر الله والاقبال عليه ، وبهذا — والله اعلم — سميت زاوية لان ا لركن يسمى زاوية . الثانــى : اطعام الطعام وهــو فى عادة

المتأخرين معناه الى اكرام الضيف . ففى الحديث : « من كان يومن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه » والى الصدقة ففى الحديث « تصدقوا ولو بشق ثمرة » واذا كانت راجعة الى هذه الامور ، فالعبد مأمور بعبادة الله ، فليعبد ربه حيث كان ، ومأمور بالاحسان والصدقات ، واكرام الضيف متى تصدق بما وجد ، ولو بشق ثمرة ، واكرام ضيفه مما وجد ولو واحدا ، مع تفرغه لعبادة الله جهد الاستطاعة ، فهو ذو زاوية أي زاوية. ومن أقامه الله فى مثل ذلك ولم يكتف به فى قلبه وجعل يتحسر على فوات غير ذلك من كثرة الأرزاق ، وكثرة الواردين ، فنفسه انما تتطلب السمعة والمباهاة والتوسع فى الدنيا فليستعذ بالله من شرها .

فان زعمت نفسه أنه انما تسعر لما يفوته من كثرة الاجور فليعلم أنه قد انجاه الله تعالى من كثرة الحقوق وما يلزمه من الحساب فى تلك التخاليط فهذه بهذه ، « فنحن أناس بالسلامة نفرح » وليرجع الى الرضى بجميل اختيار الله تعالى كما قلنا اولا ، يعش حميدا ويمت سعيدا ان شاء الله تعالى ، ثم لينظروا عند ذلك ، فان جاءهم الله تعالى بارزاقهم متيسرة بلا سبب من وجه طيب فليحمدوا الله تعالى وليشكروه كثيرا ، وليعبدوه بكرة واصيلا ، وان لم تتيسر لهم الارزاق فليشتغلوا بالاسباب الشرعية التي لا يتدنسون فيها بعار شرعا ولا عادة من اسباب الناس .

واحذر هم غاية التحذير من السبب الذى يتعاطاه أكثر ابناء

المنتسبين من تكبد الناس والطمع فى أموالهم ، فانه العار والفقر الحاضر ، ولا سيما مع الطوفان على المحلات والقبائل فنعوذ بالله من هذه الحرفة .

وليعلموا ان العبيد فى كدحهم وطلبهم اربعة : طالب لله تعالى ذلك بالاجتهاد فى طاعته ، امتثالا لامره وقياما بالادب بين يديه ، والتزاما لاحكام العبودية مع المحبة له والاشتياق اليه ، راجيا ذلك محبته ورضاه وقربه ، فهذا خير العبيد عند اللـــه تعالى وهم فى هذا المعنـــى درجات منهم من يغيب عن الاكوان بمشاهدة المكون فيبقى مدلها ، ومنهم من لا يـــغيـــب لمشاهدة الامرين مع القيام باحكام الحالين والمحافظة على آداب الجانبين وهم أقوى ، وهو مقام النبوءة ، وقد يطلبون الجنة وما اعد الله فيها ويتعوذون من النار وما فيها اما امتنانا واما تأدبا مع الله تعالـــى فى الاتصاف باوصاف العبيد من الفقر والحاجـــة الى مولاهم ، مع التأدب بقبول ما من به عليهم ، وتعظيم نعمته تعالى وغير ذلك . وطالب للاخرة وذلك بالاجـتـهاد فى طاعته تعالى امتثالا لامره تعالى ، وطالبا لما أعده الله تعالى لعبـــاده المطيعين من النعيم فى الدار الكريمة ، وطلبا للنجاة مما أعـــد للعصاة من الجحيم فهذا اوسط الناس ، لم يصل الى درجـــات المقربين ، ولم ينحط الى درك المجرمين ، « فان لم يصبها وابل فطل » الا ان لم تكن ابل فمعزى .

وطالب الدنيا من ابوابها كالحرث والتجارة فهذا فى أهل الدنيا لاعار عليه عندهم ، وانما العار عليه عند أهل البصائر ،

حيث باع النفيس الباقى ، بالخسيس الفانــــى . وقد يقيم حدود الله فيكون من القسم الذى قبله . وقد يخوض فيها بيده فقــط وقلبه مع الله قائما بالآداب الشرعية والحقيقة ، فيكون من قبيل الفريق الاول . وطالب للدنيا من غير ابوابها ، فان كان ذلك بنحو الاشتغال بالتدبير والتقصيص والبحث ، فهو حمق منشؤه شدة الرغبة فى الدنيا والحرص عليها ، والتشوف الى كثرتها ، والطمع فى استعجالها مع الفوز بالراحة عن الكد فى أسبابها ، والاغترار بما يسمع من نوادر من ظهر بشىء من ذلك فى الدهور الماضية، مع ولوع النفس بالامور الغرائب . وهى حرفة خسيسة صاحبها لا يفلح ولا يموت غالبا الا مملقا فقيرا من الدين والدنيا . الا ان يتداركه الله تعالى برحمته .

وان كان ذلك بالسؤال والتكفف فهو مهانة وسخافة وسقوط همة ، وصاحبها مع ما يعانــى من التكلف واقتحام الشبهات ، وغير ذلك من القبائح الدينية والدنيوية ، مسقط لمروءته مهيــن لنفسه وهو يظن أنه يكرمها . قيل : مر الاصمعى برجل يخدم فى الزبل وهو ينشد :

واكرم نفسى اننى ان أهنتها وحقك لم تكرم على أحد بعدي

فقال له الاصمعــى : باي شىء اكرمت نفسك ؟ أبمثــل هذا العمل ؟ فقال الرجل : نعم ، أكرمها بصونــهــا عن سؤال السفلة امثالك . فمر الاصمعي يهرول . وكان من حكمة الله تعالى وابتلائه لابناء المتدينين أن الرجل يكون زاهدا فى الدنيا فتتبعه

راغمة ، وتخدمه كما وقع فى الخبر : « أخدم من خدمنى » او يقضى الله على يده مصلحة انفاقها محقا كان أو مبطلا ، وعلى كل حال فيجلبها الله اليه عفوا بلا سبب ولا تعب ، فيقوم اولاده فيجدون ذلك ، ويعيشون فى اتساع الحال ويستحلون اقبال الدنيا واهلها ، وقد يسمعون ذلك ان لم يدركون ، فاذا مات والدهم ولم يصلح الله قلوبهم كما أصلح الله قلب أبيهم ، ولا أجرى مصلحة الانفاق على ايديهم ؟ كما اجراها على يد ابيهم قطع تلك الارزاق ، وذهب بتلك الأرفاق ، وصرف قلوب الناس عنهم ، حكمة منه تعالى ، فحينئذ يغتمون ، اذ لا صبر ولا زهد لهم فيما انصرف ولا وجود له ، اذ نقله الله تعالى الى باب آخر بحكمته ، فلم يبق لهم الا التشوف له وتحليهم بالشره والرغبة ، وتذكر ما كان قبل من النعيم ، والاسف على انقطاع ذلك ، ومنافسة من لم ينقطع على التعرض له وتتبع آثاره ، حتى يرتحلوا الى تلك الابواب التى كان يخرج منها الرزق فيقفوا فيها بعدما كان أهل تلك الابواب يقفون بابوابهم ، نعوذ بالله من انقلاب الحال ، فحاولوا استنزال ذلك بانواع من الحيل والشبهات بصور ما كان لآبائهم من الدين ، وصورة الفعل والدعاوي ، وهذا فيمن فيه بقية فكر وحياء ، واما غيره فلا تسأل عنه .

ومما يوقعهم فى هذه الورطات ، اتباع آبائهم فانهم اولا يتبسطون اليهم بالسنة حداد من الخير ويقولون نحن خدامكم ونحن عبيدكم وليس عندنا الا متاعكم . ويظن المساكين ان ذلك حقيقة ، ويقبلون أيديهم وأرجلهم ويتمسحون بهم فيظن

المساكين انهم ورثوا حالة آبائهم صلاحا وبركة واحتراما . ولم ينظروا الى أنفسهم فيعرفوا ما هم عليه ، وربما رشحت اليهم صفة اولئك الاتباع بشيء من الرزق والاحسان مرة او مرتين ، فيظن المساكين أنهم كذلك ، ويطمعون فى المزيد ، حتى اذا ذاقوا تلك الحلاوة مات اولئك المراعون ، او بردت قرائحهم واستولى عليهم حب الدنيا والشح فيها ، فحينئذ يتجافون عن ذلك الاحسان فيبقى اولئك المساكين هداجين على ابوابهم ، ولا يخرجون اليهم الا قليلا ، على انهم لو بقوا على الاحسان لم يكن ذلك الا سخافة لا يرضاها لنفسه ذو همة ، اذ لا يأتون بما لهم عفوا ابوابهم ، ويسألونهم أن يقبلوه كما كانوا يصنعون بآبائهم بل يبقون فى بيوتهم حتى يقدمون عليهم سائلين متملقين ، والناس اليوم نفوسهم خسيسة وهممهم ساقطة ، وحب الدنيا مستول على قلوبهم ، وحطام الدنيا كبير فى أعينهم لوجاءوا به الى الرجل وسألوه قبوله لتمنوه عليه ، فكيف اذا جاءهم ، وهذا أمر مشاهد منهم معروف ، وقد وقع لابناء الفقراء فى توريطهم بهذه الورطة شبه ما وقع لأهل الكدية مرجع هذه الحرفة ، وذلك أن تبى ساسان لما ثل عرشهم وتضعضع ملكهم ، وسلبوا الدنيا خرج من بقيتهم من خرج فى بلاد المسلمين ، فكانوا اذا راوهم رحموهم واحسنوا اليهم ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « ارحموا عزيز قوم ذل » فكانوا ينتسبون ، وربما تشبه بهم من يريد مثل ذلك ، ويقولون نحن من بنى ساسان ويذكرون ما وقع عليهم من البلاد وما هم فيه من سوء اللحال ، مع ما مضى لهم من العزة والنعمة ، فترق لهم القلوب فجرى الناس على

ذلك حتى قيل للسائل مطلقا ساسان ، وربما أسقطوا النــون ، فقالوا ساس كما هو اليوم . وجرى أهل الكدية وهى مأخوذة من قولهم حفر الحفار فأكدى اذا انتهى فى حفره الى كدية تصعب، فقيل للسائل : مكد لانه يلح فى السؤال ولا محالة ينتهــى الى التكلف : اما ا لبخل والمنع واما المشقة ، واشتهرت الــكديــة حتى صارت حرفة لاقوام يعيشون بها ويتألفون عليها ويتحزبون ويتواصون ، ويتعاطون فيها آدابا وحيلا ويتوارثونها حتى انه من غرائب الامر ما ذكر حجة الاسلام الغزالى انه رب قوم منهــم يكونون عميا فيعيشون فاذا ولدت لهم الاولاد أعموهم لتتفق لهم تلك الحرفة نعوذ بالله تعالى من البلاء ، وقد مثل العلامــة الهمدانــى وابو محمد بكثير من حيلهم ووقائعهم على وجــه التقدير ، وهــى كذلك تقع ، ووقع ابناء الفقراء فى نحو من ذلك نسال الله تعالى العصمة .

فأوصى اولادي أن يتجافوا عن تلك الطــرقات (غــايــة التجافــى) ويتعوذوا بالله سبحانه منها ، وقد كان اسلافنا وهم عامة ، يعيشون بما رزقهم الله تعالى ، قانعين به، ويخوضون فى الاسباب الشرعية ، غير متصنعين لاحد ، ولا متشوفين له، ولا طامعين الا فى الله حتى ماتوا ذوي عز ، وخلوص من دنس الطمع ، ومن حرفة منن الناس ، وخفة ظهورهم من التبعات ، وكثير ما نتمى أحوالهم لولا ما من الله تعالى علينا به من تلاوة كتابه ومزيد التفقه فى دينه ، نسال الله تعالى ان يكمل لنا هذه المنة بالتوفيق الى العمل الصالح ، والختم بالحسنى انــه ذو الفضل العظيم ، ومن رزقه الله تعالى من أولادنا رزقا صالحــا

واحسانه فليقبله كما قال صلى الله عليه وسلم : « ما أتاك من هذا المال وانت غير متشوف ولا سائل فخذه وتموله ، ومالا فلا تتبعه نفسك » « ومن لم يرزقه الله ذلك ، فلا يقحم نفسه فى المهالك والمصائب ، ويرجع الى ما كان عليه أسلافه ، ولا عيب عليه فى ذلك ، والغازي اذا لم يغنم فلا عيب عليه ، وانما العيب اذا تلف ما عنده ، ورجع بخفى حنين ، نسأل الله تعالى العافية .

وأما الدار الخلفونية فان أبقاهم تعالى فيها ورزقهم العافية وما يحتاجون فليقمو او ليشكروا الله تعـالى ففى الخبر من رزق من باب فليزمه » والا فارض الله واسعة والبلاد بلاد الله والعباد عباد الله فأينما وجد الانسان دينه ورزقه فليقم » ، ثم المتولى يسكن فى الدار وعليه أن ياوي من معه من الاخوة ان وسعتهم والا فيلبن لهم حوله كسائر التعلقات والبساتين تنـفق فى سبيل الله كذلك ويوكل منها بقدر الحاجة .

وأما الكتب ، فما كان منها عارية او وديعة فيرد الى ربه الا ان يأذن فى الانتفاع به فى المستقبل فينتفع به ، وان لم يوجد ربه حفظ له حتى يوجد ، وما كان منها ملكا لنا بشراء او عطية، والغالب ان ذلك مكتوب عليه ، فهو كله حبس على اولادي ، لا يباع ولا يورث ملكا ولا يتصرف فيه بشىء من التصرفات غير الانتفاع به بالمطالعة والقراءة وغير ذلك فيـنـتفع الاولاد ما تناسلـوا ، وينتفع معهم من كان معهم من رحبتهم من طلبة العلم باعـارة من الاولاد وترد ولا تخرج الكتب عن وضعها خوف التلف والضياع بل ولا تعار أصلا لمن لا يصونها كمن ليس

بمأمون على الهروب بها ، أو فسادها كمن يفتح الكتاب كثيرا عند النظر ويأخذه ويده غير نظيفة ، او ينعس عند النظر فيقع الكتاب من يده او يقع عليه الزيت من المصباح ، او يطرحه فى محل يناله فيه الندى أو القطر او الفأر ، او الغبرة الكثيرة او نحو ذلك ، وكثير من الناس قليل التحفظ ، ولذلك يقال : آفة الكتب العارية . وما يقال من أن منع الكتب غلول فانما يصح عند وجود من هو أهل لان يعطى ، والا فهو تضييع للكتب . وأما النساء الحرائر فيوخذ من كل واحدة ما فضل من صداقها من ما فى يدها ويجعل من مال الله ويترك لكل واحدة صداقها محسوبا بما فات منه عندها ثم من أحبت أن تصبر فى الدار ، فهى من جملة الاولاد تأكل من مال الله وتلبس ما عاشت ومن أحبت أن تتزوج فلا يتعرض لها .

وأما ان توفانى الله تعالى فكفنى هو ازار الشيخ ورداءه مع قطعة أخرى من كفنه وذلك فى المخزن معد (لذلك) ولا بأس أن يضاف الى ذلك على وجه التبرك خرقة من لباس الشيخ سيدي عبد الله بن حسين وأخرى من لباس سيدي أحمد بن ابى القاسم الصومعى وغير ذلك مما هو عندنا مخزون للبركة والله ينفعنا بالصالحين فى الدارين آمين .

(واعود) فأوصى أيضا اولادي وسائر الاخوان بمجانبة خلطاء السوء فان الطباع تسرق من الطباع ، والمعاشرة لها اثر ظاهر فى كل شيء ، ولذلك قيل :

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن مقتدي

وفى الخبر : « الجليس الصالح خير من الوحدة ، والوحدة خير من جليس السوء » ، ويرجع جليس السوء الى ثلاثة : فاسد الطبع ، وفاسد الحس ، وفاسد العمل .

أما الاول فنعنى به كل من له خلق مذموم سواء جبل عليه أو اكتسبه ، فمن ذلك حب الدنيا فصاحبه يعتنى بالدنيا طلبا وذكرا ، ويهتم بها ، فمن صاحبه يخشى عليه ان يجره الى ذلك او شىء منه . وحيث الدنيا راس كل خطيئة ، وهذا البلاء عام فاش فى الناس الا من اخلصه الله تعالى وقليل ما هم ، فلا تكاد تلقى (الا) مهتما بها عطشان اليها لهفان عليها ، فليحذر اولادنا من مصاحبة العوام الذين عميت بصائرهم بحبها فلا مشهود لهم ولا محبوب ولا مطلوب غيرها ..

وليحذروا كذلك ن عوام الطلبة والفقراء المتعطشين اليها الذين يزينون لهم الملابس والمفارش والمآكل ، والمراكب والمساكن والمناكح ، وطلب الجاه والرياسة ، وربما جعلوا لذلك تأويلات فاسدة ، ونصبوا لهم شبها واهية ، وادلة فاسدة . فصحبة هؤلاء والاصغاء الى ترهاتهم وأباطيلهم ، سم قاتل ، وهم شر من ابليس بكثير . ومن ذلك الكبر والتجبر ، وصاحبه هالك فى الهالكين الا ان يتداركه الله تعالى برحمة منه ، ومن صاحبه مع ما يعانيه من خشونة أخلاقه دائر بين ان يسرق من طبعه ، فيكون مثله او قريبا منه ، وبين أن يعيش معه فى ذل ومهانة ، ويألف التذلل للمتجبرين ولا خير من شىء من ذلك .

ومن ذلك الحسد والحقد والبخل وسائر أخلاق السوء

وآفاتها مشروحة فى كتب الائمة فلا حاجة الى التطويل بها فى هذه المجالة .

وأما الثانى ، فالمراد به الضعيف العقل القليل التمييز ولا خير فى صحبته ، بل فيها غاية المضرة لانه يريد ان ينفع فيضر، ويقبح الحسن ، ويحسن القبيح ، ويقرب البعيد ، ويبعد القريب فيقع فى مهاوي الغرر والهلاك ويجر الى حمقه ، ولذلك قال صالح ابن عبد القـــدوس :

ولان يعادي عــاقـــلا خيـــر له   من أن يكون له صديـــق أحمق

وأما الثالث : فنريد به من لا يتق الله تـــعــالى فى أفعاله وأقواله كافرا ، أو مسلما فاسقا بارتكاب المنهيات ، والتقصير فى المامورات . وصحبته شر ومعصية ، لانا أمرنا بمجانبة أعداء الله وبغضهم لله ، ونهينا عن فعل الفواحش ، وعن تقريرها وذلك بمشاهدتها من غير نكر وهو حاصل الصحبة . ومـــن اضراب هؤلاء شخصان : احدهما المبتدع فى الدين ظاهرا وباطنا ، فان البدع تستند الى تأويلات ، فيوشك أن يسرق عقل المصاحب بها ويرتكبها او امثالها ، نسأل الله تعالى العافية ، فالحذر ممن لا يحافظ على سنة النبى صلى الله عليه وسلم ، وما كانت عليـــه الجماعة ، ولا سيما الامر فى هذا الزمان الذي قل فيه الخيـــر وتنوسيت المعالم الشرعية ، والآثار النبوية ، وصارت السنـــة بين البدع كالشعرة البيضاء فى جلد الثور الاسود . وقد ابتدعت أمور ، فلما طال بها العهد وشاع العمل صارت سنة ثم الحقت بتلك الامور أمور ، فلما طال العهد بها أيضا صارت سنة وهكذا .

وقد غلبت العادات على العبادات حتى كادت تقضي عليها لولا ان الله تعالى يحفظ دينه فى ايدي خواص عباده ، نسـأل الله تعالى أن يجعلنا وأولادنا وسائر احبتنا منهم انه ذو فضل عظيم.
الثانـي : من لا يضبط لسانه من الوقيعة فى الناس وهذا بلاء عظيم، ومع عظمه هو عام فى الناس ، لا يكاد ينجو منه الا قليل ممن ورعه الله تعالى وحفظه . وقد ابتلى بها كثير ممن اتسم بالدين وصلحت أحواله فى غير ذلك ، لنزوع النفس طبعا الى أكل لحوم الناس ، والتفكه بأعراضهم واستلذاذ ذلك وخفته علـى اللسان ، فان النفس جبولة على حب الرفعة والشرف والفضيلة فتجرى لاستنقاص الغير توهما منها أنه يحصل بذلك غرضهـا بالنسبة ، والنفس ا لدنية مجبولة على الاستنقاص ، والناقص يقيس الناس بذراعه وهذه اشارة الى أسباب فى الحكمة الالاهية لن يسع الوقت تفصيلها . والحذر الحذر ممن يقـع فى الناس بكلمة أو رمز او تلويح ولا يحجزه عنهم دين ولا مروءة ، ويكون اما باسكاته ان كان يقبل النصح واما بالبعد عنه ، ولا بد فى ذلك من تلطف وحسن تخلص ، والا فمن هكذا حاله ان رمت كفه عن الناس تركهم واخذ فيك والله تعالى المستعان .

ومن ابتلى بصحبة واحد من هـؤلاء فى وقت لضرورة ، فليحتفظ على دينه جهده ، كما قيل : خالط الناس وديـنـك لا تسلمه ، وليدرأ عن نفسه وعن دينه ، وليلجأ الى الله تعالى فى التخلص من الورطة.

وقد لا يمكن التخلص عادة او لا يليـق كـالـزوجـات ،

والسراري مع « ان النساء ناقصات عقل ودين » ، والعبيد وسائر الخدام ، وكل من يعين على معاش او شيء من المنافع الدنيوية ، فليس الا التحفظ والمجانبة ما أمكن . ولذلك قيل صاحب لدينك وصاحب لدنياك ، وصاحب لآخرتك وصاحب للتأنس وهي مشروحة في كلام الشيخ زروق وغيره . اوصيهم بمعاشرة أهل الخير ومجالسة اهل الفقه والحكمة من العلماء العاملين الصالحين . والاقتباس من أنوارهم مع غاية المحبة لهم والاكرام اليهم والتأدب بين أيديهم ، وان لم يوجد الا من عنده علم ولا ترضى حالته ، فليؤخذ منه العلم ، وتترك حالته ولا بد أيضا من توقيره واكرامه ومحبته باعتبار العلم ، اذ ادنى أحواله ان يكون كصندوق محشو بكتب العلم ، ومعلوم ان هذا الصندوق لا ينبذ في المزبلة ، ولا يمشى بالنعال عليه ، ولا يمتهن بل يحترم غاية ، ويحب ما فيه . فكيف بمن جمع الاحتواء على العلم بالايمان والاسلام مع ما وفقه الله اليه من الدين ، والاعتراف بالتقصير فيما بقي . وهذا خير كثير ، بل كل من اتسم باسم عالم او فقيه ينبغي أن يراعى له من الاحترام والاكرام ما يليق بحق النسبة والاسم ، ومن كثر سواد قوم فهو منهم ، والنسبة لها حق :

رأى المجنون في البيداء كلبا   فجر له من الاحسان ذيلا

فلاموه على ما كان منه   وقالوا لم نلت الكلب ذيلا

فقال دعوا الملامة ان عيني   رأته مرة في حي ليلى

وكذلك من لتسم بالفقر والانتساب الى الجانب الربانى تراعــى له حرمة الاسم والا نتساب ، فيحترم ويكرم ويظن به الخير ، ثم ان صحت استقامته او ظهرت مع ذلك كرامته فهو كنز مظفور به ، وان ستره الله فهو الى الله والحمد لله على الستر ، وان ظهر منه ما ينكر فهو بحال التماس المعاذير ، والانكار بمقتضى الشريعة على وجه النصيحة مع قيام حسن الظن والاحترام بالقلب . وحذار حذار من الاحتقار والوقيعة بالشهوات ، فان الله تعالى يغار للمنتسبين لجانبه وان كانوا على سوء يعاقب من تعرض لهم بمجرد الهوى ، ولذلك أسباب وأسرار يطول تفصيلها : « فليحذر الذين يخالفون عن أمره ان تصيبهم فتنة او يصيبهم عذاب أليم » .

وحب الجانب على الجملة وتعظيمه والميل اليه لا بد منه لكل موفق . وكل قلب ليس فيه تعظيم جناب الله ومــن انتسب اليه على الجملة ومحبة ذلك فهو خرب ، فان ابتلى مع ذلك بالغموس فيه او الوقيعة فهو الهالك

وحذار حذار من صحبة الناقصى الهمم منهم ، والجوالين على بطونهم والملقطين على الحظوظ النفسانية كائنة ما كانت ، ومن أظفره الله تعالى باهل الهمم العلية المتخلين على الفانى ، المقيمين على ما يعنيهم فليصحب وليقر عينا بهم ، ويحمد الله تعالى على الكنز والعلق النفيس ، فصحبة هؤلاء نعيم عاجــل وفلاح آجل وفى حقهم يقول القطب الجامع الغوث أبو مديــن رضــى الله عنـــه :

ما لذة العيش الا صحبة الفقراء هم السلاطين والسادات والامراء

وقـــال آخر فى وصفه :

لله تحـــت قباب العـــز طائفة أخفاهم فى رداء الفقر اجلالا
هم السلاطين فى اطمار مسكنة استعبدوامن ملوك الارض اقيالا
شعث مفارقهم غبر ملابسهم جروا على فلك الخضراء اذيالا
هذى المكارم لاقعبان من لبن شيبا بماء فعاد بعـــد ابوالا
(هذي المناقب لاثوبان من عدن خيطا قميصا فعاد بعد اسمالا)

وقـــال آخـــر :

عـــباد الله ســـادات كـــرام لهم فى الخيـــر ان لاح انبعاث
علامتهـــم نـــحـــول واصفرار واخفـــاء واطـــمـــار رثـــات
فهم للناس فى الدنيـــا أمـــان من الامن والخوف وهم غيات
ابادوا صحبة الدنيا وقالـــــوا طلاقـــك فى شريعتـــنا ثـــلاث

وقـــال آخـــر :

رجال الله قد سعدوا وجـــازوا ونالـــوا رحمة المولى وفازوا
رجال طلقوا الدنيـــا ثـــلاثـــا ولو جاز الرجوع لما استجازوا
بدا عـــلم النجاة فـــميـــزوه يحـــركهـــم بـــدار وانحفـــاز

فبعـــض تشرق الامصار منه وبعض يستنـــار بــه المفـــاز
تمـــيـــز كل ذي دين بدنيـــا وهم لهم بدينـــهـــم امتيـــاز
ومـــا عزوا بمخلــوق ولكـــن لهم بالخالق الاحـــد اعتـــزاز
اردت لحاقهم فعجـــزت عنهم وجدت عن الاجازة اذ اجازوا
أتطمـــع باللحاق ولا نـــهوض وتفـــرح بالرحيـــل ولا جواز
وانـــت أخوهـــم نسبـــا ولكن طراز فـــوق ذاك ولا طـــراز
دع الدنيـــا فلســـت لها بنـــد وهـــل تخفى الحقيقة والمجاز

(انتهى الى ربك المنتهـــى والحمد لله تعالى وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى . من خط شيخنا القدوة الامام نبراس الهدى أقر الله طرفه برضاه فى دار السلام وآونا واياه بجوار خير الانام فى دار الهنا والاكرام . تمت بحمد الله)

فاس د : عبد اللطيف السعدانى

أبو علي اليوسي

هموم واهتمامات

عبدالقادر زمامة

لاحقت شخصيات التاريخ فى الدين والفكر والعلم والسياسة وغيرها من مجالات النشاط الانسانىهموم واهتمامات خاصة بهم . جعلت حياتهم وكأنها طاقة متحركة موزعة المفعول والتأثير بين العمق والسطح . والذاتية والموضوعية . والشمول والخصوصية .

واذا حكمنا قانون الاستقراء العام فى ظهور هذه الشخصيات على مسرح الحياة بطاقاتها الموزعة . وهمومها واهتماماتها المنوعة . أيام المخاض الفكري والاجتماعي والسياسى من تاريخ الامم والشعوب . فاننا نجد ظهور شخصية أبى على اليوسى على مسرح الحياة العلمية والفكرية والادبية فى النصف الثانى من القرن الحادي عشر الهجري (1040 هـ —

1102 هـ) ليس شاذا عن قانون الاستقراء العام . الذي فــرض علينا نفسه كلما وقفنا أمام ظهور الشخصيات موقف البحـــث والدرس والتحليـــل ...

فحياة هذا الرجل طلقة حركتها همومه النفسية واهتماماته الفكرية والعلمية والادبية وغيرها . منذ بواكر الطفولة فى مشارف نهر ملوية . حيث عرف هناك تلك الطبيعة الجغرافية القاسيـــة . صيفا وشتاء . كما عرف هناك الحرمان من أحضان الامومـــة وحنانها . الى أن ودع هذه الحياة وما فيها ومن فيها . وهو لا يكاد يصدق . والناس المشفقون عليه من حولـــه لا يكـــادون يصدقون أنه نجا من شبح الهمـــوم المتلاحقـــة والاهتمامـــات المتتابعـــة ... !

ولعل الرجل كان يختار ــ لو خير ــ أن يختصر سنـــى حياته . وهى سنون عادية فى عدتها . أقرب الى القصر منها الى الطول . حيث انها لم تزد على الستين الا قليلا .. ! ولكنها ــ رغم قصرها ــ قدمت له فى مسيرتها ألوانا من التناقض . وانماطـــا من الناس ، وأنواعا من التجارب مارسها عن رضى تارة ، وعن سخط أخرى . ترفعه رافعة . وتخفضه خافضة .. !

فلو كانت حياة اليوسى حياة أديب . أو شاعر أو عالـــم مفكر . أو مرب صوفى . أو سياسى مناضل . أو ما شاء الله من أنماط عصره . لكانت ــ فى الغالب ــ حياة محدودة النشـــاط . محدودة التقدير والاعتبار عند الاصدقاء والاعداء على السواء . ولكنها كانت فى واقع الامر ــ ولا سيما فى عـــين معاصريـــه

ومنافسيه من أهل العلم والادب والتصوف والسياسة ــ حياة رجل ضرب بسهم رابح وحظ راجح فى ميادين شتى بعصامية وذكاء نادرين وتسنى له منذ بواكر شبابه أن يلابس شيوخ العلم . وشيوخ التربية . وأعلام السياسة . ويطلع على خبايا زوايا المغرب . وأسرار النحل والطرق المهتدية والضالة .. وأن يكون هدف وقبلة الساسة والحاكمين يستطلعون عند الملمات رأيه وهواه . ويراقبون فى السر والعلن حركاته وخطاه مع أنه ليس منهم فى شىء .. !

وقد ركبت فيه المعاناة والتجربة والملابسة لهذه التناقضات مركبات نفسية شتى . ظهرت فى سيرته وتصرفاته . وتصرف بعض معاصريه نحوه ..

والمركبات النفسية عادة تقلق الراحة . وتجلب الهموم . وتهدم الجسور بين الانسان ومعاصريه . وتضفى عليه حلة من الاحتراس المفرط . والانطواء والغموض . . . !

وبطبيعة الحال يكون رد الفعل عند الآخرين متأثرا بمركباتهم أيضا فتختل اذ ذاك موازين الخير والشر . والنفع والضر . وتفقد الاشياء قيمتها والاحكام نزاهتها .

كل هذا ينبغى أن نجعله نصب أعيننا . ونحن نقدم امام قرائنا أبا على اليوسى فى همومه واهتماماته طيلة مراحل حياته الثلاث :

ــ مرحلة النشأة والدراسة المتنقلة .
ــ مرحلة الاستقرار فى الزاوية الدلائية .
ــ مرحلة الابعاد والمراقبة .

ولعله من المفيد أن نتذكر هنا أن كل مرحلة من مراحل حياة اليوسى الثلاث . دامت ما يقرب من عشرين سنة . الا أن عين التاريخ راقبته بدقة فى المرحلة الثالثة . وسجل المؤرخون وسجل اليوسى أيضا عن هذه المرحلة ما لم تحظ به المرحلتان: الاولى والثانيــة ...

فالاضواء سلطت على اليوسى منذ طويت صفحة الدلائيين وصفحة زاويتهم . وكان اليوســى اذ ذاك متكامل الشخصية . ما بين الاربعين والستين من عمره . وكانت الاحداث السياسية قد تمخضت فى المغرب عن واقع جديد أخذ يفرض نفسه بجد واصرار بعد العهد بمثلهما . فى جميع الميادين ..

بعد هذا نتساءل . ما هى هموم اليوسى .. ؟ وما هى اهتماماته .. ؟ وكيف لاحقته فى مراحل حياته الثلاث ؟

للاجابة عن هذه الاسئلة يجب أن نرافق اليوسى فى رحلة حول نفسه . وحول ملابساتها وظروفها .

فمن مشارف نهر ملوية ذات الطبيعة القاسية حيث كانت تحل قبيلة (ءايت يوسى) قبل أن تلتقى بموطنها الجديد المعروف الآن بقسميها : ءايت يوسى كيكو . وءايت يوسى أمكلا .. نزل الحسن بن مسعود اليوسى وهو الى اليفاعة أقرب منه الى الشباب . تتقاسم خياله هواجس الصبا: وأحلام الفتوة. ومشاعر مفارقة بيئة حبيبة الى قلبه ولكنها أمية منعزلة محدودة النشاط. فقد فيها حنان الامومة . ولم يجد ما يعوض به ذلك الحنان فى نفسه سوى الاقبال على طلب العلم فى تلك البلاد الشاسعة

الاطراف التى سمع عن علمائها . وصلحائها. وزواياها. ومدارسها الشىء الكثير . وكان يسميها مع بنى قومه : (بلاد القبلة) يعنى بلاد الجنوب كما هو الاصطلاح فى الاندلس والمغرب ...

والمسافة التى تفصل مشارف ملوية فى المغرب الشرقى عن بلاد القبلة مسافة طويلة متنوعة الطبيعة الجغرافية الى جانب ما يخيم عليها اذ ذاك مع بقية أنحاء المغرب . من اضطـراب وتفكك وأهواء مختلفة . حول السيطرة والنفوذ وحول شيوخ التربية وزواياهم . الذين استغلوا الفراغ السياسى المخيم على البلاد فتسابقوا وتنافسوا واتفقوا واختلفوا .. !

وارتسمت فى ذهن الفتى الطالب اليوسى عـدة علامـات للاستفهام وهو ينتقل من قرية الى أخرى . ومن قبيلة الى أخرى. ومن زاوية الى أخرى . ومن شيخ الى شيخ آخر . ويسمـع العربية واللهجات المحلية ويشاهد أنماط الحياة . ومعـرض العادات والاصطلاحات والاخلاق ويقارن كل ذلك بما تركه عند بنى قومه فى آيت يوسى بملوية .

وعرف الطالب فى هذه المرحلة من حياته وهو يطلب العلم : بلاد درعة . وسوس . واقليم مراكش . واقليم سجلماسة كما عرف قسما من بلاد دكالة . وقسما من بلاد الساحل ..

ودرس كتبا وعلوما شتى على عدة شيوخ . وأعانته الغربة على ملازمة الدرس والاستفادة . كما اعانته استقامته وقناعته على كسب ثقة شيوخه وتقديرهم. وكان ظروف غربته واستقامته وقناعته هيأته نفسيا وعقليا ليعرف كل ما أراد أن يعرفه عـن

(بلاد القبلة) من معطيات بشرية وطبيعية وعلمية وما يسود كل ناحية منها من أفكار وانتماءات صوفية . وسياسية . زيادةعلى ما يظهر في مجتمعاتها من محاسن . ومباذل . وعلم . وجهل ، وصلاح . وفساد .. !

وبطبيعة ظروف الطالب الغريب الذكي اليقظ أن تتسع كل يوم ءافاق تفكيره ومطامحه . كما تتسع ءافاق همومه واهتماماته فقد ربطته الكتب التى درسها أو طالعها . والشيوخ الذين زارهم على جهة التبرك أو التعلم . بعدد من شخصيات العلم والادب والتصوف . فالى جانب سيبويه . وابن مالك . والحريري وابن أبى زيد القيروانى وخليل بن اسحق . والامام مالك . والبخاري ومسلم . عرف الجنيد . والسري السقطى . وطيفور ، وابن الفارض والغزالى وأبا مدين والشاذلى والمرسى . وأعلام التصوف المغربى . وأصبح مفهوم (العلم) فى ذهن الطالب اليوسى لا يبتعد عن مفهوم (التصوف) كما أصبحت علوم (العربية) ملكة راسخة فى ذهنه ولسانه وقلمه يتصرف فى كلماتها وأمثالها . وشعرها . ونثرها . كيف يشاء ... !

وينبغي ألا يغيب عن أذهاننا ونحن نقوم برحلة حول نفس الطالب اليوسي وملابساتها وظروفها وهو يطلب العلم فى (بلاد القبلة) أن نشير الى أن أهم الانتماءات الصوفية التى كانت منتشرة فى بلاد القبلة كانت تمر عبر الزوايا الكبرى الشهيرة هناك فى ذلك العصر . وهي :

— زاوية الجزوليين بتزروالت .

— زاوية الغازيين بسجلماسة .

— زاوية الناصريين بتامكروت .

ولكل زاوية من هذه الزوايا فروع ، وأنصار من العوام والخواص . وطابع تتميز به عن غيرها . وموقف صريح أوغامض من الاوضاع القائمة فى البلاد. والمخاض السياسى الذي تعانيه.. الا أن الطالب اليوسى فى هذه المرحلة من حياته كان رغم همومه واهتماماته . بصدد (المعرفة) و (التربية) مع (اقتباس الانوار) و (ملاقاة الاخيار والابرار) من (شيوخ العلم) و (شيوخ التربية) على السواء . أو هكذا يخيل الينا . ونحن ندرس ونبحث . بل اننا نستفيد من أحاديث اليوسى وملاحظاته فى كتبه ورسائله أنه كان يجد فى بعض الزوايا التى مر بها فى بلاد القبلة أن شيخ العلم هو نفسه شيخ التربية بها ... !

فرحلة اليوسى الى بلاد القبلة أو رحلاته على الاصح . طبعت قلبه وفكره ولسانه وسلوكه بطابع الثقة بالنفس . وتصفية القلب . وضبط السلوك . والحرص على المعرفة والقناعة فى العيش بما تيسر . وربط العلم بالتربية . والعمل . والاخلاق كما ان هذه الرحلة أو الرحلات جعلته يألف التردد على أضرحة العدد الكبير من رجال الدين والصلاح والتصوف أينما حل وارتحل . ويجعل ذلك عادته فيما استقبل من أيامه يوم قام برحلاته فى شمال المغرب ..

وهناك نقطة نقف عندها فى رحلة اليوسى الى بلاد القبلة وكان يجب أن نقف . وهى تتعلق باتصال اليوسى بالجزوليين السملاليين أصحاب مدينة (ايليغ) وقد كان لهم اذ ذاك من النفوذ والقوة والجاه ما ساد عدة أقاليم فى الساحل والصحراء . ويذكر مترجمو اليوسى أن أبا حسون المعروف ببودميعة السملالى أمر اليوسى أن ينزل بمدينة تارودانت ليلقى بها دروسه . وينشر العلم بها .. واليوسى اذ ذاك ما يزال دون العشرين من عمره ... !

وهذه النقطة من رحلة اليوسى الى بلاد القبلة التى أشار اليها بعض مترجمى اليوسى نجد البعض الآخر من مترجميه لا يكاد يشير اليها . وربما لا يعرف عنها شيئا .. ; والمستغرب أن اليوسى عند استعراض ذكرياته فى بعض رسائله وكتبه يمر عليها مر الكرام . ونحن نعلم أنه دخل مدينة (ايليغ) ودرس بها . ومن أشهر شيوخه بها عبد العزيز الرسموكى . وقد توجه اليوسى الى شيخه هذا بعبارات التقدير والثناء كلما ذكره .. !

ولعل سكوت اليوسى (فيما رأينا من آثاره) المخطوطة والمطبوعة لحد الآن . يرجع الى أنه كان يكتب ما نقرأ له من كتب ورسائل . بعد طى صفحة (أبى حسون) وطى صفحة أعماله ونفوذه فى بلاد القبلة .. !

وبهذا نجد هموم اليوسى فى هذه المرحلة من حياته ممتزجة باهتماماته فى تكوين شخصيته العلمية . عن طريق التنقل والرحلة الى مدارس العلم التى لا تخلو من تربية صوفية .

وزوايا التصوف التى لا تخلو من حلقات علمية . وتلك ميـــزة العصـــــر ..

وحينما كان اليوسى يرجع الى مسقط رأسه فى ملوية ليزور أهله وعشيرته كان يحز فى نفسه ألا يجد عندهم ما كان يجده فى الاقاليم التى زارها فى سوس ودرعة ومراكش ودكالة وبـــلاد الساحل من شيوخ وزوايا وحلقات العلم والتعليم ... ! وانما كان يجد عندهم فى هذا الباب التردد جماعات وأفرادا التماسا للبركة من أنوار (زاوية ميسور) التى يوجد بها ضريح الشيخ بوطيب بن يحيى الميسوري . وقد سبق لليوسى أن زار هـذه الزاوية قبل رحلته الى بلاد القبلة ونوه بها وببركة أهلها ... ولهذا نجده فى كتبه ورسائله يذكرها ضمن مراكز الخير والبركـــة المشهورة فى المغرب كرباط شاكر . ورباط شالة . وضريـــح الشيخ أبى يعزي وضريح الشيخ أبى سلهام وغيرها ...

وبانتقال اليوسى الى الزاوية الدلائـــيـــة فى حدود سنة 1060 هـ يدخل المرحلة الثانية من حياته حـــيـــاة الاستقـــرار وتكوين الاسرة ، والاشتغال بالتدريس واكمال الدراسة العالية على أعلام الزاوية ، والوافدين عليها من أقاليم المغرب .

وينبغى هنا أن نحدد بعض النقط التى تتعلق بالدلائيـــين وزاويتهم عند اتصال اليوسى بهم واقامته بين أظـــهرهم مـــا يقارب عشرين سنـــة ..

فاليوســـى عندما وفد على الدلائيين انما وفد على مدينة الدلاء : مقر محمد الحاج بن محمد بن ابـــى بكر الدلائى ، أيام

أصبح له من النفوذ والقوة والسيطرة على عدة أقاليم مغربية ما هو مسطر فى التاريخ ... ولم يغد عليهم يوم كانوا فى قرية : الدلاء ، مقر الشيخ المربـــى أبى بكر ابنه الشيخ المربـــى محمد بن ابـــى بكر ، واسم الزاوية الدلائية البكرية ، اطلق اولا على الزاوية التى أسسها الشيخ أبو بكر وتطورت خلال سبعين سنة الى أن أصبحت « قرية » ذات مرافق ومجتمع مستقر .. كمـــا أطلق على « المدينة » التى أسسها محمد الحاج سنة 1048 هـ. وجعلها مقر حكمه ونفوذه وتطورت خلال ثلاثين سنة .. وبـــين الاولى والثانية مسافة تقدر باثنى عشر كلم ... وما تـــــزال اطلال كل منهما قائمة الى الآن .

وقبيلة اليوسى تنتمى الى صنهاجة . وكـــانـــت ترتع فى مشارف ملوية . وكذلك كانت : مجاط : قبيلة الدلائيين صنهاجية الانتماء ، تعيش فى نفس المنطقة قبل أن يقع الانتقال الى أماكن أخرى تحت تأثير ضغط الظروف السياسية والمعاشية .

على أن اليوسى عند المحاجة والمجادلة بعد طى صفحـــة الدلائيين كان يقول ويكتب فى رسائله انه ليس له فى قـــضيـــة الدلائيين « لا ناقة ولا جمل ...» وانما كان رجل علم وتربية يفيد ويستفيـــد

ويظهر ان اليوسى عرف اثناء مقامه عند الدلائيين كلا من « الدلاء » القديمة والمحدثة وتنقل بينهما اثـــنـــاء ظروف وملابسات ربما كانت ظروف مضايقات وملابسات ناشئة عن خلاف وتنافس بينه وبين معاشريه من دلائيين ووافدين .

فنجده يقول فى احدى هذه الملابسات والظروف :

رحلت وقد نزلت على الـدلاء   وخلفت الحضيض الى العلاء
وخلفى عصبة يدرون غيبى   مغيب الغيث عن قوم ظمـاء
فقل لهم اذا ظمئوا استغيثوا   ببحـر لا يكـدر بالـدلاء

فواضح من هذه الابيات أنه انتقل حاملا هموما وأحزانا من مدينة الدلاء : مدينة محمد الحاج الى قرية الدلاء القديمة. والاولى فى سفح الجبل ، بينما الثانية فى أعلاه ولعله كان بهذا الانتقال يحاول التخفيف عن نفسه من الـهمـوم التى يحملها والمتاعب التى يتعرض لها عند الدلائيين .

وواضح ايضا من هذه الابيات ما يتجلى فيها من مركبات اليوسـى النفسية ... فهو عند نفسه غيث ، والناس ظماء الى هذا الغيث ، وهم عصبة يعلمون مقدار خسارتـهـم حـينما يفارقهم الغيث وهم ظماء ، فلا يسعهم الا ان يستغيثوا ببحـر زاخر ... يأخذون منه كفايتهم ، ولا يكدر صفوه كثرة « الدلاء » التى يرسلونها لجذب ما به من خيرات لا ينضب معينهـا ، ولا يغيض فيضها ...

واصطاد اليوسـى هذه التورية الواقعة بين علم المدينة التى يعيش بها « الدلاء » وبين جمع كلمة دلو على « دلاء » ليصل الى هذه الصورة التى تعيش فى خ ياله بين الآبـار ،،، ودلائها، والبقاع وغيثها . وسيكرر اليوسى هذه الصورة بأسلوب آخـر يوم يصل الى فاس ويعانـى من بعض منافسيه من أهلها ما

كان يعانيه من منافسيه فى الدلاء ، وسيقول للاخرين ما قال للاولـــين ... !!!

ومن حسن حظ اليوسى انه وجد فى « الدلاء » مجتمعا به من الاساتذة والشيوخ والطلبة والوافدين والكتب ما جعله يستقر ويكون الاسرة ويستقبل البنين والبنات ويخطط لنفسه مشاريعه فى الكتابة والتأليف ومراسلة شيوخه فى بلاد القبلة ونظـم الاشعـار .

وكان اليوسى وهو فى « الدلاء » عنـصـرا من عناصر تقوية الصلة بين الناصريين والدلائيين فالمشارب التربوية تكاد تكون متحدة بين الزاويتين حيث انهما يستقيا ، من معين الشاذلية ويربيان الانصار تربية صوفية قوامها التوبة والاقتناع وممارسة الطاعات والمبرات ونوافل الخير .. وان اختلفا فى اتجاهات اخرى لا مجال لاثارتها الآن ..

واليوسى حينما مدح شيخه ومربيه أبا عبد اللــه ابن ناصر بداليته الطويلة الشهيرة قال الناس فى الدلاء وفى غير الدلاء انه صنع بشيخه ابن ناصر ما صنعه أبى الفارض بشيخه أبى العباس المرسى ...

والواقع ان الزاوية الناصرية تعتبر اليوسى ابنها البار ، وخريجها المختار ، وهى التى احتفظت بمجموعة ثمينة من كتبه ورسائلــه النــادرة . ومــن مجموعــة هــذه الرسائــل

أطلعنا على كثير من هموم اليوســـى واهتماماته فى عدة مجالات علمية وأدبية وصوفية واجتماعية ...

وكانت الزاوية العياشية امتداد للزاوية الدلائية وبنتهـا التى غذتها بلبانها . وكان اليوسى على اتصال مستمر بشيخها محمد بن أبى بكر العياشى : « الذي سبقه للاخذ عن الدلائيين » كما كان متصلا ايضا بابنه وخلفه أبـــى سالم العياشى الرحالة الشهيــر ...

وهكذا ابـــى الله الا ان يكون لليوسى حظ من اهتمـــام ورعاية وتقدير عند رجال الزوايا الثلاث . فى حياته وبعد مماته كما أبى الا ان يجعل من اليوسى رجلا وفيا لاشياخه واصدقائه يثنـــى عليهم فى كتبه ورسائله وأشعاره ويعترف لهم بما قدموه له من ألوان المبرة والاحسان .

وتزج حوادث الايام بابى على اليوسى قسرا فى المرحلة الثالثة من حياته عندما طويت صفحة الدلائيين وكادت صفحـــة العياشيين تطوى أيضا .

ولا ندخل فى تفصيلات التاريخ وانتقال اليوســـى الى فاس . ثم مراكش ، ومكناس ، وخلفون : على ضفاف نهــر أم الربيع ، ورحلاته فى تطوان وغيرها من أقاليم وجبال الشمال، وانما يعنينا ان نرافق اليوسى فى همومه . واهتماماته المختلفة، وهو فى مرحلة الابعاد والمراقبة يعانـــى ما يعانـــى تحت اضواء كاشفة والحالة هذه وهو يريد الانطواء .

وقبل كل شيء ، ينبغي الا يغيب عن ذاكرتنا أن مركبات اليوسي النفسية في هذه المرحلة قد ظهرت بارزة للعيان وكان بالامكان لو خفت هذه المركبات ان يلاقي من الناس ضروبا أخرى من المعاملة والتعايش مغايرة لما لقيه .

فهموم اليوسي في فاس وما قيل عن أسبابها وخلفياتها ليست راجعة في الجوهر الا الى مركبات نفسية اصطدمت فيها مركبات بمركبات ، وحساسيات بحساسيات . وربما لم تكن القضية تعدو منافسة شخصية بين اليوسي وشخصية أخرى معينة معروفة لا اقل ولا اكثر ...

فلم تكن هناك هيئة ولا جماعة بل ولا حتى نزعة تقوم ضدا على اليوسي . وعلمه وفضله وأدبه ، وشخصيته المستقيمة باعتباره بدويا طارئا او غريبا مضطهدا ...

والدليل العملي على ذلك هو أن المؤلفات التي كتبت بفاس في عصر اليوسي وبعده تشيد باليوسي وتنشر فضائله وتتفنن تفننا غريبا في ذكر ترجمته وآثاره الشعرية والنثرية ويجتهد اصحابها في التقاط كل شاذة وفاذة تتعلق بحياته وسيرته ومؤلفاته وتلامذته ..

وحول اليوسي نجد عددا من طلبة العلم والشخصيات المرموقة تجتمع لتشيد بفضله وتواسيه في غربته . وقد ذكر اليوسي نفسه هذه الشخصيات في خاتمة المحاضرات فلا معنى لتعدادها هنا . ويبتسم الانسان ويستغرب عندما يرى ما يكتبه بعض المسلطين على الورق والمداد من ان اليوسي صادف في مدينة

فاس حربا شعواء ،،، وو ،،، مع ان القضية فى اطارها الحقيقى عند التحليل المعمق والنظرة المستوعبة لا تعدو ما ذكرناه .

واضطر اليوسى اليوسى — نزولا عند مركباته الى ان يقول بيتيه الشهيرين : — ما انصفت فاس ولا أعلامها ... — واضطر منافسه الى الاجابة عن هذين البيتين .. وانتهى الامر، فأين هى الحرب الشعواء ؟ وأين ضحاياها والاشلاء ؟ وأين ما كتبه المتحاربان شعرا ونثرا ، واين التهم التى تبادلها الطرفان ؟

فالقضية جزئية تتكرر فى كل زمان ومكان لكن المركبات أرادت ان تعممها وتجعل من اليوسى رجلا مضطهدا فى فاس يتآمر أهل المدينة عليه بقضهم وقضيضهم ... !!

واذا تخطينا هذه القضية نجد اليوسى فى محنة حقيقية مع نفسه ومع ظروفه الخاصة التى لم تهضم تحديات الواقع الذي كان اليوسى يود ان يكون واقعا مثاليا يتسم بالصفاء والجدية والوضوح طبقا للتربية التى عاش عليها والتى كان يؤمل أن يجد اصداءها ونتائجها عند الناس ولا سيما اهل العلم والمعرفة والنفوذ .

ومن هنا جاءت تلك الافكار وتلك القضايا التى طرحها اليوسى فى رسائله وكتبه ولا سيما رسائله الى السلطان المولى اسماعيل ، وفصوله فى المحاضرات عن اخلاق الناس وفسادها. والمعاملات واضرارها ، والنفوس وادوائها .

وجاءت ظروف سياسية أخرى جعلت اليوسى - وهو يريد الانطواء والانزواء - لا يستقر فى مكان من البادية الا ونصح من طرف السلطة بالرجوع الى المدينة لينتفع الناس بعلمه ووعظه وارشاده وكتبه .. وقد عبر اليوسى عن همومه فى هذا الميدان نظما ونثرا .

على أن اليوسى رغم هذا كله كان يخلو الى نفسه فيكتب ويؤلف ويوضح اهتماماته العلمية فى عدة مؤلفات ورسائل ، نستطيع أن نجد فيها

1 - الاهتمام باللغة واللهجات ورد بعضها الى بعض

2 - الاهتمام بفضح الشعوذة والمشعوذين ولا سيما منهم ادعياء الصلاح كالعكاكزة وانصار المهدوية

3 - القضايا الاجتماعية فى البوادي والحواضر

4 - القضايا الدينية فى العادات والعبادات

5 - السلوك وقضايا التربية الصوفية .

ولا شك ان فى دراسة مؤلفات اليوسى ورسائله المخطوطة ما يزيدنا علما بهموم اليوسى واهتماماته ، الا اننا لا نودع الحديث عن هذا الموضوع دون ان نشير الى ذلك النص الغريب الذي رأيناه فى الرحلة المخطوطة المسماة « نسمة الآس فى حجة أبى العباس » وهى من تأليف الشيخ الرحال أبى العباس أحمد بن عبد القادر القادري الذي رافق شيخه المربى أحمد ابن

عبد الله معن الى الديار المقدسة . ولـــقــى أبا على اليوسى فى الطريق ، وكان اليوسى يقدر الشيخ أحمد ابن عبد الله معـــن ويقدر مكانته فى ميدان التربية بمدينة فاس . كما يقدر صديقه الشيخ أحمد اليمينى وقد عقد معهما عهد الصفاء والمودة .

والنص الذي كتبه أبو العباس احمد بن عبد القادر القادري فى رحلة « نسمة الآس فى حجة ابى العـــبـــاس » يتعلق بعزم اليوسى على الاقامة بالمشرق .. بعد أداء مناسك الحج . وقد خلا اليوسى بالشيخ أحمد ابن عبد الله معن واستشاره فى هـــــذه القضية فأشار عليه برأيه فيها

ولا شك أن اليوسى قد فكر فى الاقامة بالمشرق ، كما يقول صاحب الرحلة الا انه لم ينفذ فكرته ، اما لكون صديقه نهاه عن ذلك ، واما لكونه اقتنع عمليا بعدم جدوى هذه الاقامة هناك ،،، لا سيما ونحن نعلم ان مركبات اليوسى حالت بـــيـــنه وبيـــن استجازة علماء المشرق ..

فــــــاس **عبد القادر زمامــة**

اعتمدنا فى تحرير هذا المقال على المصادر الآتيـــة :

ـــ طبقات الحضيكى
ـــ فهـــرس الفهـــارس
ـــ المحـــاضـــرات
ـــ الزاوية الدلائيـــة
ـــ رسائل اليوســـى خ.ع. 302 .
ـــ نسمة الآس خ.
ـــ اليوسى ومشكل الثقافة المغربية فى القرن السابع عشر

القول الفصل
في تمييز الخاصة* عن الفصل**

د. التهامي الراجي الهاشمي

*** 1 ـ هذا مصنف من أجل مصنفات الشيخ الكبيـــر ، العلامة أبي علي اليوسي . ولكن ، رغم أهميته القصوى لم يحظ بالعناية التي حظيت بها باقي مؤلفاته ، مثل : « نيل الاماني في

---

* سيرد شرح الخاصة في الحاشية رقم 11 .

** انظر البيان عن ذلك في الحاشية رقم 12

*** هذه الارقام العربية تشير في هذا البحث الى بداية تعليقاتـــي التي امهد بها لكلام ابي علي اليوسي ، اما الحروف الابجديـــة فاشير بها الى العناوين التي اضعها للفقرات . اضع كلا مـــن الارقام والحروف لتسهيل احالة القارىء على ما اريد ان يعود اليه .

شرح التهانى » (1) و « زهرة الاكم فى الامثال والحكم » (2) ، و « القصيدة الدللية » (3) ، و « نفائس الدرر فى حواشى المختصر » (4) ، وغيرها كثير .

2 — ولا شك أن اهمال هذا الكتاب الجليل عائد الى أن موضوعه فى المنطق (5) ، وهى مادة صعبة ، لا بالنسبة لمعاصريه الذين أهملوا هذا الفن اهمالا ما عليه من مزيد ، ولكن أيضا بالنسبة للمحدثين الذين بهرهم ما ينتجه الغرب فى هذا الباب ، فهم عن كل ما خلف سلفهم الصالح من الاجداد غافلون .

3 — بدأ الكتاب بذكر السبب الذي دفع به الى تصنيفه فأخبرنا أن مرد كتابته سؤال ورد عليه من بعض الاخوان ، تقدم اليه يستفسره عن قول المناطقة : ان الناطق جزء داخل

---

1) يوجد من « نيل الامانى فى شرح التهانى » ثلاث نسخ فى الخزانة العامة بالرباط ، هى 712 د و 1292 د و 1604 د . وهو شرح رابع للقصيدة الدالية التى نظمها هو نفسه ، والتى توجد منها فى نفس الخزانة العامة نسختان خطيتان .

2) وهو كتاب نفيس للغاية يقوم بتحقيقه الآن الصديقان الدكتوران محمد حجي ومحمد الاخضر غزال ، ومنه فى الخزانة العامة بالرباط وحدها نسختان .

3) توجد نسختان منها فى الخزانة العامة بالرباط ، واحدة منها تحمل رقم 78 د

4) توجد منها بالخزانة العامة بالرباط اربع نسخ هى 2143 د و 451 د و623 د و 1072 د

5) كدت ان اقول « المنطق الرياضى » او « المنطق الرمزي » كما يسمى هذا المنطق الفلاسفة المعاصرون .

فى الماهية ، والضاحك لازم خارج عنها . فكان جوابه عن هـذا السؤال شاملا جامعا مانعا ، الى درجة أنه صار ــ كما يقول هو نفسه : « جزءآ يحق أن يلقب : « **القول الفصل فى تمييز الخاصة عـن الفصل** » .

4 ــ وليست هذه الاحاطة الدقيقة للموضوع الشائك المادة ، هى وحدها التى جعلتنى أحكم على الكتاب بأنه نفيس ، ولكن أيضا ، وعلى الخصوص ، حسن اختياره للمصطلحات الفلسفية الدقيقة التى يبرع فى استعمالها ويجيد تفسيرها ، موفقا فى اختيار الامثلة المعززة لتوضيحها .

5 ــ واذا كان من الصعب الآن تقديم النص الكامل لهذا الكتاب النفيس ، فلا أقل من أن أعطى الفقرات التى يقدم بها كتابه ونص السؤال الوارد عليه ، ثم مختارات متفرقة من جوابه عن هذا السؤال محاولا مقارنة النسختين الخطيتين اللتين رجعت اليهما (6) مركزا الكلام على المصطلحات التى ترد أثناء جواب الشيخ الكبير أبى على اليوسى .

ا ــ تقديم الكتاب

الحمد لله الواجب بذاته وصفاته ، المتعالى عن تخيلات الوهم وتصرفاته ، رب الملك والمالكوت ، وفائق الحدود والنعوت ،

---

6) رجعت الى نسختين خطيتين مسجلتين بالخزانة العامة بالرباط تحت الرقمين 271 د و 1072 د ، احجمت عن وصفهما طلبا للاختصار .

أحمــده على مــا عرف مــن الوهم ، وأسأله الوقوف عند ما حددورســـم . وألجأ اليه فى ستر الاعراض ، وقضاء الاغراض . وأصلى وأسلم على نبينا محمد المؤيد بالحكمة وفصل الخطاب . وعلى آله وصحبه خاصة الخاصـــة وأقطاب الاقطاب .

أما بعد ، فهذا جزء لطيف ، ومترع ان شاء الله شريف ، أوضحت فيه فرق ما بين الذاتى(7) والعرضى (8) ، حتى كان أحدهما سماوي والاخــر أرضى (سببـــه) (9) سؤال بعضــس الاخوان عن الفرق بين الناطق (10) فى تعريف الانسان المجعول ذاتيا وبين الضاحك المجعول عرضيا .

---

7) سنلاحظ أن الشيخ ابى على اليوسى يدقق مصطلحاته المنطقيـــــة ولذا سأحاول الوقوف عندها ، من بينها : **الذاتى** ، هو ما يختص بالذات الفاعل ، وهو ما يعرف عند الغرب بـــ Subjectif
أما **الذاتية** ، فهى فى هذاالفن الذي يهمنا ، وهو المنطــق نظريتـــان : 1) النظرية التى ترجع كل يقين الى التصديق الفردى . 2) النظريـــة التى ترفض كل قيمة موضوعية عند التمييز بين الخطأ والصواب .

8) **العرضى** : هو ما يعرف عند الغرب بـــ accidentel

9) اجمل بين كلابين ما سقط من النسخة الخطية 1072 د .

10) تستعمل هذه اللفظة فى المنطق ويعنون بها « عقلى » Raisonnable ومن هنا قالوا عقلانية لما وصفه الاوروبيون بـــ **Rationalisme** وهو مذهب يقول بأن للعقل قدرة نظرية لها قوانين خاصـــــة ، بفضلها نستطيع أن نتيم المعرفة ، بقطع النظر عن التجربة الحسية أو الرجوع الى الوحـــى .

ب ـ تسمية الكتاب والاعتذار لعدم تحليته بالتمهيد الــــذي يتصدر المؤلفات عــادة .

فلما وقفت عليه انجر الكلام ، والحديث شجون ، الى أن صار جزءا يحق أن يلقب **القول الفصل فى تمييز الخاصة (11)**

---

11) احسن تعريف لـ « الخاصــة » الواردة فى عنوان الكتاب هــو التعريف الذي ذكره الشيخ أبو عبد اللــه محمد بن احمد بن عرفة الورغمي التونسي المولود سنة 716 هجريــة (1316 م) والمتوفى سنة 772 هـ (1401 م) فى كتابه المسمى « المختصر فى المنطق » قال : « فالكلى تمام ماهية افراده نوع وجزؤها جنس أو فصـــل وخارجا عنها **خاصة** أو عرض عام . والثانى يسمى ذاتيا . والشيخ قد يفسر الذاتى بما ليس **بعرضي** فالماهية عليه ذاتية . والذاتــي جزء أو **فصل** لانه ان كان مقولا فى جواب « ما هو ؟ » كان جنسا ، والا فان اختص بالماهية كان فصلا لتمييزه الذاتى اياها . فان كان تمام مميزها بقريب ، والا فــ « **فصل** » ، فصل وان لم يختص بهــا ، امتنع كونه تمام مشترك بينها وبين ما يخالفها . والا كان مقـــولا عليها فى جواب « ما هو ؟ » والفرض خلافه ، فوجب كونــه جــزءا من تمام المشترك لا مباينا له ولا اخص ، ولو من وجه لوجـــود المباين والاعم ، ولو من وجه دون مباينة واخصه ، وامتناع وجود الكل دون جزئه ولا أعم ، والا وجد دونه مشتركا بينها وبين ماهية ما . (انظر المختصر فى المنطق لابن عرفة تحقيق وتقديم سعد غراب المطبعة العصرية بتونس بدون تاريخ الصفحتين 66 و 67) .

كما عرف **الخاصة** تعريفا دقيقا أبو عبد الله محمد بن نامور بن عبد الملك الخونجي المولود سنة 590 هجرية (1194 م) وتوفى بمصر سنة 646 هـ (1248 م) ، فقال : « . . . وان كان خارجا عنهــا فان حمل على ما تحت طبيعة واحدة فقط كان **خاصة** وان حمل على غيرها أيضا كان **عرضا** عاما ، وكل واحد منهما اما غير شامل أو شامل مفارق أو لازم اما للوجود او **الماهية** وذلك اما بغير وســط

عن الفصل (12) . ومن صدوره اتفاقا قد يفوته بعض ما هو شأن المصنفات من تمهيد وترصيف ، وفي جانب ما وقع بلا كبير رؤية ولا مراجعة للاصول (13) ، يفتقر له ما عسى أن

ان لم يفتقر العلم باللزوم الى ثالث واما بوسط اذا افتقر اليه .
واذن فالخاصة هي صفة عرضية تميز النوع ، كالضحك بالنسبة للانسان ، ويطلق عليه الغرب propriété

12) أعتقد انه لامفر من ايراد التعريف الذي عرف به هذا المصطلح الشيخ الكبير ابو نصر الفرابى الذي قال : « والفصول المقومة لنوع ما ، فانها تحمل على اشخاص ذلك النوع ، وكذلك المقومة لجنس ما ، فانها تحمل على انواع ذلك الجنس حملا مطلقا . وكذلك كل جنسين كان أحدهما تحت الاخر ، فان الفصل المقوم للجنس الذي هو أعلى يحمل على الجنس الذي هو اسفل حملا مطلقا . ولما كان جميع ما يجاب به في جواب كيف الشيء ؟ يمكن ان يؤخذ في جواب : اي شيء هو ؟ وكان الفصل يحمل من طريق كيف هو ؟ لزم ان تكون الفصول الذاتية للنوع تؤخذ في جواب المسالة عن ذلك النوع باي شيء هو ؟ وكذلك الفصول المقومة لجنس ما ، فانها تؤخذ في جواب المسالة عن ذلك الجنس اي شيء هو ؟ وتلك حال كل فصل مقوم ، فانه يؤخذ في التمييز بين ما يقوم وبين آخر يشاركه في الجنس الذي هو أعلى منه . فلذلك صار الفصل يقال فيه انه هو المحمول على كلي من طريق اي شيء هو ؟ ، ويقال انه هو الذي يميز بين ما تحت جنس واحد بعينه ، ويقال انه هو الذي تختلف به الاشياء التي لا تختلف بالجنس . (انظر كتاب الالفاظ المستعملة في المنطق لابى نصر الفارابى تحقيق محسن مهدي صفحة 73 وما بعدها من طبعة بيروت سنة 1968) .

13) ورغم أنه يقول انه لم يراجع الاصول فانه سيستشهد ، في هذا الكتاب بكثير من اقوال العلماء وسيشير الى مؤلفاتهم التى نقل عنها ، سأذكر هذا في نقطة قادمة .

يقع فيه من (سهو) (14) وتحريف . واليه المستعان ، وعليه التكلان .

ج ـ السؤال الموجه للشيخ

نص السؤال :

سيدي رضى الله عنكم ، لا زلتم لايضاح ما أشكل ، وايجاد ما أفل ، جوابكم عن مسالة ، وهى قول المناطقة : « ان الناطق جزء داخل فى الماهية (15) والضاحك لازم خارج

---

14) اجعل بين هلالين ما سقط من النسخة 271 د كما جعلت بين كلابين ما سقط من النسخة 1072 د .

15) فسر هذه اللفظة تفسيرا دقيقا وبامثلة الشيخ الكبير ابو نصر الفارابى فى كتابه : « الالفاظ المستعملة فى المنطق » فى كلام طويل ومفيد اقتطف منه قوله : « والامر الذي يستعمل فى افادة ما يتعرف بمسالة ((**ما هو الشىء ؟**)) هو احد أمرين ، اما أمر يدل عليه بلفظ مفرد او امر يدل عليه بلفظ مركب . مثال ذلك قول القائل : ((**ما هذا الشىء ؟**)) فلننزل أن المسؤول عنه كانت نخلة ــ فان المجيب متى قال هذا الشىء هو نخلة فقد استعمل فى افادته امر يدل عليه **باسم مفرد** . ومتى قال ((**شجرة تثمر الرطب**)) فقد استعمل فى الجواب امرا يدل عليه **بقول مركب** . وباي هذين اجاب المجيب به فقد وفى السائل مطلوبه ، الا أن احد الامرين يدل على النخلة باسم مفرد ، والثانى يدل عليه بلفظ مركب . فالامر الذي ينبغى أن يستعمل فى جواب : ((**ما هو الشىء ؟**)) اذا كان يدل عليه **بلفظ مركب** ، فانه يسمى **ماهية** الشىء ، ويسمى أيضا القول الدال على ما هو الشىء أو على جوهر الشىء أو على انية الشىء ، أو

عنها ، ان كان اصطلاحا فلابحث ، وان أرادوا أن مستنــــده العقل ، بحيث يمتنع غيره فلا نسلمه . اذ العقل لا يحكــم الا بكونهما صفتين لازمتين له . وأما دخول واحدة دون أخرى ، ما أدركناه . ومما يؤيد اشكالنا كلام الشيخ المنجــور (16) حيث جعل الحقائق كلها واحدة والاختلاف بجرد العرضيــات فحسب . ومن جملتها الناطقيــة (17) ، ورد الشيــخ القصار ان سلم . وضحه لنا سيدي ، اذ فهمنا فى كلامه تدافعا ، وذلك لقصورنا . وغاية ما أدركت عقولنا [أنها] واحدة داخلــة أو خارجة بالاعتبــار . واستدل بعض [هم] على دخول الاول :

طبيعة الشيء ، ويسمى قول جوهر الشيء أيضا . يطلق الغربيون على ماهية المصطلح Essence . وهناك مذهب يعــرف بــ l'Essencialisme وهو الذي يطلق عليه العرب المصطلــح الماهوية وهو مذهب يقابله مذهب الوجود او الوجودية . (وانظــر كذلك التعليق رقم 62) .

16) هو ابو العباس احمد بن على بن عبد الرحمن ، المشهــــور بــ « المنجور » وهو فقيه مغربى مكناسى الاصل . قال صاحب صفوة من انتشر : « كان يقول :ان العلو مكلها نافعة ، حتى أنه تعلــــم لعبة الشطرنج واتقنها » (ص 4) . ولد سنة 926 هجريـــــــة (1520 م) وتوفى بفاس سنة 995 هجرية (1587 م) . له « شرح المنهج المنتخب » ما زال مخطوطا وهو فى الفقه المالكي ، و « مراقي المجد فى آيات السعد » . وكتاب فى العقائد يعرف بــ « حاشية على السنوسية الكبرى » .

17) الناطقية ، لفظة صيغت على هياة المصدر الصناعى ، والمصـــدر الصناعى ، كما هو معلوم ، مادة مهمة فى العربية افيد منها كثيــرا فى التوصل الى كثير من المصطلحات العلمية ، وسيذكر الشيخ ابو على اليوسى عددا منها فى هذا الكتاب .

انا تتعقل الانسان بدون الضاحك ، فعلمنا أنه أمر زائد ، وهو باطل ، اذ لا فرق من جهة لزومها له . ولذلك نقول [أن] لو ركبت ماهية الانسان من الحيوان والضلحك لتعقل بدون الناطق . وكلن ما عداهما أمرا زائدا . وأيضا سيدي هل الناطق حيث جعلوه جزء الماهية ، باق على عرضيته ، أم لم يلاحظ فيه ذلك المعنى حيث قاسوه على السكنجبين أو أطلق على شيء (18) خاص في [الماهية] .

ومما يؤيد الاول اطلاقه على القوة المتفكرة ليدخل الاخرس ، فيتقوى الاشكال ، اذ لا مانع من أن يراد بالضاحك القوة المدركة للغرائب فيكونان داخلين معا أو خارجين ، وتخصيص أحدهما دون الآخر تحكم . وقد أجبنا سيدي بكلام القرافي (19) : ان العرب وضعت الحيوان الناطق للانسان وفهم منهم ذلك . وقد علمت أن الفن للحكماء وليس موقوفا على

---

18) تبدأ هنا اللوحة 89 من النسخة 271 د .

19) لا شك ان القرافي الذي يقصده صاحب السؤال هو أحمد بن ادريس ابن عبد الرحمن أبو العباس الصنهاجي القرافي المتوفى بالقاهره سنة 684 هـ (1285 م) لانه هو الذي يمكن ان يخوض في مثل هذه المسائل المشار اليها في السؤال نظرا لاهتمامه بفن الاصول . له في هذا الفرع : « أنوار البروق في أنواء الفروق » و « الاحكام في تمييز الفتاوي عن الاحكام وتصرف القاضي والامام » وهما مطبوعان معا . وله أيضا في هذا الفن « شرح تنقيح الفصول » و « مختصر تنقيح الفصول » و « الاجوبة الفاخرة في الرد على الاسئلة الفاجرة » وكلها مطبوعة ، وله غيرها من المصنفات بعضها ما زال مخطوطا مثل « الذخيرة » في فقه المالكية .

الوضع فى شيء . وهذا ما سولته أوهامنا ، وأدعنت اليه عقولنا ، فانظر سيدي ما ظهر ، والسلام الاتم ورحمة الله وبركاته . »

د ـ جواب الشيخ أبى على اليوسى على السؤال المطروح

ونص الجواب (20) :

الحمد لله وحده ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم .

الجواب والله الموفق للصواب :

ان الكلا مفى هذه المسألة يتمهد فى مطلبين :

الاول : بيان مفهوم الذاتى من الكليات (21) وتصوير

---

20) هذا كلام الشيخ ابى على اليوسى نفسه لا كلام كاتب هذا البحث .

21) للكلية معنى عبر عنه الشيخ الفارابى ، فقال : « واما المعنى المفهوم من قولنا « انسان » فانه متى حمل على موضوع ما امكن ان يوخذ بعينه محمولا على موضوع آخر . **فالمعانى التى شانها ان تحمل على اكثر من واحد تسمى المعانى الكلية** والمعانى العامة والعامية والمعانى المحمولة على كثير . وما لم يكن من شانه ان يحمل على اكثر من واحد لكن اما ان لا يحمل على شيء اصلا واما ان يحمل على واحد فقط لا غير فانها تسمى « الاشخاص » (انظر « الالفاظ المستعملة فى المنطق » صفحة 59) .
والكليات انواع :
1 ــ الكليات المنحازة بالحمل .
2 ــ الكليات المشتركة فى الحمل .
وهذه تتفرع الى ستة انواع :

حقيقته بالحـــــد (22) .

ا ــ المشتركة فى الحمل الاعم (ابدا أو بوجه)
ب ــ المشتركة فى الحمل الاخص (ابدا أو بوجه)
ج ــ المشتركة فى الحمل الجزئى .
د ــ المتساويـــــة .
هـ ــ المتساوقـــــة .

يعرف ابن سينا الكلية فيقول : « فالكلى من حيث هو كلى ، ومن حيث هو شىء تلحقه الكلية ، شىء » ، وهو مصطلح يطلق عليه الغـــــرب Universalité

22) الحد ، هنا عند الشيخ ابى على اليوسى ، هو كما عرفه ابن سينا : « القول الدال على ماهية الشىء . . . وهو ما يتحصل له مـــــن جنسه القريب وفصله . » وهو كما عرفه الجرجانى ، القول الذي : « يشتمل على ما به الاشتراك وعلى ما به الامتياز » .
الا ان هذا البيان غير كاف اذا لم اعززه بما قاله ابو نصر الفارابى . قال : « ومتى شارك النوع (ارجو قراءة العين مفتوحة) فى الحمـــل على الاشخاص كلى يدل عليه لفظ مركب يليق ان يجاب به فى المسألة عن النوع وعن الشخص ما هو،وكانت اجزاؤه بعضها يدل علـــى جنس ذلك النوع وبعضها يدل على فصله ، وكان مساويا للنوع فى الحمل ، فان ذلك الكلى يسمى حـد ذلك النوع ــ واعنى بالنـــوع ما هنا ليس الاخير فقط لكن والانواع المتوسطة . مثال ذلك قولنـــا حيوان مشاء ذو رجلين ، أو حيوان ناطق مائت ، فان هذا الكلـــى اذ كان يحمل على اكثر من واحد، وهو يشارك الانسان فى الحمل على زيد وعمرو ، ويدل عليه لفظ مركب ، ويليق أن يجاب به فى المسألة عن زيد ومن الانسان ، ما هو ، واجزاؤه الحيـــــوان والمشاء ، والحيوان يدل على جنس الانسان ، والمشاء يدل على فصله وكذلك ذو الرجلين ، وهذا الكلى باسره يساوي الانسان فى الحمل . فهذا وما اشبهه هو حـــد الانسان . ومتى كان الكلى الذي بهذه الحالـــة غير مساو للنوع فى الحمل ، بل كان أعم من النوع المشارك له ، فهو يسمى حدا ناقصا لذلك النـــوع (انظر الالفاظ للفارابى ، صفحة 78)

الثانى : بيان خواصه وامارته التى يمتاز بها ذهنا وخارجا حتى يتضح باعتبار مصدوقاته ، ويتبين **فى كل كلى** أنه ذاتى أو عرضـــــى .

أما المطلب الاول فواضح مشهور ، اذ لاخفـــاء ان الذاتى هو الكلى الداخل فى ماهية افراده أو الذي هو تمام ماهيتهـــا . و « أو » للتنويـــع .

أما الاول فجنس ، ان كان أعم من ماهية افراده بحسب الصدق : كالحيوان باعتبار ماهية الانسان ، وفصل (23) ، ان

والحد يجمع على حدود وهو مصطلح يعـــــرف عند الـــغرب بـــ définition أو terre

وللقضية فى المنطق حدان ، الموضوع والمحمول

— الحـــد الاكبـــر le terme majeur

— الحـــد الاوســـط le terme moyen

— الحـــد الاصغـــر le terme mineur

فالمتكرر يسمى **حدا اوسط** والباقيان يسميان **طرفين** . مثال هذا : اذا اخذنا قياسا على الصورة الآتية : كل جزئى مركب من ذرات ، وكل مركب محدث ، اذن كل جزئى محدث فـــ « محدث » الحـــــد الاكبر (وهو محمول المطلوب) و « جزئى » الحد الاصغر (وهو موضوع المطلوب) و « مركب » ، الحد الاوسط (ما تشترك فيــه مقدمة القياس) نقلا عن مصطلحات فلسفية نشـــــر كلية الاداب والعلوم الانسانية بالمغرب .

(23) عرضت فى الحاشية رقم 12 تعريفا للمصطلح المنطقى « الفصل » ، وهو التعريف الذي ذكره الشيخ الكبير الفارابى - ويمكن الان ان نقسم الفصول الى ستة انواع :

1 — الفصـــل الذاتى للنوع .

كان مساويا لها كالناطق باعتبار ماهية (24) الانسان .

واما الثانى فنوع كالانســـان بناء على ان النوع هو ذاتى وما سوى ذلك مما هو خارج عن الماهية فعرض (ي) ، كالضاحك لماهية الانســـان ، والتنفس لها (25) .

وأما المطلب الثانى ، فاعلم أن الذاتى قد اعتبروه بثـــلاث خواص ، قد ذكرها ابن الحاجب فى قوله : « الذاتى ما لا يتصور فهم الذات قبل غهمه كاللوفية (26) للسـواد ، والجسميـــــة للانسان . وقد يعرف بأنه غير معلل وبالترتيب(27) العقلى» (28)

---

2 ــ الفصـــل الذاتى للجنس .
3 ــ الفصـــل الذاتى المقوم .
4 ــ الفصـــل الذاتى القاسم .
5 ــ الفصـــل المتقابـــل .
6 ــ الفصـــل غير المتقابـــل .

24) اريد أن اضيف هنا ، زيادة على ما اثبته فى الحاشية رقـــم 15 : « يطلق الغرب على « الماهية » المصطلح quiddité وهـــى تعنى : « الحقيقة الخاصة بشىء ما » . فهى اذن مقومات الشـــىء أو مجموع صفاته التى بدونها يستحيل تصوره (وكلمة quiddité لفظة لاتينية يجاب بها عن السؤال : ما ؟) وكذلك ماهية ، فانهـــا تتركب من كلمتين على نفس الشكل « ما ؟ » الاستفهامية و « هى » ضمير الغائب المنفصل ، واول من استعمل « ماهية » الحمصـــى والكندي » عن مصطلحات فلسفية صفحة 131 .

25) المتنفس فى 271 د .

26) مصدر صناعى آخر ، انظر الحاشية رقم 17 ، وبعد قليل سيذكر ابو على اليوسى « الجسمية » .

27) سيشرح ابو على اليوسى معنى « الترتيب » بعد قليل .

28) انتهى هنا كلام ابن الحاجـــب .

ومعنى **الاول** أن ماهية الانسان مثلا لا يمكن أن تفهمها اذا لم تفهم الحيوانية والناطقية ، لان هذا المعنى **هو المعنى بالماهية** ، فاذا لم تفهمه فأنت لم تفهم الماهية .

ومعنى **الثانى** أن الذاتى لا يثبت لما هو ذاتى له بعلة ، فلا تقول : « لم كان الانسان ناطقا أو حيوانا ؟ » ، لان الانسان هو ذلك . فكأنك قلت : « لم كان الانسان انسانا ؟ » .

ومعنى **الثالث** أن ذاتى الشىء يتقدم عليه فى الوجودين أي ، ذهنا وخارجا (29) . فان الانسان مثلا لا توجد ماهيته فى الذهن أي لا تتعقل (30) حتى تعقل أجزاؤها من الحيوانية والناطقية . وفى الخارج أيضا لا تتحقق حتى تتحقق أجزاؤها وهذا معنى **الترتيب** (31) ، وهو مخصوص بجزء الماهية .

---

29) قال ابو نصر معرفا الصيغة الخارجة : « والصنف الذي به تثبت ذات الشىء تسمى صيغ ذات الشىء ، والصنف الآخر الذي لا تثبت به تسمى **الصيغ الخارجة** عن ذات الشىء .
والحرف الذي يقرن بالشىء فيدل على انه مطلوب معرفة صيغته بالجملة فهو حرف « كيف » . فانا اذا قلنا : « كيف الشىء ؟ » ، فطلبنا هو معرفة صيغة الشىء ، اما صيغة ذاته ، **واما الخارجة عن ذاته** .

30) « لاتعقل » فى 271 د وهى مصححة فى طرة النسخة 1072 د

31) سيتعرض الامام ابو على اليوسى الى الخلاف فى « الترتيب » عند كل من الغزالى وابن الحاجب فى اللوحة 91 من النسخة 271 د بعد السطر العاشر .

أما النوع (32) فلا يتقدم لاستحالة تقدم الشيء على نفسه . والعرضى بخلاف ذلك فى الجميع (33) ، وهذه المسألة مبسوطة فى كتب المتقدمين .

قال الامام حجة الاسلام (الغزالى) (34) فى كتابه « مقاصد الفلاسفة » (35) : اذا قلنا : هذا الحيوان انسان وأبيض ، أدركنا تفرقة بين نسبة الحيوانية وبين نسبة البياضية (36) اليه . فما نسبته نسبة الحيوانية الى الموضوعات يسمى ذاتيا وما نسبته نسبة الابيض يسمى عرضيا

فيقال : كل معنى كلى نسب الى جزأين تحته ، فاما أن يكون ذاتيا واما أن يكون عرضيا ، ويكون المعنى ذاتيا (37) ما لم يجتمع فيه ثلاثة أمور :

---

32) ان الحد يعرف من الشيء امرين اثنين ، كما يقول أبو نصر . احدهما انه يعرف ذات الشيء وجوهره ، والثانى انه يعرف ما يتميز به عن كل ما سواه . فلذلك سمى بهذا الاسم — اعنى اسم الحد — من قبل أنه شبيه بحدود الضياع والعقار ، اذ كان حد الدار يخص الدار وبه تتميز عن سائر الدور وبه انحازت الدار عن ما سواها

33) اللوحة 197 ب — من 1072 د .

34) انظر الحاشية رقم 14 .

35) « مقاصد الفلاسفة » للغزالى ، هو فى المنطق والحكمة الالهية والحكمة الطبيعية . طبع فى « ليدن » سنة 1888 ميلادية مع شروح ، وفى القاهرة غير مرة ، وله ترجمة لاتينية طبعت فى « البندقية » سنة 1906 ميلادية .

36) مصدر اصطناعى آخر ، انظر الحاشيتين 17 و 26 .

37) اللوحة 190 من النسخة 271 د .

الاول :

انك مهما فهمت الذاتى ، وفهمت ما هو ذاتى له ، لـم يمكنك أن يخطر ببالك الموضوع أو تفهمه ، الا أن تفهم حصول الذاتى له ، ولا يمكنك فهمه دون ذلك الذاتى . فانك اذا فهمت : « ما الانسان ؟ » و « ما الحيوان ؟ » لم يمكنك فهم الانسان دون الحيوان . واذا فهمت العدد ، وفهمت الاربعة ، لم يمكنك أن تقدر الاربعة ولو أبدلت الحيوان والعدد بـ « الموجود » و « الابيض » ، أمكنك أن تفهم « الاربعة » من غير أن يدخل فى فهمك أنها موجودة أم لا ، وأنها بيض . بل ربما تشك فى أن العدد أربعة أم لا . وذلك لا يقدم فى فهمك ذات « الاربعة » . وكذلك تفهم ماهية الانسان بعقلك من غير أن تحتاج الى فهـم كونه أبيض أو فهم كونه موجودا . ولكثرة وجود الانسان فابدله بالتمساح أو بما شئت من الحيوان وغيرهما ، فبذلك يظهر أن الوجود عرضى للماهيات كلها . وأما الحيوان للانسان فذاتى ، وكون اللون للاسود ، والعدد للخمسة .

الثانـــى :

انك تفهم أن الكلى لا بد أن يكون أولا حتى يكون جزئـــى تحته حاصلا . اما فى الوجود أو فى الزمن ، اذ لا بد من حيوان أولا حتى يكون انسانا (أو فرسا) (38) بل لا بد من انسان أولا حتى يكون ضاحكا . وكون الانسان ضاحكا بالطبع وصف له

38) انظـــر الحاشيـــة رقم 14 .

عرضى تابع لوجوده ، وهو مساو لكونه حيواناً فى أنه لازم لا يفارق ، ولكن الفرق بينهما مدرك ، اذ لا بد من اتصال الـــروح بجسد الانسان أولا ليكون انسانا . ولا يمكن أن يقال لابد من ضحاك أولا ليكون انسانا ، بل لا بد من انسان أولا ليكون ضاحكا. ولا نعنى بهذه **الاولوية ترتيبا زمنيا بـــل ترتيبا عقليـــا** ، وان كان مساويا فى الزمــن .

الثـــالـــث :

ان الذاتى لا يمكن أن يعلل . فلا يمكن أن يقال : « جعل الانسان حيوانا والسواد لونا ، والاربعة عددا » . بل الانسان حيوان لذاته ، لا يجعل جاعل ، اذ لو كان يجعل جاعل لتصور أن يجعله انسانا ، ولا يجعله حيوانا . ولا يمكن ذلك فى الوهم كما يمكن أن يجعل « انسانا » ولا يجعل « ضاحكا » . أمـــا العرضى فمعلل ، اذ يقال : « ما الذي جعل الانسان موجودا ؟ ». فيصح السؤال . ولا يصح أن يقال « ما الذي جعل الانســـان حيوانا ؟ » كقوله : « ما الذي جعل الانسان انسانا ؟ » . فيقال : هو انسان لذاته . فكذلك هو حيوان لذاته ، لان معنى الانسان حيوان ناطق ، ولا فرق بين قوله : «ما الذي جعل الحيوان الناطق حيوانا ناطقا ؟ » وبين قوله : « ما الذي جعله حيوانـــا ؟ » . الا أنه اقتصر فى أحد السؤالين على أحد الذاتين دون الاخر (39) .

---

39) القول الفصل فى تمييز الخاصة عن الفصل ، اللوحة 90 من 271 د .

هـ ــ وسيلـــة تقريب مادة الكتاب

6 ــ من الوسائل التى يستعملها أبو على لتقريب مــادة كتابه الصعبة للاذهان واثارة قارئيه الحوار . لذا تراه يقـــول المرات بعد الاخرى : « واعترض » فيردف بعد الاعتـــراض : « وأجيب » . أو « قال فلان » ، فيردف بعد القول : ((قلت)) والامثلة على ذلـــك لا تحصـــى :

قـــال مـــثلا (40) :

« **واعترض** الامر الاول بأن الماهية لو عرفت برســـم يوجب تصورها لكانت متصورة بدون ذاتياتها ، فيلزم ألا تكون تلك الذاتيات ذاتية ، وهو باطـــل » .

وأجيب بأن المراد تصور الماهية بالكنه لا مجرد الشعور ، والتصور بالكنه مستحيل بدون تصور ماهيتها ، وهو ظاهر .

« **واعترض** » بأن الرسم البسيط لو احتيج الى رســـم أيضا لامتنع ادراكه بدون ذلك الرسم ، فيكـــون ذاتيـــا لـــــه وهو باطـــــل (41) .

---

40) القول الفصل ، اللوحة 91 ، السطر الرابع .

41) نقرأ اعتراضا آخر فى آخر اللوحة 91 . كما نقرأ اعتراضا على ابن الحاجب فى اللوحة 198 أ من النسخة 1072 د . وآخر على مـــا يقوله الغزالى فى اللوحة 92 من 272 د ، السطر العاشر ، ويرد على المعتزلة الذين يظنون أن « توابع الحدوث لا تتعلق بها قـــدرة القادر » انظر اللوحة 92 السطر الخامس عشر من 271 د .

7 – يختتم أبو على اليوسى هـذه الاعتراضات كلهـا بقولـه (42) :

« وقد أفصح الائمة قديما وحديثا بخفاء الميز بين الذاتى والعرضى الملازم ، واعترفوا بأن جل ما يذكر الآن من التعاريف رسوم أو حدود نواقص لعسر العثور على الحد الحقيقى » .

8 – ثم ينقل من كتابين للامام الغزالى هما « الحد » (43) و « محك النظر » (44) كلاما يؤيد هذه النظرية .

وبعد ذلك يحاول أن يبين أن هذا الفن عسير مستعص . لكن ، لما رأى أن ذلك قد يثنى العزائم قال (45) :

« وهو مع هذا ، فعسر لا يجعله ممتنع المنال ، ولا مستديم الاشكال ، بل هو على طرف اللثام ، عنود وفى الافهام ، وقليل ما هم :

وللحقائق أقوام لها خلقوا وللحروب لدى الهيجاء فرسان

9 – ويرد أبو على اليوسى حتى على ابن سينا الذي يرى أن :

---

42) انظر اللوحة 94 من 271 د السطر التاسع .

43) اللوحة 94 السطر 11 من 271 د ، واللوحة 198 ب السطر 31 من 1072 د .

44) اللوحة 94 السطر 20 من 271 د ، واللوحة 199 ا السطر الرابع . ومحك النظر كتاب فى الفلسفة طبع فى مصر ، بدون تاريخ .

45) « للقول الفصل » اللوحة 94 من 271 د السطر 25 وكذا اللوحة 199 ا من 1072 د السطر الثامن .

« ثبوت الاجناس للانواع معطل » (46) .

فيقول : « واذا لم يتبين ذلك كل التبيين من معايين الشيوخ السوابق (47) فلا بد من طبيب يحسن كشفه (48) ، ولامر ما جدع قصير أنفه ، فنقول (49) . . . »

10 — ثم يتعرض لشرح الماهية شرحا دقيقا مطولا ، موضحا فيه ميدان اهتمامه ، فيقـــول (50) :

« فاعلم أن الماهية بسيطة ومركبة . والمركبة قسمـــــان : حقيقية واعتبارية . و (الــ) حقيقية قسمان حسية وعقلية .

أما البسيطة ونعنى بها ما لم يعتبر منها تعدد وكثـــرة ، ذهنا وخارجا ، فليست من غرضنـــا ولا بحث لنا عنهـــا ، ولا دخل لنا فى السؤال والجواب وذلك أن البحث كان عن الاجزاء الداخلة ، والبسيط لا جزء له ، وذاته هى غير مفهومة بـــــلا شبهـــــة . »

---

46) اللوحة 95 من 271 د السطر 19 واللوحة 199 أ من 1072 د السطـــر 24 .

47) « الشيوخ السابق ذكرهما » فى 271 د ، وهو خطأ واضح .

48) وليس الطبيب الذي يحسن كشف الداء الا الامام اليوسي .

49) اللوحة 95 من 271 د السطر 23 واللوحة 199 أ من 1072 د السطــــر 27 .

50) اللوحة 96 من 271 د السطر 12 واللوحة 199 ب السطر 7 .

12 ـ غير أنه لا ينهي شرحها فى هذه الصفحات ، اذ يعود الى الموضوع الذي كان يخوض فيه قبل ، ولا ينهي توضيحها الا بعد صفحات كثيرة ، فيقول (51) :

« الماهية من حيث هى ثلاثة أقسام : مخلوطة ومجردة ومطلقة ، وذلك أن الماهية قد تؤخذ بشرط مفارقة العوارض المتشخصات ، فيقال لها « الماهية المخلوطة » . والماهية بشرط شيء ، وقد تؤخذ بغير أن يقارنها شيء من العوارض (52) أصلا،

---

51) اللوحة 115 من 271 د السطر 23 .

52) العوارض أنواع : 1 ـ العوارض الذاتية ، 2 ـ العوارض الغريبة ، 3 ـ العوارض المكتسبة ، 4 ـ العوارض السماوية .
يحدد هذه « العوارض » تحديدا علميا دقيقا العلامة أبو الحسن على بن محمد بن على الجرجانى ، المعروف بـ « السيد الشريف » المتوفى سنة 816 هـ (1430 ميلادية) فى كتابه القيم « التعريفات والاصول المنطقية » فيقول :
العوارض الذاتية : هى التى تلحق الشيء لما هو هو ، كالتعجب اللاحق لذات الانسان او لجزئه ، كالحركة بالارادة اللاحقة للانسان بواسطة أنه حيوان ، أو بواسطة أمر خارج عنه مساو له كالضحك العارض للانسان بواسطة التعجب .
العوارض الغريبة : هى العارض لامر خارج أعم من المعروض ، كالحركة اللاحقة للابيض بواسطة انه جسم ، وهو اعم من الابيض وغيره ، والعارض للخارج الاخص منه ، كالضحك العارض للحيوان بواسطة انه انسان وهو أخص من الحيوان ، والعارض بسبب المباين ، كالحرارة العارضة للماء بسبب النار وهى مباينة للماء .
العوارض المكتسبة : هى التى يكون لكسب العباد مدخل فيها بمباشرة الاسباب كالسكر او بالتقاعد عن المزيل كالجهل .
العوارض السماوية : ما لا يكون لاختيار العبد فيه مدخل ، على معنى انه نازل من السماء كالصغر والجنون والنوم .

فيقال لهـــا « الماهيـــة المجـــردة » .

12 ــ ثم يختتم هذا البحث القيم بخاتمة ، يقول فيها (53) :

خاتمـــــة (54) :

تشتمل على مباحث ، وقع فيما مر التنبيه عليها والاشارة اليها ، ولكن غير مستوفات . ولا بد من استيفائها باختصار لئلا يغتر مغتر أو يظن ظـــان » .

13 ــ وأخيرا يختتم كتابه بستة عشر مبحثا هى كما يلى :

المبحث الاول

14 ــ يتحدث فيه عن « علـــة الشيء » (15) ويقول : « أي ما يحتاج اليه ذلك الشيء ، وهى اما داخلة فيه أو خارجة

---

53) اللوحة 128 من 271 د ، السطر 14 .

54) هذا لفظ الامام ابى على اليوســـى .

55) « علـــة الشيء » مـــا يتوقف عليه ذلك الشيء . وهى قسمان : الاول ما يتقوم به الماهية من اجزائها ويسمى علة الماهية ، والثانى : ما يتوقف عليه اتصاف الماهية المتقومة باجزائها بالوجود الخارجي ويسمى علة الوجود . وعلة الماهية اما الا يجب بها وجود المعلول بالفعل بل بالقوة وهى العلة المادية ، واما ان يجب بها وجود ، وهى العلة الصورية (انظر الحاشية 56) وعلة الوجود اما أن يوجد منها المعلول ، أي يكون مؤثرا فى المعلول موجدا له وهى العلـــــة الفاعلية اولا ، وحينئذ اما ان يكون المعلول لاجلها وهى العلـــــة الغائية ، اولا وهى الشرط ان كان وجوديا وارتفاع الموانع ان كان عدميـــــــا .

عنه . فان كانت داخلة فيه ، فوجود الشيء معها اما أن يكون بالفعل ، وهي العلة الصورية (56) ، أو بالقوة وهي العلة المادية » (57) .

المبحث الثانى

15 ــ عقد الامام أبو علي اليوسي هذا المبحث للحديث عن البساطة والتركيب في الماهية (58) ملاحظا أن التركيب اما أن يكون بحسب العقل أو بحسب الخارج ، فهي (59) ، في هذه الحالة أربعة أقسام :

1 ــ بسيط عقلي .
2 ــ بسيط خارجي .
3 ــ بسيط مركب عقلي .
4 ــ بسيط مركب خارجي (60) .

المبحث الثالث

16 ــ يتعرض هنا لنظرية بسطها على طول الكتاب وعرضه،

---

56) « العلة الصورية » ما يوجد الشيء بالفعل ، والمادية ما يوجد الشيء بالقوة، والفاعلية ما يوجد الشيء بسببه ، والغائية ما يوجد الشيء لاجله (انظر الحاشية رقم 55 أعلاه) .
57) اللوحة 128 من 271 د السطر 16 .
58) يتمم الشيخ ابو علي اليوسي بهذا المبحث وبغيره ياتي ما المحت اليه في الفقرتين 10 و 11 .
59) اقصد البساطة .
60) اللوحة 130 من 271 د ، السطر التاسع .

يمكن أن أجملها فيما يلى « لا يتصور أن يكون الفصل أعم من الجنـــس » (61) .

المبحث الرابع

17 ــ يحاول المؤلف أن يبين فى هذا المبحث أن أجـــزاء الماهية (62) العقلية متمايزا ذهنا (63) لا خارجا (64) .

المبحث الخامس

18 ــ تصدى الشيخ الامام فى هذا المبحث الى « الاختلاف

(61) « الجنس » كلى مقول على كثيرين مختلفين بالحقيقة فى جواب ما هو من حيث هو كذلك . فالكلى جنس . وقوله « **مختلفين بالحقيقة** » ، يخرج النوع والخاصة والفصل القريب . وقوله « **فى جواب ما هو** » يخرج الفصل البعيد والعرض العام . وهو قريب ان كان الجـــواب عن الماهية وعن بعض ما يشاركها فى ذلك الجنس وهو الجـــواب عنها وعن كل ما يشاركها فيه ، كالحيوان بالنسبة الى الانسان ، وبعيد ان كان الجواب عنها وعن بعض ما يشاركها فيه غير الجواب عنها وعن البعض الآخر ، كالجسم النامى بالنسبة الى الانســـان . (التعريفات . صفحـــة 42) .

(62) احب أن اضيف هنا الى ما قلته فى التعليق رقم 15 التعريف الـــذي اعطاه للماهية للشيخ الامام ابو الحسن الجرجانى فى « تعريفاته » . قال : « ماهية الشيء ، ما به الشيء هو هو ، وهى من حيث هى هى لا موجودة ولا معدومة ، ولا كلى ولا جزئى ، ولا خاص ولا عام ، وقيل منسوب الى (ما) ، والاصل : المائيه قلبت الهمزة هاء لئلا يشتبه بالمصدر المأخوذ من لفظ (ما) والا ظهر انه نسبة الى (مـــا هو) جعلت الكلمتان ككلمـــة واحـــدة .

(63) « الذهـــن » اما قوة للنفس تشمل الحواس الظاهرة والباطنة معـــدة لاكتسا ب العلـــوم واما هو الاستعـــداد التام لادراك العلوم والمعـــارف بالفكـــر .

(64) اللوحة 134 من 271 د ، السطر 23 .

فى ماهية الانسان » ، فحاول أن يجيب عن السؤال : « هـل ماهية الانسان حقيقية أو اعتبارية » (65) .

المبحث السادس

19 ــ يمكن تلخيصه فيما يلى : « للقوة العقليـة (66) التى يمتاز بها الانسان مراتب ثلاثة ، تختلف عليها الاسامـى بسببهـا » (67) .

المبحث السابع

20 ــ يدور هذا المبحث حول الفكرة : « كل ما سوى الانسان نوع واحد » (68) ، وهى الفكرة التى يوضحها كما يلى : « ان كلها (69) ، سوى الانسان من الحيوان نوع واحد ، وان الخصيصه التى امتاز بها الانسان هى القوة المتفكـرة المدركة (70) ، وما سواه قد عدم هذه الخصيصة ، فلم يكـن

---

(65) اللوحة 136 من 271 د ، السطر 25 .

(66) القوة العقلية باعتبار ادراكاتها للكليات تسمى **القـوة النظرية** ، وباعتبار استنباطها للصناعات الفكرية من أدلتها بالراي تسمـى القوة العملية . وهناك « القو ةالعاقلة » وهى قوة روحانية غيـر حالة فى الجسـم ، مستعملة للمفكرة ، وتسمى بالقدس ، والحدس مـن لوامـع أفكـاره .

(67) اللوحة 137 من 271 د ، السطر 16 .

(68) اللوحة 137 من 271 د ، السطر الاخير .

(69) يقصـد المخلوقـات .

(70) يسميها أبو الحسن على بن محمد بن على الجرجانى بـ « القـوة المفكرة » ، ويقول عنها : « قوة جسمانية ، فتصير حجابا للنـور الكاشف عن المعانى الغيبية » . (انظر « التعريفات » صفحة 95)

عنده الا مجرد الحياة مع الحس والحركة وقوة الشهوة ، والغضب ، ونحو ذلك » (71) .

المبحث الثامن

21 — يعلق الشيخ الامام فى هذا المبحث على النظرية التى تقول : « ان الفصول اذا جهلت حقائقها ، أقيمت عوارضها » (72) .

المبحث التاسع

22 — يناقش الامام أبو على اليوسى فى هذا المبحث (73) الشيخ سعد الدين (74) فى « شرح المقاصد » (75) الذي « يتحدث عن الممتزجات المسمات بالمواليد الثلاثة ، أعنى المعادن والنبات والحيوان » .

يؤيد الامام أبو على اليوسى رأي الشيخ سعد الدين .

---

71) اللوحة 138 من 271 د ، السطر السادس .

72) اللوحة 139 من 271 د ، السطر الثامن عشر .

73) اللوحة 139 من 271 د ، السطر 20 .

74) هو سعد الدين مسعود بن عمر بن عبد الله التفتزانى : من ائمة العربية والبيان والمنطق ، ولد سنة 712 هجرية (1312 م) فى بلاد خراسان . كانت فى لسانه لكنة . مات بسمرقند سنة 793 هجرية (1390 م) . له من الكتب فى المادة التى تهمنا وهو المنطق : « تهذيب المنطق » و « شرح الشمسية » وهما مطبوعان ومعروفان . وله فى البلاغة « المطول » و « المختصر » اختصر به شرح تلخيص المفتاح . وله فى علم الكلام « مقاصد الطالبين » و « شرح مقاصد الطالبين » الذي اخذ منه الشيخ أبو على اليوسى استشهاده (انظر الفقرة 22 أعلاه) . وله ايضا « شرح الكلم النوابغ للزمخشرى » و « شرح العقائد النسفية » و « حاشية على شرح

كما يؤيد رأيه الذي يقول فيه (76) : « من المعدنيات ما وصل الى أفق النباتيات ، ومن النباتيات ما وصل الى أفق الحيوانيات » (77) لانه يطلق من قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « اكرموا عمتكم النخلة » .

المبحث العاشر

23 — عقد هذا المبحث للحديث عن الحد ، معلقا تعليقات ضافية على القاعدة القائلة : **« الحد لا يثبت بالبرهان »** . وذكرنا فيه (78) أنه نبهنا على ذلك فى حواشى « شرح المختصر » (79) .

وفى هذا المبحث تظهر براعة الشيخ اليوسى فى المناقشة العلمية ، ويبدو من خلالها اهتمامه البالغ فى تحديد معنى الالفاظ العلمية الدقيقة (80) .

العضد على مختصر ابن الحاجب » و « التلويح الى كشف غوامض التنقيح » وغيرها كثير .

75) يسمى أيضا « مقاصة الطالبين فى علم أصول الدين » فرغ من تاليفه سنة 784 هجرية ، مرتب على سبعة مقاصد ، وهو مطبوع .

76) اللوحة 140 من 271 د ، السطر الرابع .

77) هذه نظرية مأخوذة من قواعد الفلاسفة ، كما جاء فى « شرح المقاصد » .

78) انظر اللوحة 141 من 271 د ، السطر السابع .

79) له فعلا حواشى على شرح المختصر يسمى « نفائس الدرر فى حواشى المختصر » ، توجد منه فى الخزانة العامة اربع نسخ تحمل الارقام الاتية : 2143 د و 451 د و 623 د و 1072 د . (مجموع) .

80) سيما وهو يناقش الخطيبى ، شارح المختصر الذي قال : « التعريف قسمان : حقيقى ووصفى » . (انظر اللوحة 143 من 271 د ، السطر الثامن . والتاذلى فىتعليقه على التنقيح من بعض شروح الارشاد) .

المبحث الحادي عشر

24 – يعلق فى هذا المبحث على التساؤل : « هل الذاتيات من الجنس ، والفصل معتبرة فى المفهومات العدمية ، أم هى مخصوصة بالموجـودات ؟ » (81) .

المبحث الثانى عشر

25 – يحدد فيه ما يجب أن يفهم مـــن قول الفلاسفة : « ان أجزاء الحقيقة المسماة بالذاتيات لا تعقل الحقيقة الا عند تعلقها وهو الفرق بين الذاتى والعرضى » (82) .

المبحث الثالث عشر

26 – يبسط أطروحته التى تقول : « طالب العثور على حقيقة الشىء اذا وجدها بين نفسه ، فلا يكابر نفسه ، ولا يبالى بأي طريق وصل اليها وظفر بها » (83) .

المبحث الرابع عشر

27 – يضيف فى هذا المبحث معلومات أخرى يستقيها ، كما يقول ، من كلام الاقدمين (84) على : « مضمون مـــا مر من الكلام جملة مما يستعين به العاقل على الاطلاع على ذات الشىء ويكتسب به قدرة على تعريف الاشياء بالحـــــدود الحقيقيـــة » (85) .

---

81) اللوحة 148 من النسخة 271 د ، السطر 12 د .
82) اللوحة 149 من 271 د ، السطر 14 .
83) اللوحة 151 من نفس النسخة ، السطر 23 .
84) انظر الورقة رقم 151 من النسخة 271 د ، السطر الثانى .
85) اللوحة 152 ، السطر ما قبل الاخير .

المبحث الخامس عشر

28 ــ يبسط القول هنا فى أطروحة أخرى من أطروحاته ، تقول هذه الاطروحة الجديدة : « اذا أدركت حقيقة الشىء بالحد التام المشتمل على كل من الجنس والفصل ، فما يصح أن يقال ان لهم ذاتيات أخرى ، أو كون هذا الحد حدا تاما يقضى بانحصارها والاحاطة بها » (86) ؟

المبحث السادس عشر

29 ــ أمر مهم هذا الذي يصدر به هذا المبحث ، فلنقرأه : « قد يقع فيما مر من العبارات والتقسيمات شىء مما لا تعهده أيها الناظر أو لا تجده عند غيرنا . فلا تعجل بانكاره توهما منك أنى ممن يتصدى لحكاية أقوال الناس وتلفيق كلامهم ، وممن قصارى علمه ، ومنتهى جهده أن يقول : قال فلان . كلا ، والله لسنا ، ان شاء الله فى ذلك الشد ، ولا ذلك العنق . وأنا أعوذ بالله ان ننسخ وجوه القراطيس ونكرر عدد الدفاتر بمجرد ما للناس لفظا أو معنى على وجه التقليد ، وصنع كل فدم بليد . من تشبع بما ليس فيه كان كمن لبس ثوبى زور . ولا سيما فى هذه العلوم التى هى على الدراية موقوفة ، والى منهاجها مصروفة » (87) .

الربـــاط **د. التهامى الراجى الهاشمى**

---

86) اللوحة 153 من 271 د ، السطر 21 .

87) اللوحة 154 من النسخة 271 د السطر الاول .

المناهل

تصـــدرهـــــا :

وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافيـــة

زنقة غاندي ـــ الرباط ـــ المغـــرب

التليفون : 91 .318 / 92 / 93

AL - MANAHIL

Publication du
MINISTERE D'ETAT CHARGE DES AFFAIRES CULTURELLES

Rue Ghandi - Rabat (Maroc)
Tél. : 318-91/92/93

مطبعة فضـالة ـــ المحمدية (المغرب)

ثمن النسخة : 2،50 د .